

دراسات و بحوث مؤتمري

الإمام الحسين (عليه السلام)

(القسم الثاني)



طهران

محرم الحرام ١٤٢٤

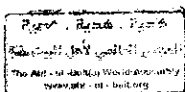




مجموعۃ مقالات

مؤتمر الإمام الحسين عليه السلام

القسم الثاني



طهران

محرم الحرام ١٤٢٤ هـ. ق / اسفند ١٣٨١ هـ. ش

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام



الكتاب: دراسات و بحوث مؤتمر الإمام الحسين (عليه السلام) (القسم الثاني)

تأليف: مجموعة من الباحثين

الناشر: مركز الطباعة و النشر للمجمع العالمي لأهل البيت (عليه السلام)

الطبعة: الأولى

الكمية: ٢٠٠٠

سنة الطبع: ١٤٢٤ هـ. ق. ٢٠٠٣ م

ISBN: 964-7756-34-8

شابكة: ٨-٣٢-٧٧٥٦-٩٦٤

«حقوق الطبع محفوظة»

تهران - ص.ب. ٧٣٦٨-١٤١٥٥

هاتف: ٨٩٠٧٢٨٩ (٠٠٩٨٢١) - فاكس: ٨٨٩٣٠٦١ (٠٠٩٨٢١)

فهرس اجمالي

المقدمة

- ١ - علم الإمام الحسين عليه السلام بشهادته ١
- ٢ - الحسين عليه السلام والبيعة ليزيد بن معاوية ٢١
- ٣ - الإمام الحسين عليه السلام شرعية الثورة على الشرعية المزعومة ٥٥
- ٤ - المناهج الأموية ونورة التصحيح الحسينية ٧٩
- ٥ - الإمام الحسين عليه السلام في مواجهة الانحراف ١٣١
- ٦ - دواصة عسكرية للثورة الحسينية ١٦٣
- ٧ - القيمة والبراغماتية في صراع الطف ١٩٥
- ٨ - احكام فقهية حول الشخصية الحسينية ٢٣٥
- ٩ - التربة الحسينية ٢٥٩
- ١٠ - كيف لا أفتخر بالحسين ٢٨٣
- ١١ - حول السيدة «شهربانو» ٢٩٥
- ١٢ - الشعائر الحسينية الهادفة ٣٢١
- الفهرس التفصيلي ٣٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة:

إنَّ للإمام الحسين عليه السلام موقِعاً رسالياً في صميم حركة الأنبياء والأولياء تميّز به عن سائر أئمة أهل البيت عليه السلام، وجعل منه حقيقة خالدة وضميراً حياً لكلّ مظلوم يصحر بظلامته عبر تاريخ البشرية، وصرخة حق تدوي في وجه الظالمين الى يوم الدين، وليس جزافاً أن تكون طبيعة الرعاية النبوية ومستواها متميزة للإمام الحسين عليه السلام التي نجدها صريحة عبر هذا العدد الكبير من النصوص والروايات التي تنقلها لنا أمهات الكتب الحديثية لكافة المذاهب والفرق الإسلامية في حقّه عليه السلام، وليس هذا إلا من أجل أن هناك دوراً رسالياً جوهرياً ومقاماً إلهياً خاصاً أَرادَهُ اللهُ سبحانه وتعالى ورسوله الصادق الأمين لهذا الإمام الوتر لكي يكون ثار الله القائم حتى يرث الأرض عباد الله الصالحون، وتتكامل به عليه السلام وينهضته الإلهية الكبرى شروط الوعي العقائدي للأمة الإسلامية ويتعاضد اندكاكها بالرسالة بقيادة أهل بيت النبوة والعصمة عليهم السلام لتنتقل تحت ولايتهم بإرادة صلبة ثائرة وبِعزم أولي العزم نحو إعلاء كلمة الله في الأرض ليكون الدين كله لله وحده لا شريك له.

ونجد هذه الحقيقة قد جتدها الإمام الحسين الثائر عليه السلام لأجيال الأمة

على مدى الدهر في شعارات ثورته ومتطابقات نهضته الإلهية، فهو القائل: «إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي محمد ﷺ»^(١)، وهو القائل: «ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله»^(٢)، وهو القائل: «رضا الله رضانا أهل البيت ﷺ»^(٣)، وهو القائل أيضاً: «نحن أهل بيت محمد ﷺ أولي بولاية هذا الأمر»^(٤)، وهو القائل أيضاً: «من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً عهده مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يمدخله مدخله»^(٥)، والقائل أيضاً: «إني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً»^(٦)، والقائل أيضاً: «لا أفلح قوم اشتروا مرضاة المخلوق بسخط الخالق»^(٧)، والقائل أيضاً: «لا والله لا أعطيكم يدي إعطاء الذليل ولا أفرار العبيد»^(٨)، والقائل أيضاً: «هيات منا الذلة بأين الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون»^(٩) وغيرها كثير منها زخرت بها كتب الحديث وتناقلتها رواته من مختلف المذاهب الإسلامية، فكل ملحمة الطف إلهية، فأياها أيام الله الخالدات وكلمات

(١) مقتل العوالم: ٥٤، ومقتل الخوارزمي: ١٨٨/١.

(٢) تاريخ الطبري: ٢٧٨/٣، والأخبار الطوال: ٢٣٨.

(٣) اللهورف: ٣٣، ومثير الأحرار لابن نما: ٢٠.

(٤) إرشاد المفيد: ٢٠٧، وابن شهر آشوب في المناقب: ١٩٣/٢.

(٥) تاريخ الطبري: ٣٠٧/٣.

(٦) تاريخ الطبري: ٣٠٧/٣، والعقد الفريد: ٣١٢/٢ وغيرها.

(٧) بحار الأنوار: ١٨٩/١٠، ومقتل العوالم: ٧٦.

(٨) تاريخ الطبري: ٣١٩/٣.

(٩) تاريخ ابن عساکر: ٣٣٤/٤، ومقتل الخوارزمي: ٧/٢ وغيرها.

إمامها كلمات الله الخالدات، فهي خالدة بالكلمات وخالدة بالتضحيات وخالدة بإمامها وأهل بيته وأصحابه الشهداء.

ومن هنا نفهم السر في مدى الأثر الجوهري لملحمة الطف وكلمات الإمام الحسين عليه السلام على نهج الإمام الخميني عليه السلام في نهضته وثورته التي جعلها بالانتصار المتواصل الى يومنا هذا، وكأنه كان واحدة من تلك الصرخات التي أطلقها الإمام الحسين عليه السلام في الثورة بوجه الظالمين والمستكبرين. ولهذا يؤكد الإمام الخميني عليه السلام على إمتداد حركته وثورته وقيادته للأمة على أحياء الشعائر الحسينية وعلان الولاء للإمام الحسين عليه السلام وفي الوقت نفسه يؤكد على اعلان البراءة من أعداء الإمام الحسين عليه السلام من ظالمي آل محمد عليه السلام، وكل الظالمين على مدى الأجيال والعصور. وفي ذلك استحضار دائم للثورة الحسينية وأهدافها وتقويم دائم للواقع على أساس معادلة الحق والباطل ومصاديقها في كل عصر. فانظروا الى ما جاء في وصية الإمام الراحل عليه السلام للأمة الإسلامية: «أوصيكم أن لا تغفلوا حتى للحظة واحدة عن إقامة شعائر مراسم العزاء للأئمة الأطهار، لا سيما سيد المظلومين ورائد الشهداء أبي عبدالله - صلوات الله الوافرة وصلوات أنبيائه وعلائقه الصالحين على روحه الملحمة العظيمة -، واعلموا أن تأكيد الأئمة عليه السلام على أحياء هذه الملحمة التاريخية الإسلامية وأوامرهم بادامة اللعن على ظالمي آل البيت نابعة من كونها تمثل كل الصرخات الأبية الشجاعة بوجه الظالمين على مدى التاريخ منذ الأزل الى الأبد، واعلموا بأن اللعن الدائم على بني أمية - لعنة الله عليهم - يمثل - ورغم انقراضهم وورودهم جهنم وبس الورد المورود - صرخة اللعن والرفض لظالمي

العالم، ففي إحياء هذه الصرخة إبادة للظلم»^(١).

ومن هذا المنطلق جاء اعلان قائد الأمة الإسلامية وولي أمرها آية الله العظمى السيد علي الخامنئي (دام ظله) في خطبته الشهيرة في رحاب مرقد الإمام الرضا عليه السلام بأن يكون هذا العام نموذجاً لعام العزة والكرامة الحسينية. ولذا وجد المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام أنه معني في أن يكون سهماً في تجسيد هذا الإعلان والاستجابة له عن طريق إقامة ملتقى فكري ثقافي تحت عنوان: (ملتقى الإمام الحسين عليه السلام)، فاستكتب لأجل ذلك الكثير من المفكرين والمحققين والعلماء والمثقفين ليقدموا أبحاثهم ودراساتهم ومقالاتهم في ذلك. فكانت الاستجابة رغم قصر المدة وقلة الإمكانيات هي وصول مجموعة من المقالات والأبحاث العلمية باللغة العربية، وقد انتخبت «الجنة العلمية المشرفة على الملتقى الفكري» (٢٥) مقالة وبحثاً علمياً منها لإعدادها ونشرها على شكل كتاب جامع لها في جزئين لتيسيرها بين يدي طلاب المعرفة والفكر من معني أهل البيت عليه السلام وعشاق الإمام الحسين عليه السلام واتباع مدرسته الثورية الرائدة ليزداد الحق سطوعاً وليزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.

وهنا لابد لنا من تقديم جزيل شكرنا ووافر عرفاننا للذين استجابوا لنا من العلماء والمحققين والكتاب الكرام فقدموا أبحاثهم ومقالاتهم انطلاقاً من شعورهم بالمسؤولية الرسالية الملقاة على عاتق أهل الفكر

(١) الوصية الإلهية السياسية لإمام الأمة الراحل عليه السلام، الترجمة العربية.

والعلم في إبراز حقائق نهضة الإمام الحسين عليه السلام وأهدافها الإسلامية الكبرى، آملين منهم دوام الصلة ومزيد التعاون مع المجمع لنشر فضائل أهل البيت عليهم السلام، وأحياء أمرهم إذ به أحياء للدين في الأمة وإقامة لأركانه في الأرض والحمد لله رب العالمين.

السيد محسن الموسوي

إدارة ملتقى الإمام الحسين عليه السلام



علم
الإمام الحسين عليه السلام بشهادته

السيد محمد حسين مرتضى العاملي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة:

الحمد لله الذي علّم القرآن خلق الإنسان علّمه البيان، وأفضل الصلاة والسلام على خير الأنام محمد وآله الكرام، واللجنة السرمدية على أعدائهم شرّ البرية.

أما بعد، فالموضوع الذي اخترنا بحثه هو: (علم الإمام الحسين عليه السلام بشهادته)، ولأنّ المسألة عامّة في سائر الأئمة عليه السلام فحريّ بنا أن نبحث هذا الموضوع بشكل عام مع التركيز على شهادة الإمام الحسين عليه السلام لأنّه موضوع المقال، وعلى كلّ حال فقد طرح قديماً مبحث حول علم الإمام المعصوم بالغيب وعدمه، وعلى فرض ثبوته ولو على نحو الموجبة الجزئية فهل تكون كيفية موته أو قتله وزمانه ومكانه جزءاً من معلوماته أم لا؟ ثم على فرض الثبوت فهل يُعدّ الإقدام على ذلك إلقاء إلى التهلكة، أم يمكن توجيهه بحيث يعدّ مكرّمة كما هو الصحيح؟

ولا يخفى أنّه قد دلّت روايات كثيرة على أنّ الأئمة عليه السلام يعلمون متى يموتون، وإنهم لا يموتون إلا باختيار منهم؛ حتى أنّ ثقة الإسلام الكليني رحمه الله (ت ٣٢٨ هـ) عقد باباً حول هذا الموضوع، واستعرض عدّة

روايات منها المعتبر في هذا المجال^(١)، وكذلك الثقة الجليل أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار^(٢) (٢٩٠ هـ) في كتابه بصائر الدرجات الكبرى^(٣).

وقد أجاب علماؤنا الأعلام قديماً وحديثاً بأجوبة مختلفة يحل هذه المعضلة، وهي إقدامهم^(٤) على الموت مع علمهم به، ونحن نستعرضها بالنقض أو الإبرام ونختتمها بجواب مستلهم من القرآن الكريم وسنة الأئمة اللهمم^(٥).

وأخيراً نسأل الله تعالى أن يوفقنا والساعين معنا لمعرفة الصواب إلى إدراك حق الجواب، وأن يجعلنا من أولي الأسباب محمد وآله حملة الكتاب.

الجواب: الأول:

وهو للشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي^(٦) (ت ٤١٣ هـ) في رده على سؤال حول: أن الإمام يعلم ما يكون؛ فما بال

(١) الأصول من الكافي ج ١ باب أن الأئمة عليهم السلام يعلمون متى يموتون.. ص ٢٥٨ - ط دار الكتب الإسلامية - طهران.

(٢) ص ٥٠٠ ط مؤسسة الأعلمي طهران.

(٣) اللهمم العرب أي ساداتهم، جمع لهموم وهو الجواد من الناس، أنظر مجمع البحرين، مادة: لهمم..

أمير المؤمنين عليه السلام خرج الى المسجد وهو يعلم أنه مقتول وقد عرف قاتله وعرف الوقت والزمان؟ وما بال الحسين بن علي عليه السلام سار الى الكوفة وقد علم أنهم يخذلونه ولا ينصرونه، وأنه مقتول في سفرته تيك؟... الخ

فأجاب عليه السلام قائلًا: أما الجواب عن قوله: إن الإمام يعلم ما يكون فإجماعنا: أن الأمر على خلاف ما قال، وما أجمعت البيعة على هذا القول، وإن إجماعهم ثابت على أن الإمام يعلم الحكم في كل ما يكون دون أن يكون عالماً بأعيان ما يحدث ويكون على التفصيل والتمييز، وهذا يسقط الأصل الذي بنى عليه الأسئلة بأجمعها، ولنا تمنع أن يعلم الإمام أعيان ما يحدث، ويكون بإعلام الله تعالى له ذلك، فأما القول بأنه يعلم كل ما يكون فلنا نطلقه ولا نصوب قائله لدعواه فيه من غير حجة ولا بيان، والقول بأن أمير المؤمنين عليه السلام يعلم قاتله والوقت الذي كان يقتل فيه، فقد جاء الخبر متظاهراً أنه كان يعلم في الجملة أنه مقتول، وجاء أيضاً بأنه يعلم قاتله على التفصيل، فأما علمه بوقت قتله فلم يأت عليه أثر على التحصيل، ولو جاء به أثر لم يلزم فيه ما يظنه المعترضون، إذ كان لا يمتنع أن يتعبده الله تعالى بالصبر على الشهادة والاستسلام على القتل، فيبلغه بذلك علو الدرجات ما لا يبلغه إلا به، بأنه يطيعه في ذلك طاعة لو كلفها سواه لم يردّها، ولا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بذلك ملقياً بيده الى التهلكة ولا معيناً على نفسه معونة يستقيح في العقول.

وأما علم الحسين عليه السلام بأن أهل الكوفة خادعوه فلنا نقطع بذلك إذ لا

حجة عليه من عقل ولا من سمع، ولو كان عالماً بذلك؛ لكان الجواب عنه ما قَدَّمناه في الجواب عن علم أمير المؤمنين (ع) بوقت قتله، ومعرفة قاتله كما ذكرناه^(١).

نقول: هذا الجواب تام في الجملة وسنزيده توضيحاً أكثر إن شاء الله تعالى.

لكن ما ذكره في أول جوابه يحتاج إلى مزيد تأمل وإمعان نظر. وهكذا ما ذكره من عدم القطع بعلم الإمام الحسين (ع) بأن أهل الكوفة خادعوه، حيث من يرجع إلى سيرتهم مع أبيه وأخيه (ع) يطمئن بذلك، فما بالك مع من عاش الحدثين أعني الإمام الحسين (ع)؟

الجواب الثاني:

وهو للشریف المرتضى علم الهدى علي بن الحسين الموسوي البغدادي (ت ٣٥٥ - ٤٣٦ هـ)؛ حيث سئل هل يجب علم الوصي ساعة وفاته أو قتله على التعمين؟ أم ذلك مطوي عنه؟

فأجاب (ع): إن الإمام لا يجب أنى علم الغيوب وما كان وما يكون؛ لأن ذلك يؤدي إلى أنه مشارك للقديم تعالى في جميع معلوماته، وأن معلوماته

(١) مرآة العقول للعلامة المجلسي (ع) ج ٣ ص ١٢٥ - ١٢٦، ط دار الكتب الإسلامية طهران الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ. ق / ١٣٦٣ هـ ش.

لا تتناهي، وأنه يوجب أن يكون عالماً بنفسه، وقد ثبت أنه عالم بعلم محدث، والعلم لا يتعلق على التفصيل إلا بمعلوم واحد، ولو علم ما لا يتناهي لوجب وجود ما لا يتناهي من المعلومات، وذلك محال. وقد يتنا أن الذي يوجب أن يعلمه علوم الدين والشريعة.

فأما الغائبات أو الكائنات الماضية والمستقبلات، فإن علم بإعلام الله شيئاً فجائز، وإلا فذلك غير واجب.

وعلى هذا الأصل ليس من الواجب علم الإمام بوقت وفاته، أو قتله على التعمين. وقد روي أن أمير المؤمنين عليه السلام في أخبار كثيرة كان يعلم أنه مقتول، وأن ابن ملجم (لعنه الله) قاتله. ولا يجوز أن يكون عالماً بالوقت الذي يقتله فيه على التحديد والتعمين، لأنه لو علم ذلك لوجب أن يدفعه عن نفسه، ولا يلقي بيده إلى التهلكة، وأن هذا في علم الجملة غير واجب^(١).

نقول: يرد على كلامه بعض الملاحظات:

منها: قوله عليه السلام: لأن ذلك يؤدي إلى أنه مشارك للقديم في جميع معلوماته... إلخ يمكن أن يقال: إن المشاركة بالمظهرية لا بالذات لا محذور فيها، نعم على نحو الموجبة الكلية لا يمكن، ولعله هذا مراده فيرتفع الإيراد.

(١) رسائل الشريف المرتضى عليه السلام ج ٣ ص ١٣٠ - ١٣١ نشر دار القرآن الكريم، قم ط ١٤٠٥ هـ. ق.

منها: قوله عليه السلام: ولا يجوز أن يكون عالماً بالوقت الذي يقتله فيه على التحديد... الخ غير تام؛ لأنه يمكن أن يعلم على التحديد والتعيين بوقت قتله من دون أن يكون هناك رمي إلى التهلكة، وما تلك الأجوبة المتقدمة والمتأخرة إلا حلٌّ لهذا التوهم.

منها: قوله عليه السلام: لأنه لو علم ذلك لوجب أن يدفعه عن نفسه... الخ غير تام؛ لأنه ليس ذلك قاعدة كلية، وذلك أنه بعد أن نعلم بعدم المحذورية في البين يسقط الوجوب، ويتحوّل التكليف إلى حكم آخر كما سوف يأتي إن شاء الله تعالى.

الجواب الثالث:

وهو للعلامة الحلي الحسن بن يوسف بن المطهر عليه السلام (ت ٧٢٦ هـ) حيث سئل عن علم أمير المؤمنين عليه السلام بكيفية ووقت ومكان قتله. فأجاب عليه السلام بأنه يحتمل أن يكون عليه السلام قد أخبر بوقوع القتل في تلك الليلة أو في أي مكان يقتل، وأن تكليفه عليه السلام مغاير لتكليفنا، فجاز أن يكون بذل مهجته الشريفة صلوات الله عليه في ذات الله تعالى، كما يجب على المجاهد الثبات وإن كان ثباته يفضي إلى القتل^(١).

(١) مرآة العقول ج ٣ ص ١٢٦ للعلامة المجلسي عليه السلام (ت ١١١١ هـ) ط. طهران دار الكتب الإسلامية ١٣٦٣ هـ. ش.

نقول: يصلح هذا الجواب لأن يكون أيضاً حلاً لعلم الإمام الحسين عليه السلام بشهادته وذلك لوحدة النكته، ولكن ما ذكره من قوله عليه السلام: «... وإن تكليفه عليه السلام مغاير لتكليفنا» لا نحتاج إلى هذا الاحتمال بعد أن كان غير المعصوم يعلم بكيفية ووقت قتله؛ كما روي عن رشيد الهجري وميشم التمار وغيرهما رضوان الله عليهم متن كان عندهم علم المنايا^(١). نعم ما ذكره أخيراً تام، كما سوف نوضحه أكثر إن شاء الله تعالى.

الجواب الرابع:

وهو للإمام الأكبر محمد الحسين آل كاشف الغطاء عليه السلام (ت ١٣٧٣ هـ) في رده على سؤال حول خروج أمير المؤمنين عليه السلام ليلة ١٩ من شهر رمضان المبارك مع علمه بقتل ابن ملجم له، وهل يصدق عليه أنه إلقاء النفس إلى التهلكة؟

فأجاب عليه السلام: معاذ الله أن يكون ذلك من باب إلقاء النفس إلى التهلكة، بل هو على الإجمال من باب الجهاد الخاص على الإمام لا الجهاد العام على عموم الإسلام. يعني أنه من باب المفاداة والتضحية والتسليم لأمر الله سبحانه في بذل النفس لحياة الدين وتمييز الحق من الباطل؛ ليهلك من

(١) أنظر: اختيار معرفة الرجال، المعروف برجال الكشي للشيخ الطوسي عليه السلام (ت ٤٦٠ هـ) ص: ٧٥ و ٧٩ و ٤٠٩ ط جامعة مشهد، والكافي ج ١ باب مولد أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام ح ٧.

هلك عن يثنه ويحيى من حي عن يثنه، ويميز الله الخبيث من الطيب، ومن هذا الباب إقدام الحسين (ع) على الشهادة مع علمه بأنه مقتول لا محالة.

ولاشك أنهم سلام الله عليهم كانوا يعلمون بكل ذلك بإخبار النبي (ص) وحياً، ولكن يحتملون فيه أن يتطرق إليه البداء ويكون من لوح المحو والإثبات، وأن يكون ثابتاً في العلم المخزون المكنون الذي استأثر الله سبحانه به لنفسه؛ فلم يظهر عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا، وباب البداء باب واسع لا مجال هنا لشرحه، وفي هذا كفاية إن شاء الله (١).

تقول: لا نحتاج في الجواب إلى أن نجعل هذا من باب الجهاد على الإمام؛ لأنه لا دليل على ذلك، ثم إنه قد يرد على كلامه (ع) الأخير أنه مجرد احتمال المخالفة لا يكون مبرراً لارتكاب الفعل، وإلا لجاز أن يرمي الإنسان بنفسه من شاهق، مع احتمال أن يكون قد كُتِبَ له في اللوح المحفوظ أنه لا يصيبه شيء، وهو كماترى.

الجواب الخامس:

وهو لسيد مشايخنا العلامة محمد حسين الطباطبائي (ع) (ت ١٤٠٢ هـ)

(١) جنة المأوى ص ١٨٩ - ١٩٠، ط دار الأضواء بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.

صاحب «تفسير الميزان»؛ حيث قال: إنَّ علمهم ﷺ بالحوادث علم بما أنها واجبة التحقق، ضرورة الوقوع لا تقبل بدءاً ولا تحمل تخلّفاً كما في الأخبار^(١). والعلم الذي هذا شأنه لا أثر له في فعل الإنسان.

بيان ذلك: أن من المقرّر عقلاً - وقد صدّقه الكتاب والسنة - أن كل حادثة من الحوادث تحتاج في تحققها إلى علّة، وأن العلّة المتوقّفة عليها وجود الشيء تنقسم إلى ناقصة وتامة، والعلّة التامة تمام ما يتوقّف عليه وجود الشيء؛ فيجب بوجودها وجوده وبعدها عدمه، والعلّة الناقصة بعض ما يتوقّف عليه وجود الشيء فلا يجب بوجودها وجوده؛ لافتقاره معها إلى غيرها، ولكن يجب ببعدها عدمه. ومن هنا يظهر أنه لا تتحقّق حادثة من الحوادث إلّا وهي واجبة الوجود بإيجاب علّتها التامة التي فوقها، وكذا الكلام في علّتها التامة حتى ينتهي إلى الواجب بالذات تعالى

(١) تقول: من هذه الأخبار ما رواه ثقة الإسلام الكليني رحمه الله (ت ٣٢٨ هـ) عن محمد بن يحيى عن عبد الله بن محمد بن عيسى عن الحسن بن محبوب عن علي بن رئاب عن سدير الصيرفي، قال: سمعت حمزان بن أعين يسأل أبا جعفر عليه السلام فقال له حمزان: أُرأيت قوله جلّ ذكره: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (الجن: ٢٧) فقال أبو جعفر عليه السلام: ﴿إِلَّا مَنْ أَرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ (الجن: ٢٨) وكان والله محمد ممّن ارتضاه، وأمّا قوله: «عالم الغيب» فإن الله عزّ وجلّ عالم بما غاب عن خلقه بما يقدر من شيء، ويقضيه في علمه قبل أن يخلقه، وقبل أن يقضيه إلى الملائكة، فذلك يا حمزان، علمٌ موقوفٌ عنده، إليه فيه المشيئة، فيقضيه إذا أراد، ويبدو له فيه فلا يمضيه، فأما العلم الذي يقدره الله عزّ وجلّ فيقضيه ويمضيه فهو العلم الذي انتهى إلى رسول الله ﷺ ثم إلينا، (الكافي ج ١ باب نادر فيه ذكر الغيب حديث ٢ ص ٢٥٦، ط دار الكتب الإسلامية طهران، الطبعة الخامسة ١٣٦٢ هـ، ش).

وتقدس. فالعالم مؤلف من سلسلة من الحوادث، كل حلقة من حلقاتها واجبة الوجود بما يسبقها - وإن كانت ممكنة بالقياس على علتها الناقصة - وهذه الوجوبات المترتبة الواقعة في سلسلة الحوادث في نظام القضاء الحتمي الذي ينسبه الله تعالى إلى نفسه. قال تعالى: ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾^(١). وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾^(٢).

ثم إن من المعلوم أن الإنسان الفعال بالعلم والإرادة إنما يقصد ما يتعلق به علمه من الخير والنفع، ويهرب مما يتعلق به علمه من الشر والضرر، فللعلم أثر في دعوة الإنسان إلى العمل، وبعثه نحو الفعل والترك بالتوصل بما يتفعله في جلب النفع أو دفع الضرر، بهوذلك يظهر أن علم الإنسان الخبير وكذا الشر والضرر في الحوادث المستقبلية إنما يؤثر أثره لو تعلق بها العلم من جهة إمكانها لا من جهة ضرورتها على ما أشير إليه آنفاً، وذلك كأن يعلم الإنسان أنه لو حضر مكاناً كذا في ساعة كذا من يوم كذا قتل قطعاً؛ فيؤثر العلم المفروض فيه ببعثه نحو دفع الضرر؛ فيختار ترك الحضور في المكان المفروض تحزناً من القتل. وأما إذا تعلق العلم بالضرر مثلاً من جهة كونه ضروري الوقوع واجب التحقق؛ كما إذا علم أنه في مكان كذا في ساعة كذا من يوم كذا مقتول لا محالة بحيث لا ينفع في دفع القتل عنه عمل ولا تحول دونه حيلة؛ فإن مثل هذا العلم لا يؤثر في

(١) الأنفال: ٤٢.

(٢) مريم: ٢١.

الإنسان أمراً يبعثه الى نوع من التحرز والالتقاء لفرض علمه بأنه لا ينفع فيه شيء من العمل، فهذا الإنسان مع علمه بالضرر المستقبل يجري في العمل مجرى الجاهل بالضرر.

إذا علمت ذلك ثم راجعت الأخبار الناصة على أن الذي علمهم الله تعالى من العلم بالحوادث لا بداء فيه ولا تخلف^(١)؛ ظهر لك اندفاع ما ورد على القول بعلمهم بعامة الحوادث من أنه لو كان لهم علم بذلك لا احتزروا مما وقعوا فيه من الشر، كالشهادة قتلاً بالسيف وبالسهم لحرمة إلقاء النفس في التهلكة^(٢).

وجه الاندفاع، أن علمهم بالحوادث علم بها من جهة ضرورتها كما هو صريح في نفي البداء عن علمهم، والعلم الذي هاشأنه لا أثر له في فعل الإنسان الى نوع من التحرز، وإذا كان الخطر بحيث لا يبيل الدفع بوجه من الوجوه فالبتلاء به وقوع في التهلكة لا إلقاء الى التهلكة، قال تعالى: ﴿لَوْ كُنْتُمْ فِي ثُبُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾^(٣).

نقول: هذا الكلام مع دقته قد يلاحظ على آخره أنه لو كان قضاء لازماً وقدرأ حاتماً لبطل الثواب، كما ورد نظير ذلك عن أمير المؤمنين عليه

(١) كما تقدم في الرواية السابقة.

(٢) إشارة الى الآية ١٦٥ من سورة البقرة.

(٣) آل عمران: ١٥٤.

(٤) الرسائل الأربع عشرة ص ٣٨٦ - ٣٨٨، تأليف جمع من العلماء، ط. جمعة

المدرسين، قم، سنة ١٤١٥ هـ.

أفضل صلوات المصلين عندما سأله الشامي حول مسيره الى الشام وأنه بقضاء من الله وقدر منه^(١).

مضافاً الى ذلك فقد ورد في عدة روايات أن أمير المؤمنين عليه السلام «خُيِّرَ في الليلة التاسعة عشرة من شهر رمضان المبارك من السنة التي ضُرب فيها بين البقاء واللقاء فاختار لقاء الله تعالى».

نعم جاء في بعض النسخ عوض كلمة «خُيِّرَ» (بالخاء المعجمة) كلمة «حَيَّرَ» (بالحاء المهملة) إلا أن النسخة الأولى تتناسب مع عنوان الباب الذي ذكرت فيه هذه الرواية، وهو باب: «إِنَّ الْأَئِمَّةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَعْلَمُونَ مَتَى يَمُوتُونَ وَأَنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ إِلَّا بِاخْتِيَارِهِمْ»^(٢)، حتى صرحت بعض روايات هذا الباب بذلك؛ فقد جاء بسند معتبر عن عبد الملك بن أعين، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «أَنزَلَ اللَّهُ تَعَالَى النَّصْرَ عَلَى الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى كَانَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ خُيِّرَ النَّصْرُ أَوْ لِقَاءُ اللَّهِ، فَاخْتَارَ لِقَاءَ اللَّهِ تَعَالَى»^(٣).

الجواب السادس:

وهو لأحد أعظم أساتذتنا حفظه الله تعالى؛ حيث قال: بأن هذا الإقدام

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم رقم ٧٨، ط جماعة المدرسين، قم ١٤٠٦ هـ. ق /

١٣٦٤ هـ. ش

(٢) أصول الكافي ج ١ ص ٢٥٨ حديث ٤.

(٣) المصدر السابق، حديث ٨.

من قبل الإمام لا معصوم لا يمد إلقاء في التهلكة، وذلك أن التكليف قائم على العلم الذي يحصل عن الطريق المتعارف كالعلم الحسولي الذي يحصل بالتفكير والتعلم ونحو ذلك، فهذا النحو من العلم هو الذي يقع عليه مدار التكليف ويكون حجة علينا، وأما العلم الملكوتي اللدني ليس كذلك؛ أي ما يكشفه هذا العلم من حقائق خارجية ليس مادراً للتكليف. بناءً على هذا فإن علم الأئمة عليهم السلام لا يكوّن عن هذا الطريق الذي يكشف لهم بعض الحقائق من المنافع والمضار وكيفية موتهم ليس محطاً للتكليف، والدليل على هذا قول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «إنما أقضي بينكم بالبينات والإيمان»^(١). أي بحسب العلم الظاهري دون العلم الباطني الملكوتي، مع أن الله عز وجل قال في محكم كتابه: «فَتَنبِئْ آلَ اللَّهِ عَمَلَهُمْ وَرَسُولُهُ»^(٢). فالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يرى حقيقة الأعمال كما يزيد ذلك أيضاً بعض الروايات من أن أعمال الخلق تعرض على كلّ نبي عصر وإمام عصر، ويعلم ما يفعله العباد بإذن الله تعالى^(٣). مع هذا كان مأموراً بالعمل الظاهر، وكان يحكم على طبق البيّنة والإيمان، ولذا قال صلى الله عليه وآله في ذيل هذا الحديث المتقدم: «بعضكم ألحن بحجته من بعض؛ فأيما رجل قطعت له من مال أخيه شيء فأيما قطعت له به قطعة من النار»^(٤).

(١) الوسائل. كتاب القضاء باب ٣ ح ١.

(٢) التوبة: ١٠٥.

(٣) أنظر: أصول الكافي ج ١ باب عرض الأعمال على النبي والأئمة عليهم السلام.

(٤) الوسائل. كتاب القضاء باب ٣ ح ١.

إذن يمكن أن يكون هناك علمٌ ما، لكن ليس مداراً للتكليف والعمل به. وعليه فالأئمة عليهم السلام مع أنهم يعلمون الغيب كما جاء في روايات عرض الأعمال عليهم، فإنهم كانوا يحكمون بحسب العلم الحسولي والحسي أي بحسب الظاهر دون الباطن.

فعلم الإمام بكيفية قتله ليس رمياً في التهلكة؛ لأن منشأه عالم الملكوت دون عالم الملك^(١).

نقول: في كلامه دام عزه موارد للنظر:

أولاً: كون التكليف قائماً على العلم الحسولي دون الملكوتي غير تام، لأن الخضر عليه السلام كانتب عض تكاليفه قائمة على العلم الملكوتي كما في قتل الغلام وغيره، بل تكاليف نفس المعصوم وخاصة الأنبياء والرسل عليهم السلام منشؤها العلم الملكوتي دون غيره، وكيفما كان فإن من يراجع سيرة الأئمة عليهم السلام يرى بأن بعض أفعالهم كانت نتيجة علمهم الملكوتي، من قبيل علم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بوفاة سلمان الفارسي في المدائن وحضوره عنده وتغسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه مع أنه كان في المدينة المنورة في الحجاز، والمدائن مدينة أو مُدُن قرب بغداد في العراق.

وكذلك حجب الإمام الكاظم عليه السلام لعلي بن يقطين في المدينة المنورة

(١) جاء هذا الكلام في جلسة خاصة بعد طرحنا عليه دام عزه عدة أسئلة وإجابته عنها.

لحجبه إبراهيم الجُمَال في الكوفة على ما روي^(١). وما أكثر أمثال هذا!
وفصل الخطاب أنه قرر في علم أصول الفقه: أن العلم ولا قطع بشيء
حجة من أي طريق حصل، وعليه فلو علم المعصوم علماً لدنياً بأن هذا
الطعام حرام فهل يجوز له أكله؟

ثانياً: قوله دام عزه: والدليل على هذا قول النبي الأكرم ﷺ: «إنما أقضي
بينكم بالتيارات والإيمان... الخ»، فإنه دليل أخص من المدعى؛ لأنه قال ﷺ
«بيتكم»، وهذا جزء من تكاليف المعصوم، وأما تكاليفه التي بينه وبين
الله والمختصة به فغير مشمولة لهذا البتة.

على أنه أصل هذه المسألة غير مسلمة عند الإمامية بل الأقوال فيها
متعددة؛ فمن الإمامية من يزعم أن أحكام الأئمة ﷺ على الظواهر دون ما
يعلمونه على كل حال، ومنهم من يزعم أن أحكامهم إنما هي على البواطن
دون الظواهر التي يجوز فيها الخلاف، وذهب الشيخ المفيد وجماعة
آخرون إلى أنه للإمام أن يحكم بعلمه كما يحكم بظاهر الشهادات، ومتى
عرف من المشهود عليه ضد ما تضمنته الشهادة أبطل بذلك شهادة من
شهد عليه، وحكم فيبته بما أعلمه الله تعالى^(٢). ولا يخفى أن منشأ هذه
الأقوال هو اختلاف الأخبار والآثار. وعلى هذا فلا يمكن الاعتماد على ما

(١) أنظر: عيون المعجزات للشيخ حسين بن عبد الوهاب من علماء القرن الخامس،
باب معاجز الإمام الكاظم عليه السلام.

(٢) أنظر: أوائل المقالات للشيخ المفيد عليه السلام، باب القول في أحكام الأئمة ﷺ ص ٧٥.
نشر مكتبة الداوري - قم.

ذكره دام عزّه.

ثالثاً: قوله دام عزّه: «فعلّم الإمام بكيفية قتله ليس رمياً في التهلكة... الخ»؛ فإنه بناء على ما تقدّم وذكرناه يبقى السؤال مطروحاً ويحتاج إلى إجابة أخرى.

الجواب السابع:

وهو فصل الخطاب في معرفة حقّ الجواب؛ والذي ينبغي أن يُقال وهو ما استهدينا إليه بواسطة القرآن الكريم وسنة الأئمة المعصومين عليه السلام؛ وحاصله يتوقف على عدّة مقدمات:

الأولى: قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّكَ مَيّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(١). وهذه سنة إلهية لا مفرّ منها.

الثانية: قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾^(٢). وهذا تام على طبق التوحيد الأفعالي.

الثالثة: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾^(٣). وعليه فموت الأنفس خاضع للمشيئة الإلهية، وهذه مشيئة تكوينية كما لا يخفى.

الرابعة: قال الله عزّ وجل: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا

(١) الزمر: ٣٠.

(٢) الزمر: ٤٢.

(٣) آل عمران: ١٤٥.

يستقدمون»^(١). وقال تعالى: ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾^(٢). وهذه سنة إلهية أخرى لا يمكن للبشر التصرف فيها؛ لأنها من اللوح المحفوظ والمحتوم.

الخامسة: قال الله تعالى حكاية عن النبي إبراهيم عليه السلام: ﴿يا أيها إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾^(٣).

وقتل الولد بالأصل الأولي لا يجوز؛ لكن عندما يخضع للأمر الإلهي تتحول الحرمة إلى الوجوب لوجود المصلحة وارتفاع المفسدة.

وبعد هذا نقول: إذا كان الموت أمراً حتمياً، وأنه بيد الله عز وجل، وأنه يعلم متى نموت، وكيف نموت، بل هو الذي يأذن تكويناً كما أنه يأذن فيما يرضيه تشريعاً. كما في قصة إبراهيم وابنه عليه السلام في إيجاد مقدمات القتل بالكفية التي يرضاها الله تعالى، وهكذا في الجهاد. فلو علم شخص بأن الله شاء أن يقتل بهكذا طريقة، وأنه يرضى له بهذا؛ فعندما لا يكون إقدامه على الموت إلقاء إلى التهلكة، بل إلقاء إلى مرضاة الله عز وجل واستحقاقه للثواب لرضاه بقضاء الله وقدره.

وعليه فأمير المؤمنين عليه السلام علم تكرماً وتفضلاً من الله أنه يقتل بهذه الطريقة، وأنه تعالى راضٍ بذلك^(٤)، فإقدامه على الموت عندئذ يعدّ فضيلة

(١) الأعراف: ٣٤، النحل: ٦١.

(٢) الحجر: ٥، المؤمنون: ٤٣.

(٣) الصافات: ١٠٢.

(٤) وكون القتل راجعاً من قبل الأمير عليه السلام لا يمنع كونه مرجوحاً من طرف ابن ملجم

وامتثالاً للرضا الإلهي لرضاه بذلك، وهكذا الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام وسائر الأئمة الميامين عليهم أفضل صلوات المصلين.

ولذا عندما عزم الإمام الحسين عليه السلام على الخروج من مكة إلى العراق جاءه أخوه محمد بن الحنفية وقال له: فما حذاك على الخروج عاجلاً؟ فقال عليه السلام: «أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله بعدما فارقتك، فقال: يا حسين، أخرج، فإن الله شاء أن يراك قتيلًا».

فقال محمد بن الحنفية: إنا لله وإنا إليه راجعون، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذا الحال؟ فقال عليه السلام له: «قد قال لي: إن الله قد شاء أن يراهن سبايا»^(١).

فعندما نلاحظ كلمة «أخرج» وكلمة «فإن الله شاء» أو «إن الله شاء» نرى بأن هذا يؤيد ما ذكرناه، ولا يخفى أن المشيئة هنا بحسب الظاهر أعم من المشيئة التكوينية، فتشمل الرضا والإرادة التشريعيين أيضاً، ولذا قال له النبي صلى الله عليه وآله على ما روي: «أخرج فإن الله شاء أن يراك قتيلًا».

فرضاه عليه السلام بالمشيئة الإلهية هو الذي جعله سيد الشهداء ومعين المرفاء.

هذا ما خطر على ذهننا القاصر، والله العالم بحقائق الأمور والحمد لله رب العالمين، وأنا العبد المفتقر إلى الله عز وجل.

→ اللعين لعدم الملازمة بينهما، كما لا يخفى.

(١) الملهوف على قتلى الطفوف، للسيد ابن طاووس ص ١٢٨ نشر دار الأسوة للطباعة والنشر قم.



الحسين عليه السلام
والبيعة يزيد بن معاوية

حسن عيساوي

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام قم المقدسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - مفهوم البيعة

- البيعة عند أهل اللغة.

- البيعة في زمن الرسول ﷺ.

- البيعة للإمام علي عليه السلام.

٢ - قميص عثمان وحيلة معاوية بن أبي سفيان

- خطط معاوية للسيطرة على الخلافة الإسلامية.

- ادعاء معاوية أن زياد بن أبيه أخوه من أبي سفيان.

٣ - ولاية العهد

- التغيرات التي أحدثها في النظام المالي.

- التمهيد لبيعة يزيد بن معاوية.

- المعارضة الإسلامية لهذه البيعة.

٤ - موقف الإمام الحسين عليه السلام من البيعة ليزيد بن معاوية

- اشتهاه يزيد بالفسق والفجور

- محاولة إجبار الإمام الحسين عليه السلام على البيعة.

- رحلة الحسين عليه السلام من المدينة إلى كربلاء.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
وحبيب الله العالمين أبي القاسم محمداً ﷺ وآله الطيبين الطاهرين، واللعن
الدائم على أعدائهم أجمعين.

البيعة من النظم الإسلامية التي أُمزها الإسلام في سبيل حفظ الأمة
الإسلامية وتوحيد كلمتها، ومنع التفرق والتناحر فيما بينها؛ لذلك أمر
الرسول ﷺ بتبليغ البيعة والولاية إلى الإمام علي عليه السلام في غدِير خُم وأمر
المسلمين بالبيعة له ﷺ.

ولكن الأفة تركت بيعة الإمام علي عليه السلام وتوجهت إلى غيره في الواقعة
المعروفة في السقيفة؛ فكانت فلتة وقى الله المسلمين شرّها، ثم نصّ
أبو بكر على أن الخلافة بعده إلى عمر بن الخطاب، ثم إلى عثمان بن عفان،
والإمام علي عليه السلام صابر على غضب حقّه وتجاوز الخلافة عنه حتّى
اجتمعت الأمة من المهاجرين والأنصار على تنصيبه وتعيينه خليفة
عليهم، وقد بايعوه في المدينة بعد هلاك عثمان.

ولكن معاوية لم يرض بهذه البيعة ورفض قرار أمير المؤمنين بعزله
عن ولاية الشام، وفع السيف لمحاربة إمامه والخليفة الشرعي المنتصب
من قبل الله تعالى؛ فكان أول سيف رفع لتمزيق الأمة الإسلامية وإعادة
التناحر والتعصب الجاهلي، ثم أكمل معاوية مخططه العدواني بتعيين

يزيد ابنه ولياً للعهد من بعد وفاته؛ لتكون الخلافة إرثاً من الأب إلى الابن وإلى يومنا هذا؛ مما جاز الولايات على المسلمين.

وأمام هذا التعصب والإجبار الذي فرضه معاوية وابنه يزيد يقف الإمام الحسين عليه السلام بروحه ودمه ليحيي الإسلام الأصيل، ويرفض بيعة يزيد، ويستشهد في سبيل رفع راية الإسلام المحمدي الأصيل ويرفض أي نوع من الذل والخنوع.

١ - مفهوم البيعة:

البيعة عند أهل اللغة: هي الصفة على إيجاب البيع، وعلى المبايعة والطاعة، والبيعة والمبايعة الطاعة نفسها، ولما تقول تباعوا على الأمر كقولك: اصفقوا عليه، وقولهم بايعه عليه مبايعة أي عاهده^(١).

والمبايعة: بمعنى المعاقدة والمعاهدة، كأن كلاً منهما باع ما عنده من صاحبه، وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره^(٢).

والأصل في ذلك أنها كانت من عادة العرب إذا تباع اثنتان صفق أحدهما بيده على يد صاحبه^(٣).

وعزف ابن خلدون البيعة في كتابه المعروف - مقدمة ابن خلدون - حيث قال: (اعلم أن البيعة هي العهد على الطاعة؛ كأن المبايع يعاهد

(١) لسان العرب، مادة بيع.

(٢) مجمع البحرين، مادة بيع.

(٣) النهاية، مادة بيع.

أميره على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه، وأمور المسلمين، لا يتنازع في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المشتري والمكره، وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد بأشبه ذلك فعل البايع والمشتري، فسمي بيعة مصدر باع؛ فصارت البيعة مصافحة بالأيدي، هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع^(١).

وكانت بيعة العقبة الأولى أول بيعة في الإسلام عندما بايع مجموعة من أهل مدينة الرسول الكريم ﷺ، على أن لا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا بيهتان يفترونه من بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوه في معروف فإن وفوا فلهم الجنة، وإن غشوا من لك شيئاً فأمرهم إلى الله عز وجل إن شاء عذب، وإن شاء غفر^(٢).

(ولم تشمل هذه البيعة مبادئ الحرب؛ لذلك فإن مضمونها قريب من مضمون بيعة النساء)^(٣).

وأما بيعة العقبة الثانية فقد دعا الرسول ﷺ الأوس والخزرج إلى مبايعته على أن يحموه ويذودوا عنه كما يذودون عن أهلهم وأنفسهم، لذلك فقد شكلت هذه خطراً على كفار مكة، والأخص منهم قبيلة قريش (ورجالها الذين أسرعوا عن بكرة أبيهم وقد حملوا السلاح لمحاربة رسول الله ﷺ وجماعته ورذهم عن هذه البيعة، وقد تصدى حمزة رضي الله عنه

(١) مقدمة ابن خلدون

(٢) الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ: ٣/٩٠٣.

(٣) الشورى والبيعة: ١٠٦.

ومعه الإمام علي عليه السلام فمنعوا كفار مكة من الدخول إلى مكان الاجتماع^(١). وكان لهذه البيعة تأثير كبيراً في حماية الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وأصحابه الأوائل، وانتشار الدعوة الإسلامية في المدينة؛ فعندما هاجر صلى الله عليه وآله من مكة إلى المدينة بعد ما لحقه من أذى قريش وأهل مكة، وقفت قبائل الأوس والخزرج له عوناً وناصراً حتى أنها اشتركت معه في محاربة كفار مكة ومشركيها.

وأعلن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله لمتا فتح مكة البيعة على كل من دخل الإسلام؛ فكان أهلها يبايعون الرسول الكريم صلى الله عليه وآله عندما أتم الله نعمته على المسلمين، وأكمل لهم دينهم بولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام، والأئمة المعصومين من بعده، لمتا أبلغ الأمين جبرائيل رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك.

وتنفيذاً للأمر جمع رسول الله صلى الله عليه وآله الناس في غدير خم ووضعت الرجال بعضها فوق بعض، ليصعد عليها ودعاً علياً عليه السلام ليقف عند عينيه، ثم خطب بالناس فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ، فأبلغ في الموعظة ثم أمر المسلمين بالتمسك بعترته الطاهرة حيث قال:

«وإني مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وأنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض» ثم نادى بأعلى صوته: «أأستأولي بكم منكم بأنفسكم؟»، فقالوا: اللهم بلى، فقال لهم علي النسق وقد أخذ

(١) الصحيح من سيرة النبي صلى الله عليه وآله ٣: ٣١٨.

بضيعي^(١) أمير المؤمنين عليه السلام فرقعهما حتى بان بياض أبطيهما: «فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، وأخذل من غذله»^(٢).

ثم أمر عليه السلام المسلمين، أن يهتفوا بالإمام علياً عليه السلام بالمقام، ويسلموا عليه بإمرة المسلمين، ففعل ذلك كلهم، ثم أمر أزواجه وجمع نساء المؤمنين معه أن يدخلن عليه ويسلمن عليه بإمرة المؤمنين ففعلن.^(٣)

ولم تقب هذه المناسبة عن شعر حسان بن ثابت؛ فطلب الإذن من الرسول الكريم صلى الله عليه وآله أن يلقي أبياتاً في ولاية الإمام علي عليه السلام، فإذن له الرسول صلى الله عليه وآله فأنشأ يقول:

يناديهم يوم التدبير نبيهم	بعخم وأسمع بالرسول مناديا
وقال فمن مولاكم ووليتكم	فقالوا ولم يبدوا هناك التماديا
إلهك مولانا وأنت ولينا	ولن تجد مثلك اليوم عاصيا
فقال له قم يا علي فإنني	رضيتك من بعدي إماماً وهاديا
فمن كنت مولاه فهذا وليه	فكونوا له أنصار صدق مواليا
هنالك دعا الله وال وليه	وكن للذي عادى علياً معاديا ^(٤)

وكانت بيعتهم على الطاعة التامة والتسليم للإمام عليه السلام في أمور أنفسهم

(١) الضيع، يسكون الباء، وسط العضد، النهاية، مادة صنع.

(٢) الإرشاد ١: ١٧٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الإرشاد: ١ / ١٧٧.

وأُمور الدولة.

ومن هذا التاريخ عرف المسلمون البيعة للخليفة الذي بعد رسول الله ﷺ، والذي لا يتحقق لأي إنسان إلا للأئمة المعصومين عليه السلام؛ لأن الرسول الكريم ﷺ نص على البيعة لهم، فما قيمة اجتهاد عمر وأبي بكر أمام النص منه ﷺ؟ هذا أولاً، وثانياً: أن البيعة لا تتحقق للمبايع له إلا إذا كان ممن تجب طاعته^(١)، وهذا لا يكون إلا في الأئمة عليهم السلام الذين أوجب الله تعالى طاعتهم في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٢) وأولو الأمر منهم الأئمة عليهم السلام.

وثالثاً: أن لا تكون هناك موانع من الالتزام بالبيعة، عند مبايعة الشخص المطلوب، مثل انتهاكه الحرمات، وارتكابه المعاصي، والتجاهر بالفسق فمثل شخص كهذا لا يصح البقاء على بيعته بل يجب عدم الالتزام بها^(٣).

والنتيجة:

إن مفهوم البيعة شرع في الإسلام لتربط البيعة أفراد المجتمع الإسلامي فيما بينهم بروابط الإسلام من حقوق وواجبات، وكذلك تربطهم بإمامهم وخليفتهم الذي يتولى أمور بلادهم في السلم والحرب، وهو الذي يتخذ القرارات اللازمة لمصلحة المسلمين، وهي عقد الطاعة

(١) الشورى والبيعة: ١٣٨.

(٢) النساء: ٥٩.

(٣) الشورى والبيعة: ١٣٩.

للإمام ليمارس دوره كحاكم ومرشد سياسي وديني^(١).

ولاشك أن البيعة للقائد المعصوم واجبة، ولا يمكن التخلف عنها شرعاً، ولكن الإسلام أصر عليها واتخذها أسلوباً للتعاقد بين القائد والأمة؛ لكي يركز نفسياً ونظرياً مفهوم الخلافة العامة للأمة^(٢).

فلابد للأمة الإسلامية من إمام تبايعه وتعهده على السمع والطاعة، مما يؤدي إلى توحيد كلمتها وجمع شملها، وقد تفرقت الأمة الإسلامية، وتمزقت وحدتها عندما انحرفت عن طريقها المستقيم فخالفت أمر رسول الله ﷺ ونكثت ببيعة الإمام ﷺ.

وأكمل معاوية انحراف المسلمين، عندما رفع السيف ضد الخليفة الميائيع له من قبل المهاجرين والأنصار، بعدما رفض كتاب أمير المؤمنين عليه السلام الذي يدعوه فيه إلى البيعة والذي جاء فيه:

«أما بعد، فإن يعني بالمدينة لزمك، وأنت بالشام؛ لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبأبكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا الغائب أن يرد، وأنا الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسوّه إماماً كان ذلك لله رضى، فإن خرج من أمرهم خارج بظعن أو بدعة ردّوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى، ويصليه جهنم وساءت مصيراً، وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتي وكان نقضهما كردهما،

(١) تاريخ الإسلام ٢٢٢٢

(٢) الإسلام يقود الحياة، ١٤٦.

فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون.

فادخل يا معاوية فيما دخل فيه المسلمون؛ فإن أحب الأمور إليّ فيك العاقبة إلا أن تعرض للبلاء فانتلك واستعنت بالله عليك»^(١).

وحاول الإمام علي عليه السلام في هذا الكتاب إرشاد معاوية إلى طريق الحق الذي يوحّد الأمة، ومنع الحروب الداخلية، والتي لا تفيد إلا أعداء الإسلام، المتربصين به.

٢ - قميص عثمان وحيلة معاوية بن أبي سفيان:

ساهمت المكانة المقرّبة لعثمان بن عفان من الخليفة الثاني على تعيين معاوية بن أبي سفيان والياً على بلاد الشام بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان.

وبقي معاوية والياً حتى وصول عثمان إلى السلطة، الذي بدأ ومنذ بداية خلافته بجمع أقربائه حوله، وقرب بني أمية خاصة، حتى أنه أعطى أمور الدولة الإسلامية لمروان بن الحكم، وأدخل أباه المدينة، مع أن رسول الله ﷺ منعه من الدخول إليها، ولم يخالف هذا الأمر الخليفة الأول والثاني، ولكن عثمان أدخله معزراً مكزماً وأعطاه مائة ألف درهم^(٢).

وساعد تسلط بني أمية على بيت المال، وإنفاق عثمان بسخاء على

(١) نهج البلاغة.

(٢) الثوري في المهدي الأموي: ٣٢.

أقربائه والموالين له في ازدياد قوة الأمويين، ونفوذ حزبهم بين الناس، وقد رغب أبوسفیان بهذا التصرف من عثمان بييت مال المسلمين فقال له يوماً عندما دخل عليه:

«بأبي أنت وأمي! انفق ولا تكون كأبي حجر، وتداولوها يا بني أمة تداول الولدان بالكرة، فوالذي يحلف به أبوسفیان ما من جنة ولا نار»^(١).

وواجهت هذه السياسة المعارضة من أصحاب رسول الله ﷺ، فعندما أرسل عثما الوليد بن عقبة إلى الكوفة ليكون عامله عليها، ألفى ابن مسعود على بيت المال فاستقرضه مالا. وقد كانت الولاية تفعل ذلك ثم ترد ما تأخذ، فأقرضه عبدالله ما سأله، ثم إنه اقتضاه إياه، فكتب الوليد في ذلك إلى عثمان فكتب عثمان إلى عبدالله بن مسعود: إنما أنت خازن لنا فلا تعرض للوليد فيما أخذ من المال، فطرح ابن مسعود المفتاح؛ وقال: كنت أظن أنني خازن للمسلمين، فأما إذا كنت خازناً لكم، فلا حاجة لي في ذلك»^(٢).

وفي الشام استغل معاوية سنوات تعيينه حاكماً عليها من قبل عثمان أفضل استقلال، مستفيداً من الصلاحيات الواسعة التي خوله إياها الخليفة الثالث، في إدارة البلاد، وخاصة في جمع الأموال والتصرف بها حيث

(١) شرح نهج البلاغ: ٣٠٧/١.

(٢) الإسلام والسلطان، والملك: ٢٣٥.

لعبت سياسته المالية دوراً كبيراً في التفاف القبائل العربية في الشام حوله بعد أن أغرى رؤساءها بالأموال التي كان ينفقها عليهم، بالإضافة إلى المنزلة المقررة منه والتي تصاحبها تلبية طلباتهم في كل مناسبة أو عند الحاجة.

واستطاع معاوية أيضاً، أن يجمع حوله مجموعة من الشعراء والأدباء، بعد أن بذل لهم الأموال والهدايا، ويرغبهم بالانتماء لحزبه الأموي؛ فقد بعث إلى أبي الأسود الدؤلي الذي كان من أصحاب الإمام علي عليه السلام هدية فيها حلوى، محاولة منه لجذبه إليه، فعندما رأتها ابنة أبي الأسود قالت: ممن هذا يا أبة؟!

فقال: من معاوية بعث بها ليخدعنا عن ديننا، فقالت:

أبالشهد المزعفر يابن حرب نبيج عليك أحساباً ودينا معاذ الله كيف يكون هذا ومولانا أمير المؤمنين^(١) وليج معاوية في خداع أهل الشام ليحاربوا الإمام علياً عليه السلام عندما استغل مقتل عثمان في تنفيذ مخططه للوصول إلى الملك والسيطرة على الخلافة وجعلها في بني أمية.

وبرع في تنفيذ حيلته عندما استخدم قميص عثمان - الذي نقل إليه من المدينة إلى الشام - كوسيلة للوصول إلى غايته؛ فقد كان يصعد المنبر ويكي على عثمان حزناً لمقتله، ويكي معه أهل الشام ثم يحتهم على

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار: ٣٤٦/٥.

الانتقام من الإمام علي عليه السلام لأنه قتله.

وقد نجحت هذه الحيلة حيث جعل أهل الشام يحاربون تحت رايته، بالإضافة إلى أساليب أخرى من الدهاء والمكر استخدمها معاوية في حربه مع الإمام علي عليه السلام منها:

١- إن معاوية لم يطالب بالخلافة لنفسه، أو هو طامع بها، أو يريد أن تكون لبني أمية خاصة، وإنما أعلن نصرته للخليفة المظلوم عثمان بن عفان الذي قتل ولم ينصره أحد، وأعلن أيضاً، ليس عنده أية عداوة مع الإمام علي عليه السلام ولا يريد منه شيئاً إلا أن يسلمه قتلة عثمان حتى يقتض منهم، وبعد ذلك تكون الخلافة للمسلمين ليختاروا من يشاءوا، وكان معاوية يتهم خصومه أو من يريد تصفيته جسدياً بأنهم من قتله عثمان، أو ممن لم ينصره، والغريب في الأمر أن معاوية لم ينصره، وتركه محاصراً حتى قتل، مع أن جيش الشام كان تحت سيطرته.

واستنكر المسلمون نصره معاوية لعثمان بعد مقتله، أمثال:

أبي الطفيل عامر بن وائلة الكناني الذي قال له معاوية حين دخل عليه:

«أنت من قتلة عثمان؟ فقال أبو الطفيل: لا، ولكنني ممن حضره فلم

ينصره، قال: وما منعك من نصرته؟ قال أبو الطفيل: لم ينصره

المهاجرون والأنصار. قال معاوية: الحق كان حقه واجباً، وكان يجب

عليهم أن ينصروه. قال أبو الطفيل: فما منعك يا أمير المؤمنين من نصرته

ومعك أهل الشام؟ قال معاوية: أو ما طلبني بدمه نصره له؟ فضحك

أبو الطفيل وقال: أنت والله وعثمان كقولهم:

٢- لا أعرفنك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي
نجح معاوية نجاحاً باهراً في جعل الولاء للقومية العربية بدلاً من
الولاء للدين الإسلامي، مما جعل عرب الشام المسيحيين يقاتلون تحت
إمرته^(١) ضد جيش الإمام علي عليه السلام، تجمعهم مع معاوية العروبة، وخاصة
أن معاوية أعطاهم الحرية في ممارسة دينهم، وقرب قسماً منهم إليه؛
حتى جعل أحدهم ويدعى (سرجون) من كبار مستشاريه.

٣- عظم معاوية أمر الخليفة عند أهل الشام، وأنه منصوب من الله
سبحانه وتعالى، والاعتراض على الخليفة هو اعتراض على أمر الله
سبحانه وتعالى، وأكد معاوية لأهل الشام، أن الإمام علياً عليه السلام هو الذي قتل
خليفة الله في أرضه عثمان بدليل أنه يحتفظ بقتلته.

٤- برع معاوية في سياسته باستخدام الحلم عن خصومه ومناوئيه
كوسيله لتثبيت نفسه في السلطة، حتى أنه كان يرذ الإساءة بالإحسان في
الوصول إلى غايته، وقد ساهم هذا الأسلوب في انتماء عدد كبير من
الشخصيات المهمة إلى الحزب الأموي، بعد أن كانوا معادين لهذا الحزب.
فعندما بعث معاوية إلى رجل من الأنصار، خمسمائة دينار فاستقلها
الأنصاري، وقال لابنه: خذها وامض إلى معاوية، واضرب بها وجهه
وردها عليه، وأقسم على ابنه أن يفعل ذلك، فجاء ابنه إلى معاوية، ومعه

(١) التذكرة الحمدونية ٧: ٢١٧.

الدراهم، فقال: يا أمير المؤمنين، أن عند أبي حذّة وسرعة وقد أمرني كيث وكيث، وقد أقسم عليّ. فوضع معاوية يده على وجهه وقال: افعل ما أمرك أبوك، وارفق بعمك، وأرجع معاوية الدنانير مضاعفة للأنصاري، وأثارت هذه الحادثة غضب يزيد الذي اعترض على هذه السياسة الحليمة لأبيه عن خصومه تحسباً منه أن يقال بين الناس: إن معاوية ضعيف أو جبان^(١).

وكانت هذه الحيلة الأخلاقية من أخطر الأساليب التي استخدمها معاوية في بداية حكمه لتنتسه بالعمى والرحمة التسامح مع خصومه، حتى إذا استقامت له الأمور، واستتب له الأوضاع أمر بالليق في خصومه، حتى قتل الصحابي حجر بن عدي الكندي وجماعة من أصحابه لأنهم اعترضوا على ظلمه.

٥ - استمر معاوية في حق أهل الشام على طاعته وتعظيمه، كما كانوا يفعلون مع ملوك الروم من الاحترام والسجود لهم؛ لذلك فإن معاوية كان يلبس لباس الملوك بينهم.

٦ - حشد معاوية كافة وسائل الإعلام في زمانه، لتشويه شخصية الإمام علي عليه السلام، حتى كان بعض أهل الشام عندما يسألون عن الإمام علي عليه السلام يقولون ما نحسبه إلا لصاً أو قاطع طريق، وقد تعجب بعضهم عندما سمعوا أن الإمام علي عليه السلام قُتل في المحراب، وهو يصلي، إذ كان معاوية

(١) التذكرة الحمدونية ٧: ٢١٧.

وأصحابه يثبّون الإشاعات أن الإمام علياً عليه السلام لا يصلي.

ولم تكن هذه الحيل والأساليب الخبيثة الإمام علياً عليه السلام عن مواجهة معاوية، وإعلان الحرب ضده؛ حتى يستسلم أمام السلطة المركزية ويعزل نفسه عن ولاية الشام.

ولكن معاوية رفض أن يسلم الولاية للخليفة المنتخب والذي له الحق في عزل الولاة وتنصيبهم وكانت حرب صفين نتيجة لعناد معاوية وطمعه في كرسي الخلافة، وانتصر الإمام علي عليه السلام في هذه الحرب، واستمد معاوية للهرب، لولا حيلة عمرو بن العاص، عندما أشار على معاوية أن يأمر الجيش برفع المصاحف فوق أسنة الرماح، حتى يوقف القتال، وساعده الأشعث بن قيس الموالي لبني أمية في إحداث الفرقة والاختلاف في جيش الإمام علي عليه السلام مما أدى إلى ظهور الخوارج، والذي قتل أحدهم ويدعى عبدالرحمن بن ملجم الإمام علي عليه السلام وهو يصلي في محراب مسجد الكوفة في سنة أربعين للهجرة.

ويفرح معاوية عندما يصل إليه خبر مقتل الإمام علي عليه السلام، ويمتدح الأمور للاستيلاء على الخلافة، وتحقق الحلم الذي راود أباه أباسفيان وأمه هند - آكلة الأكباد - ليتلظ على رقاب المسلمين، ويعيد لهم الخمر والفسق والفجور على عهد ابنه يزيد الذي وصل الحكم بسبب دهاء أبيه وغدره.

ادعى معاوية بعد تمكنه من محاربة جيش العراق، وحصول الصلح

بينه وبين الإمام الحسن عليه السلام أنه أحق بالخلافة من غيره لقربته من عثمان، وأن بني أمية يستحقون هذا المنصب؛ لأنهم طالبوا بدمه فهم أحق بقيادة الأمة من غيرهم.

ولكن ادّعاءه هذا لم يصمد أمام النظريات الإسلامية الأخرى، مثل النص والتعيين عند الشيعة الإمامية، أو الشورى عند أهل السنة، فاضطر إلى اختراع مذهب الجبر الذي يتلائم مع تعظيمه للخلافة، والذي روج له معاوية كثيراً ليثبتته في عقول المسلمين، واستمر الأمويون على هذا المذهب حتى نهاية حكمهم وسقوط آخر خليفة أموي.

وأباح لهم هذا المذهب سفك دماء المسلمين، وخاصة من يعترض على ظلمهم؛ مدعين أن من يعترض على الخليفة الأموي فقد اعترض على أوامر الله سبحانه وتعالى لأنّ الخليفة منّصب من الله والمعارض عليه كافر ويستحق القتل.

ولما استقبل معاوية وفداً من أهل العراق صرح لهم عن فكرة مذهبه في الحكم والصلاحيات المخولة له حيث قال:

«الأرض لله وأنا خليفة الله، فما أخذت فلي، وما تركته للناس، فبالفضل مني»^(١).

وعندما دخل الكوفة في سنة إحدى وأربعين هجرية، أعلن من على منبر الكوفة وبكل صراحة عن مذهب الجبر في سياسته معهم، وأنه وصل

(١) أنساب الأشراف: ٤/ ١٧.

للخلافة بقوة السيف وبالقتال والحروب التي خاضها ضدهم حتى نصره الله عليهم فقال:

«قاتلتكم لأتأمر عليكم، فقد أعطاني الله ذلك، وأنتم كارهون»^(١).

وكانت الرزية العظمى التي أصابت المسلمين عندما استخدم معاوية مذهب الجبر في تثبيت ولاية العهد لابنه يزيد؛ فقد أعلن أن الناس مجبورون على مبايعة يزيد للخلافة من بعده، معلناً بأن الله سبحانه وتعالى أعطاه ذلك، فقال في إحدى الخطب لتثبيت ولاية العهد:

«إن لله الملك ويعطي الملك لمن يشاء، وقد أعطاه ليزيد؛ فعلى المسلمين مبايعته والتسليم له لأن أمره قضاء من القضاء، وليس للعباد الخيرة من أمرهم»^(٢).

وحاول معاوية أن يدعم مذهبه بأخبار الرواة المحدثين في زمانه، حتى يتم له خداع الناس بشرعية مذهبه، وأحقيقته بالخلافة من غيره، فبذل أموالاً طائلة كمعاشته؛ فجعلهم يخلقون الأحاديث الكاذبة عن الرسول الكريم ﷺ لدعم مذهبه، وأحقية بني أمية، وعلان خلافة الإمام علي عليه السلام والأئمة الأطهار عليهم السلام من بعده.

وقد أغرت دراهم معاوية سمرة بن جندب؛ فبذل له معاوية مائة ألف درهم حتى يروي أن هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْغَيَةِ

(١) البداية والنهاية: ١٣١/٨.

(٢) الإمامة والسياسة: ٥٧.

الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْعُرْتَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُنَافِقَ^(١).

وبذل له معاوية - أيضاً - مائة ألف درهم على أن يروي هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾^(٢) أنها نزلت في عبدالرحمن بن ملجم، عندما قتل الإمام علياً عليه السلام، فلم يقبل سمرة بذلك، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل ثلاثمائة ألف درهم، فلم يقبل فبذل له أربعمائة ألف فقبل وروى ذلك^(٣).

وببذل الأموال والهدايا دعم الرواة والفقهاء الموالون للحزب الأموي، حكم معاوية خاصة، وحكم بني أمية عامة، وأخذوا ينتدبون ممن يحاول الثورة ضد حكومته، وينسبون إليه مخالفة الجماعة وخلع الطاعة والكفر بالأمية، ويعطون لمعاوية صلاحية حكم الإعدام بهم^(٤).

وفئة أخرى من الفقهاء والمحدثين، لم تدعم معاوية وبني أمية باختلاق الأحاديث بل اعترفت بظلم بني أمية، ولكنها منعت الناس من الخروج ضدهم، ولم تؤيد هذه الفرقة أي ثورة أو عمل عسكري مسلح ضد بني أمية، وطلبت من الناس الصبر والسكينة، مقابل ظلم بني أمية، مثل الحسن البصري الذي كان يقول:

(١) البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٢) البقرة: ٢٠٧.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١/ ٣١٥.

(٤) الإمامة والسياسة: ٥٧.

«إنما الوالي الظالم نقمة فلا تقابل نقمة الله بالسيف، وعليكم بالصبر والسكينة»^(١).

وفئة ثالثة ترى أن الظالم عندما يتجاهر بالفسوق والمعصيان، ويرتكب المحرمات ويقتل النفس المحترمة، ويتلاعب بالشريعة الإسلامية لصالح أهوائه ولذاته النفسية، فمثل هذا لاولي لايده للأمة من القيام بوجهه، وإعلان الجهاد المقدس ضده، حتى يتحقق النصر وإنقاذ الأمة منه، والفوز بالشهادة التي وعد الله المؤمنين بها، وقد كان قائد هذا الاتجاه وزعيمه في مواجهة بني أمية الإمام الحسين عليه السلام الذي رفض مذهب الجبر عند الأمويين، ودعا الأمة الإسلامية إلى الانضمام تحت رايته في سبيل الدفاع عن الدين الإسلامي، فلم ينصره إلا ثلة من أصحاب النفوس الحرة الكريمة الذين رفضوا الظلم، وبذلوا أنفسهم وأرواحهم في سبيل نصرة الإسلام، ورفع كلمة الحق، وحصلوا على الشهادة التي فازوا بها في الدنيا والآخرة.

٣- ولاية العهد:

أكمل معاوية مخططة في الاستيلاء على الخلافة بقتله الإمام الحسن عليه السلام بعد أن دس له السم عن طريق زوجته جعدة بنت الأشعث، بعد أن أغراها معاوية بالزواج من يزيد، فاستشهد مظلوماً بعد أن فتك السم

(١) الفقهاء والخلافة: ٦٢.

بيدنه الشريف.

وسمى معاوية بعد استشهاد الإمام الحسن عليه السلام لتحويل الخلافة إلى ملك بني أمية، ينتقل من الآباء إلى الأبناء متحدياً للنظام الإسلامي، ومخالفاً للمذاهب الإسلامية من السنة والشيعة؛ حيث اتفقت جميعها على بطلان الملكية في الإسلام.

وتنقل المصادر التاريخية أن أول من طرح فكرة ولاية العهد على معاوية هو المغيرة بن شعبة المعروف في دهائه وغدره، حرصاً منه في البقاء على ولاية الكوفة عندما كان أميراً عليها، فلما طلب منه معاوية أن يقدم إليه وقد عزل عن ولاية هذه المدينة، تأخر في القدوم، ولما سأله معاوية عن سبب تأخره، قال المغيرة: كنت أمهد لبيعة ابنك يزيد في الكوفة، فرحب معاوية بهذه الفكرة، وطلب من المغيرة الرجوع إلى عمله، وأن يستمر في تنفيذ فكرته، فأرسل عندما رجع إلى الكوفة وقد إلى معاوية وأعطاهم ثلاثين ألف درهم على أن يبايعوا يزيد^(١).

وشجع هذا الوفد زيادة نشاط معاوية لأخذ البيعة لابنه يزيد، فأرسل إلى مروان بن الحكم في المدينة، وزباد بن أبيه في البصرة، وباقي الولاة في البلدان الإسلامية يحثهم على إرسال الوفود لمبايعة يزيد، فقدم وفد المدينة برئاسة محمّد بن عمرو، ووفد البصرة بقيادة الأنحاف بن قيس، وأرسل المغيرة وقد ثانياً بزعامة الضحّاك بن قيس المهري، وقد بايعت

(١) الكامل في التاريخ: ٥٠٤/٣.

الوفود، بالخلافة ليزيد من بعد وفاة أبيه.

واستخدم معاوية الترغيب والترهيب في تثبيت ولاية العهد حيث الدرهم والدينار للموالف، والسيف والعقوبة للمخالف، وساعدت التغيرات التي ابتدئها معاوية في النظام المالي الإسلامي على نجاح الشق الأول من سلاحه، فقد جمع الأموال وصبتها في خزائنه بدلاً من بيت مال المسلمين ومما أحدثه معاوية ما يأتي:

١- جعل الصوافي وهي الأراضي الواسعة والتي بقيت بدون مالك عندما فتح المسلمون العراق وبلاد الشام - والتي كان موردها يرجع إلى عاقبة المسلمين خالصة له^(١).

٢- استصفى معاوية لنفسه الضياع وهي: الأراضي التي كانت للملوك قبل الفتح الإسلامي فجعلها له ولأهل بيته، ووزع عليهم قسماً منها؛ فكان أول خليفة له الأراضي في كافة البلاد الإسلامية^(٢).

٣- أمر معاوية الفاتحين الإسلاميين أن يعزلوا له الذهب والفضة خالصة له، ويوزعوا الباقي على الفاتحين، مخالفاً أوامر الشريعة الإسلامية، والتي تنص على أن يكون خمس الفتوحات لبيت مال المسلمين، والباقي يوزع على الفاتحين^(٣).

٤- فرض معاوية زيادة الجزية على غير المسلمين؛ فقد كتب إلى

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/٢١٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) بيت المال نشأته وطوره: ٤٢.

عامله على مصر أن يزيد على كل قطبي قيراطاً في سبيل زيادة ماله الخاص، فعندما انتصر المسلمون في إحدى المعارك طلب من قائدهم أن يصفى له الذهب والفضة، فرفض هذا وأعلمه أنه سيطلب ما قرره الشريعة الإسلامية في هذا المجال، فعزل الخمس ووزع الباقي على الفاتحين.

٥ - جعل معاوية دية المُعايد لنفسه بعد أن كانت لبيت مال المسلمين، فقد فرض على بني مخزوم دية ابن أثال وقدرها اثني عشر ألف درهم، فأخذ نصفها وجعل النصف الآخر لبيت مال المسلمين، واستمر الأمر من بعده هكذا حتى عهد عمر بن عبد العزيز، الذي قصر هذه الدية على حصة بيت المال فقط^(١).

وساعد تراكم الأموال في خزانة معاوية على إعطائه المرونة في استخدام الترغيب في إرضاء خصومه المعارضين لمبايعة يزيد، ودفعهم إلى مبايعته تحت إغراء الأموال، وخاصة الذين كان لهم هوى في بني أمية.

وأما الذين رفضوا الاستسلام أمام الإغراءات المالية، فقد استعمل معهم التهريب وهو الشق الثاني من سياسته، فلما صعد يزيد بن المقنع العذري الموالي لبني أمية - وهو شديد التعصب لمذهبهم - ليعلن عن سياسة معاوية الإرهابية، حيث قال:

(١) المصدر السابق: ١٤٠.

هذا أمير المؤمنين - وأشار إلى معاوية - فإن هلك فهذا - وأشار إلى يزيد - ومن أين فهذا - وأشار إلى سيفه - فلما أنهى كلامه حتى مدحه معاوية بأنه سيد الخطباء^(١).

وأثمرت هذه السياسة مع أشراف مكة، فقد أجبرهم معاوية أن يبايعوا يزيد وإلا تعرضوا للقتل، فعندما دخل مكة، أمر صاحب حرسه أن يقيم حرساً على كل رجل من أشرافها في المسجد الحرام، وأمره أن يقتل كل من يراجعه أو يرد عليه بيعة يزيد، فما كان من الأشراف - تحت هذا الضغط - إلا أن يبايعوا، وبايع بعدهم عامة الناس، وضرب معاوية رواجله ورجع إلى الشام.

وفي هذه السياسة الإرهابية يقول أحد الشعراء المعاصرين لمعاوية: فإن تسأتوا برملة أو بهند نبايعها أمير مؤمنينا إذا مات كسرى قام كسرى بنوه بعده متناسقينا حشينا الغيظ حتى لو سقينا دماء بني أمية ما سقينا^(٢) وفشلت كل محاولات معاوية وحزبه الأموي من المعاصرين له في زمانه ومن المؤيدين لحزبه في العصر الحاضر في إخفاء الشريعة الإسلامية على بيعة ولاية العهد، فقد اتفقت كل المذاهب الإسلامية على بطلان بيعة يزيد لأنها حصلت بالإكراه والجبر.

(١) الكامل، للمبرد: ٥٠٩/٣.

(٢) الاتجاهات المعارضة في الكوفة: ٣٠.

وقد لاقت البيعة ليزيد ومنذ اللحظات الأولى لإعلانها صحبات من المعارضة والرفض، فقد اعترض عبد الرحمن بن أبي بكر، على مروان ابن الحكم، وهو يحاول تثبيت بيعة يزيد لأنها من حرص معاوية على وحدة المسلمين.

فلما قال مروان بن الحكم: إن أمير المؤمنين - يعني معاوية - قد اختار لكم فلم يأل، وقد استخلف ابنه يزيد بعده قام عبد الرحمن بن أبي بكر فقال: كذبت والله يا مروان، وكذب معاوية، والخيار لأمة محمد ﷺ، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل...^(١). وحدث ما حذر منه عبد الرحمن، فلما مات معاوية قام مكانه يزيد، ولما مات يزيد قام مكانه ابنه معاوية، حتى تنازل عنها، فاستولى عليها مروان بن الحكم ومن بعده أولاده، وهكذا.

وتبقى ولاية وصمة عار في تاريخ الإسلام الشريف، الذي بُني على احترام حقوق الإنسان، ورفض كل أنواع التسلط والجبر على رقاب الناس.

لقد خالف معاوية أوامر رسول الله ﷺ عندما رفض خلافة الإمام علي عليه السلام، وجهز الجيوش لمحاربته حتى يحتفظ لنفسه بولاية الشام، ثم مهد الأمور لابنه يزيد ليعتدي ظلماً وعدواناً على ريحانة رسول الله ﷺ والخليفة الشرعي المنتصب من قبل الله سبحانه وتعالى.

٤ - موقف الإمام الحسين عليه السلام من البيعة ليزيد

تواترت الأخبار واستفاضت بفسق وفجور يزيد بن معاوية، بين الموالف والمخالف لمذهب أهل البيت عليه السلام؛ لأن يزيد انتهك الحرمات وقتل النفس المحترمة ظلماً وعدواناً، وتجاهر بشرب الخمر والنسي حرمها الله (سبحانه وتعالى) عندما اتخذ موائد الخمر في مجالسه، والتي كان يحضرها أصدقاؤه وندماؤه، فتقام السهرات المطربة التي يحييها المغنون في بلاطه.

وكان الضبي من أشهرهم الذي تميّز بحسن غنائه^(١) حتى جعله يزيد من المقربين منه لبراعته في الغناء.

ولما قدم إليه مسلم بن زياد من البصرة، سهر معه يزيد وشربا الخمر سوية حتى قال يزيد في ذلك بيتاً من الشعر:

اسقني شربة تروي عظامي ثم فاسق مثلها ابن زياد^(٢)

واشتهر أيضاً، بحب الكلاب وخاصة المدربة للصيد، وجعل لكل واحد منها عبداً يخدمه وجعل لها الأساور من الذهب والفضة، توضع في أرجلها، وألبسها الملابس الفاخرة من الذهب^(٣).

واستمر يزيد على سياسة أبيه في إخماد نور الإسلام، وإعادة أيام

(١) الأغاني: ٦/ ٣٣٤.

(٢) الفتوح: ٥/ ٢٥٤.

(٣) الفتوح: ٥/ ٢٥٤.

الجاهلية بين المسلمين؛ حيث عبادة الأوثان وشرب الخمر، ومما ساعد على ذلك استلامه للسلطة بعد أن استطاع أبوه إخماد الحركات المعارضة له في البلاد الإسلامية، وأمام هذا التنوع والسكوت من الأمة الإسلامية أعلن الإمام الحسين عليه السلام المواجهة المسلحة مع بني أمية وأميرهم يزيد بن معاوية.

ويكتب يزيد إلى والي المدينة، الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، يأمره بأخذ البيعة من الإمام الحسين عليه السلام ليلاً، ويدعوه إلى بيعة يزيد، فيطلب منه الإمام أن تكون البيعة جهراً^(١).

وتفشل محاولة مروان في إجبار الإمام الحسين عليه السلام على البيعة فوراً، ليعلم الإمام الحسين عليه السلام بعد مشادة مع ابن الحكم بأنه لا يبيع ليزيد، لأنه رجل فاسق شارب للخمر، فقال للوليد:

«أيها الأمير إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الرحمة، بنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق، شارب للخمر، قاتل النفس، ومعلن بالفسق، فمطلي لا يبيع مثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون أينما أحق بالخلافة والبيعة»^(٢).

ولكن مروان بن الحكم قال للوليد: والله لئن فارقك الحسين الساعة ولم يبيع لا قدرت على مثلها أبداً حتى يكثر القتل بينكم وبينه، إحبس

(١) المصدر السابق.

(٢) التهوف على قتلى الطفوف: ٩٨.

الرجل فلا يخرج من عندك حتى يُبايع أو تضرب عنقه.

فوثب عند ذلك الحسين وقال:

«أنت يا بن الزرقاء تقتلني أو هو؟ كذبت والله وأثمت» وخرج ومعه مواليه حتى أتى منزله^(١).

وكيف يُبايع الحسين عليه السلام وهو إمام الأمة وخليفة المسلمين بنص رسول الله ﷺ؟ وإليه مسؤولية قيادتها إلى طريق الحق والنجاة، وهداية العباد على يديه، وأعمالهم مشروطة به (صلوات الله وسلامه عليه)، وخاصة أن يزيد قد طغى وتكبر على الناس وجعلهم عبيداً له، واستمر في ذلك حتى بعد شهادة الإمام عليه السلام فكان يأمر الناس أن يبايعوه على أنهم عبيد له، فعن أبي جعفر عليه السلام قال:

«إن يزيد بن معاوية دخل المدينة وهو يريد الحج؛ فبعث إلى رجل من قريش

فأتاه، فقال له يزيد: اتقر لي أنك عبد لي، إن شئت بعثك وإن شئت اشتريتك؟

فقال له الرجل: أو الله يا يزيد ما أنت بأكرم مني في قريش حسباً، ولا كان أبوك أفضل من أبي في الجاهلية والإسلام، وما أنت بأفضل مني في الدين، ولا بخير، فكيف أقر لك بما سألت؟ فقال يزيد: إن لم تقر لي والله قتلتك.

فقال له الرجل: ليس قتلك إتي أعظم من قتلك الحسين بن علي عليه السلام ابن

رسول الله ﷺ.

فأمر به فقتل^(١).

وقف الإمام الحسين عليه السلام بوجه الخطر المحدث بالإسلام بعد أن ابتليت الأمة براع مثل يزيد، ولا بد من التضحية والفداء في سبيل إنقاذ الدين الإسلامي الحنيف؛ ليقدم نفسه الشريفة قرباناً لربه في يوم عاشوراء.

ومن أجل هذه المهمة العظيمة يقرر الرحيل من المدينة إلى مكة مع أهل بيته وأنصاره، وتتخذ القافلة الطريق الرئيسي العام، ليكون فيه سيره إلى مكة؛ لكي لا يسمح لأحد من أهل المدينة ممن تخلّفوا أن يزعموا فيما بعد أنهم لم يعلموا بخروج الإمام عليه السلام أو علموا بعد حين، فلاحقوا به ولم يعشروا على أثر المركب لاتخاذ طريقاً غير الجادة الرئيسة^(٢) ويصل الركب إلى مكة ويبقى الحسين عليه السلام فيها حتى يوم التروية الذي يتوجه فيه الحاج إلى عرفات فينوي عمرة مفردة، ويغادر مكة متوجّهاً إلى كربلاء، لتكون رحلته المباركة رسالة لكل الحجاج الذين حضروا من كافة البلاد الإسلامية.

تبين لهم أن الحج لا يكون له قيمة مع انتهاك الظالم لحرمات المسلمين، وتعطيل حدود الله، وقتل النفس المحترمة ظلماً. ويتم الإمام عليه السلام تبليغ الرسالة على أكمل وجه، ولكن لم يجبه إلا

(١) الحسين وعاشوراء في الكافي: ٥٦.

(٢) الدوافع الذاتية لأتباع الحسين عليه السلام.

أهل بيته وثلة من أصحابه وأنصاره المختلصين له فيتوجهون جميعاً إلى مدينة الكوفة بعد أن وصلت إليه الرسائل والكتب التي تحثه في الإسراع إلى المدينة التي كانت عاصمة أبيه الإمام علي عليه السلام من قبل.

النتيجة:

تواترت الأخبار واستفاضت بفسق وفجور يزيد بين معاوية وبين الموالف والمخالف لمذهب أهل البيت عليه السلام؛ لأن يزيد انتهك الحرمات وقتل النفس المحترمة ظلماً وعدواناً، وتجاهر بشرب الخمر، والغناء والطرب عند خلافته.

وأمام هذا الانحراف الخطر في تاريخ المسلمين يقف الإمام الحسين عليه السلام بوجه الخطر المحدق ليضحي بدمه وروحه، ويرفض البيعة ليزيد بن معاوية.

ومن أجل هذه المهمة العظيمة يقرر الرحيل من المدينة إلى مكة مع أهل بيته وأنصاره متجهين إلى الكوفة؛ حيث أرسل إليها ابن عمه مسلم بن عقيل عليه السلام ليمهد ويطلب من الناس البيعة للإمام عليه السلام.

ولكن البيعة لا يلتزم بها إلا القليل من المسلمين وتستهي ثورة الحسين عليه السلام بتلك الأماسة التي أشعلت النار في قلب كل مؤمن من ذلك الوقت ولحد الآن، وسوف تستمر هذه الشعلة الوهاجة إلى يوم القيامة.

المصادر:

- ١- لسان العرب، دار احياء التراث العربي، بيروت - لبنان ط ١ - ١٩٨٨ م.
- ٢- مجمع البحرين، دار احياء التراث العربي، بيروت - لبنان ط ١ - ١٩٨٨ م.
- ٣- النهاية، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان ط ١ - ١٩٨٨ م.
- ٤- مقدمة ابن خلدون، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - لبنان.
- ٥- الصحيح من سيرة الرسول الأعظم، دار السيرة، بيروت - لبنان، مصطفى قصير العاملي، المركز الإسلامي للدراسات بيروت - لبنان.
- ٦- الشورى والبيعة ودورها في انعقاد الإمامة الكبرى - مصطفى قصير العاملي، المركز الإسلامي للدراسات، بيروت - لبنان ط ١ - ١٩٩٦ م.
- ٧- الإرشاد، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم.
- ٨- تاريخ الإسلام الثقافي، صائب عبد الحميد، دار الغدير، قم - إيران.
- ٩- الإسلام يقود الحياة، الشهيد الصدر رحمه الله.
- ١٠- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، دار احياء التراث العربي.
- ١١- الشورى في العهد الأموي، د. حسن عطوان، دار الجيل، بيروت - لبنان ط ١، ١٩٩٠ م.
- ١٢- الإسلام والسلطان والملك.
- ١٣- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، الزمخشري.

- ١٤ - التذكرة الحمدونية، ابن خلدون - دار الصياد، بيروت - لبنان ط ١٩٩٦ م.
- ١٥ - أنساب الأشراف، البلاذري، دار الفكر، بيروت - لبنان ط ١٩٩٦ م.
- ١٦ - البداية والنهاية، أبي الفداء إسماعيل الدمشقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان ١٩٩٣ م.
- ١٧ - الإمامة والسياسة، ابن قتيبة.
- ١٨ - الفقهاء والخلافة في العصر الأموي، د. حسن عطوان، دار الجيل، بيروت - لبنان.
- ١٩ - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار الصادر، بيروت - لبنان.
- ٢٠ - تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، منشورات الشريف الرضي، قم - إيران ط ١٤١٤ هـ.
- ٢١ - بيت المال نشأته وتطوره، خولة شاكر الدجيلي، جامعة بغداد، العراق ١٩٧٦ م.
- ٢٢ - الكامل في الأدب، أبي العباس المبرد.
- ٢٣ - الاتجاهات المعارضة في الكوفة، د. إبراهيم بيضون، معهد الإنماء العربي ط ١٩٨٦ م، بيروت - لبنان.
- ٢٤ - الأغاني لأبي فرج الاصفهاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان ط ١ - ١٩٩٤ م.
- ٢٥ - الفتوح، بن أعثم الكوفي، دار الصادر، بيروت - لبنان.

- ٢٦ - العكري في الآداب السلطانية، محمد بن علي بن طباطبایا، منشورات الشريف الرضي، قم - ایران، ط ١ - ١٤١٤ هـ.
- ٢٧ - اللهوف على قتلى الطفوف، ابن طاووس، دار الأسوة للطباعة والنشر، ط ١ - ١٤١٤ هـ قم - ایران.
- ٢٨ - الحسين وعاشوراء في الكافي، حسين خيولي، المركز الإسلامي، بيروت - لبنان.
- ٢٩ - الدوافع الذاتية لانتصار الحسين عليه السلام.



الإمام الحسين عليه السلام
شرعية الثورة على الشرعية المزيّفة

مختار الأسدي

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام قم المقدسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إشارة من عالم الغيب:

في أجواء تأملات عميقة في ما يمكن أن يكتب اليوم عن سيد الشهداء عليه السلام، وفي استغراق أكثر عمقاً لعصر يمكن أن يُسمّى عصر الاستشهاد من جهة، وعصر أقول القيم من جهة أخرى، وضمن إحساس ملح بضرورة استحضار رائد القيم وأبي الأحرار الإمام الحسين وإعادة قراءته من جديد، استوقفتني إشارة مهمة كانت استوقفت الدكتور أحمد راسم النفيس في كتابه (على خطى الحسين) كما استوقفت كثيرين قبله، ورحبتُ استظهر ما سعى ويسعى لاستظهاره الطبيب المصري المذكور، وحرصه على المزاجية بين التاريخ والواقع، والماضي والحاضر، وعالم الغيب وعالم الشهود.

هذه الإشارة، هي التفسير المعروف للرؤيا المعبرة التي رآها النبي ﷺ والتي أوردها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾^(١)، والتي خلاصتها أنه ﷺ رأى بني فلان ينزون على منبره الشريف نزو القردة، وكيف أنه ﷺ لم يُز ضاحكاً بعد تلك الرؤيا

حتى توفاه الله عز وجل^(١).

نعم، كيف يتسم رسول الله ﷺ وهو يرى أن أظهر منبر على وجه الأرض يعتليه أقدر إنسان من أبناء الطلقاء، تماضده أمة شايعة وباعث وتنكب لقتال أظهر إنسان على وجهها أيضاً، ومع العمد وسبق الإصرار. هذه هي الرؤيا ومجمل تفسيرها باختصار شديد، أما فلسفتها، فقد أوضحها جلّ وعلا في محكم كتابه:

﴿وَتَوَلَّاهُ اللَّهُ النَّاسُ بَغْضُهُمْ يَبْغِضُ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٢). ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٣) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَجْرُ الْكَافٍ﴾^(٤).

ومن هذه الرؤيا وهذه الفكرة الفلسفية، نقرأ ماضي الحسين عليه السلام وواقعنا المر، ونحاول أن نتبين كيف يتلي الله سبحانه وتعالى عباده ليميز الخبيث من الطيب، فيختار للدنيا من تكالب أو تهالك عليها، ويختار للآخرة من تسامى على حطام الأولى ووطئها وطينها وبكامل الحرية والاختيار:

﴿فَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ ولكن ﴿وَمَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ

(١)

(٢) البقرة: ٢٥٦.

(٣) آل عمران: ١٤٠.

(٤) العنكبوت: ٣.

نصيب ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾^(١).

والدنيا، باختصار أيضاً، دار فتنة، فمن أرادها أغرته ومن ترفع عليها نكبت، وهذه هي سنته سبحانه: ﴿ فَلَنْ نَجْعَلَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ ﴿ وَلَنْ نَجْعَلَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾.

هذه إشارة عابرة من عالم الغيب، وإشارة عابرة على واقع لا بد أن نحياه، رضينا أم أبينا، أما دورنا في التمهيد للفتنة - والعياذ بالله - وتحاشي الانزلاق في اختباراتنا الصعبة، فمع إشارة أخرى وضعها السيد الشهيد الصدر الأول (رضوان الله عليه) تحت عنوان:

تراكم التفصيصات:

يقول السيد الشهيد الصدر عليه السلام في محاضراته الشهيرة حول (المحنة): «هذه التفصيصات التي قد لا يُحصى بكل واحد منها على جدة، لكنها حين تتراكم تتحول إلى فتنة تأكل الأخضر واليابس، تأكل من ساهم ومن لم يساهم، تأكل من فطر ومن لم يفطر، تأكل الحسين عليه السلام...».

ويضيف:

«ألم تكن الفتنة التي تمتلأت عن تلك التفصيصات هي التي أكلت الحسين عليه السلام؟ نعم، حتى الحسين أكلته الفتنة بالفقر من أنه كان أنصف الناس وأبعد الناس عن التفصيص في قول أو عمل».

وهنا يريد، أو أراد السيد الشهيد أن يتحدث عن سبب مهم من أسباب الفتنة واختصره بكلمة (التقصير) أو (تراكم التقصيرات)، إذ أضاف عليه: «أليست تلك التقصيرات المتراكمة التي عاشها المسلمون منذ أن سقط الإمام علي عليه السلام صريعاً في المحارب، التقصيرات المتراكمة التي عاشتها الكثرة الكاثرة من المسلمين هي التي قتلت الإمام الحسين عليه السلام؟!».

نعم، الكثرة الكاثرة من المقصرين، الأغلبية الصامتة، المتفترجون، المتقاعسون، المتخاذلون، ستمهم ما شئت، هم الذين ساهموا في مصرع الحسين، اعترفوا بذلك أم لم يعترفوا.

﴿وَأَتَّبِعُوا قِتْنَةً لِّاتِّصِبِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١).

فما هي معالم تلك الفتنة؟ وما هي أهم تلك التقصيرات؟ وما هي علاقتنا بها؟ ومن المسؤول؟ أو هل نحن مسؤولون؟

التاريخ يتحدث، والقرآن يتحدث، والنبي يتحدث، والواقع يتحدث، وخلاصة كل الحديث، مصرع سيد الشهداء ومقتل حفيد المصطفى وأشرف إنسان أنجبته الأرض. وهنا وبلا مقدمات نستنتج التاريخ لنرى أين نحن منه الآن، وما هو موقفنا تجاه التقصيرات في العصر الحديث؟

تقصير مع الإمام الحسن عليه السلام:

ومعالمه معروفة، والتأريخ واضح، صريح في هذه القضية.
ففيما يحقق الإمام الحسن عليه السلام دماء المسلمين، ويحتمل ما يتحمله
من اتهام الناس في توقيعه لوثيقة تأريخية، يعلم تماماً أن معاوية
سيقتضها، ترى معاوية يقول وبلا حياء:

«ألا إن كل شيء أعطيته الحسن بن علي تحت قدمي هاتين.. وإني
والله ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا، ولا لتحتجوا ولا لتزكوا.. إنما قاتلتكم
لأتأقر عليكم»^(١).

فلم يكن هدف معاوية من قتاله الاقتصار من قتلة عثمان، كما كان
يزعم، وإنما للاستحواذ على السلطة وإذلال المؤمنين، ولكن بأية
وسائل؟! نستطيع أن نعدد ونضع عناوين:

الرشوة وشراء الضمائر والذمم، الاغتيال السياسي والتصفيات
الجسدية «إن لله جنوداً من عمل»^(٢)، المكر والخداع واختلاق كتاب،
يُنسب لقيس بن سعد لتضليل الناس والتمويه عليهم، النوح أو التباكي
على الإسلام والرسالة وميراث النبوة، الصوم والصلاة نعم، حتى الصوم
والصلاة، كانتا من وسائل التضليل والضحك على ذقون الناس.

(١)

(٢)

أفعا الناس، فأنهم حول الطاغية أدوات قمع وأزلام سلطة وكلاب
هراش، لا يفرقون بين الناقة والبعير، حتى صاروا مع وريثه الفاسق:
«همج رهاق يعقون مع كل ناعق ويعليون مع كل ريع»^(١) «الدين لعق على أنسهم
يعوطونه ما درت معاشهم فإذا مُخِّصوا بالبلاء قلَّ الدينانون»^(٢).

هكذا، إذن كان الناس، متفزع صامت، أو خائف مذعور، أو نفعي
مرتزق، أو عابد متنسك، ومنهم ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُّقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَلَآ تَغَيَّرُ أَلَا فِي
الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾^(٣).

نعم، لقد اختار بعضهم شعار: (لا تغتني) ألا إنهم في الفتنة سقطوا.
وهذا هو التقصير ولكن لا يشعرون.

وتقصير آخر مع الإمام علي عليه السلام:

ولا تريد أن تدخل في جزئيات ومفردات قضية التحكيم وتفاصيله
التي يذكرها التاريخ بوضوح أيضاً، والذي كان أقل تقصير فيه الازدواجية
والنفاق، وكيف يخرج أحد الناس الى علي عليه السلام ويقول له:

«ترجع الى عراقك وترجع نحن الى شامنا، فُخِّلِي بينك وبين العراق،
وتخلي بيننا وبين الشام». وكيف ردَّ عليه قائلاً:

«إن الله تعالى لم يرص من أوليائه أن يُعصى في الأرض وهم سكوت مُدْعون،

(١)

(٢)

(٣) النوبة: ٤٩.

لا يأمرن بمعروف ولا ينهون عن منكر، فوجدت القتال أهون علي من معالجة الأغلال في جهنم».

وينشطر جيش الإمام شطرين عندما رفعت المصاحف، لا لضبابية الحق وعدم تمييزه أو عدم وضوحه - كما يقول البعض - وإنما لأن النفوس زاغت ﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَرْأَعَ اللَّهُ فُلُوبَهُمْ﴾^(١)، أو كما يقول الدكتور طه حسين:

«إنهم كانوا أصحاب دنيا لا أصحاب دين، وكانوا في دخائل نفوسهم نادمين على تلك الأيام الهينة اللينة التي قضوها أيام عثمان، يتمتعون بالهيات والجوائز والإقطاع»^(٢).

هكذا كان التقصير أو التقصيرات وهكذا سارت أمور الفتنة في أمة ضيعت حق نبيها بمن أوصى به، وضيعت حق وليها حين فرطت وتهاونت في أخذه، وضيعت حق نجله حين ساومت عدوه عليه، وأخيراً وليس آخراً غدرت بالحسين وسلمته إلى أكثر خلق الله شراً وهبوطاً وانحطاطاً في تاريخ المسلمين.

المقصورون، في الدعة السننهم كالمخارق وفي الجهاد رواقون كالثعالب نقول، ولكي نبقي في إطار البحث، إنه بعد استشهاد الإمام علي عليه السلام

(١) الصف: ٥.

(٢) علي وبنوه، الدكتور طه حسين: ٨٠.

وبيعة الإمام الحسن، ثم الصلح مع معاوية، وسحق الأخير لليهود والمواثيق، زاغت أبصار بعض الناس وتزلزلت قلوبهم، ولم يُعد للقوم صبر ولا رغبة في قتال المارقين أو القاسطين؛ لأنهم أحبوا الدنيا ورغبوا فيها، وحين تساوى لديهم معاوية وعلي، بل فضل بعضهم معاوية على علي لأنه أصلح لديناهم التي رغبوا فيها، لم يبق أمام الإمام الحسين إلا أن يقف قائلاً:

«فإن الله كتب الجهاد على خلقه وسمّاه كُرهاً ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾^(١) فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون، اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة...» أي مكان التحشيد للقتال - كما يقال في المصطلح العسكري الحديث - ولكنهم صمتوا وما تكلم منهم أحد متخاذلين خائفين مذعورين، الأمر الذي دفع عدي بن حاتم إلى القول:

«سبحان الله... ما أقبح هذا المقام! ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم؟» ويضيف:

«أين خطباء مضر الذين ألسنتهم في الذعة كالمخاريق؟ فإذا جذ الجذ فرواغون كالشعالب؟ أما تخافون مقت الله وعيب النار وعارها؟»^(٢)

وهنا نريد أن نعلق كما علق الدكتور أحمد راسم النفيس في كتابه المار الذكر مع تصرف بسيط:

(١) البقرة: ٢١٦.

(٢) عن أبي الفرج: ١٤/٤.

«إنَّ الهزيمة النفسية قد أصابت القوم ولم تُمدِّ بهم أو لديهم رغبة في جهاد، ولا همّة لبذل أو تضحية أو عطاء؛ فقد جربوا الدنيا واستمروا وحلاوتها وباتوا يريدونها، وخاصة حين فُتحت أمام بعضهم كنوز كسرى وجواهر قيصر، فسأل لعابهم على الدنانير الصفر والدراهم البيض التي قال عنها عمر بن الخطاب يوماً: إنها مهلكتكم كما أهلكت من كان قبلكم».

وهم اليوم لا يجدون ذلك في ظل العدل أي عدل علي عليه السلام، وإنما اشرأبت نفوسهم إلى بني أمية، أهل الدرهم والدينار وأصحاب الوجاهة والجاه، فكان نكوصهم إلى منظري تلك المرحلة، لعلهم يجدون فيهم ما يبررونه لأنفسهم من متاع الدنيا وزخرفها، مع احتفاظهم طبعاً بصلاة بائسة لا تنهى عن فحشاء أو منكر، وصيام خجول لا يحصل منه صاحبه إلا الجوع والعطش، مع حجٍّ غير مبرور كثر ضجيجيه وقل حبيجه.

وتستمر هذه الهزيمة، وتستمر التذاعيات والالتهايات والتقصيرات، بل الجنائيات في صفوف الأمة، حتى ينبري أحد الناس فيتجاسر على الإمام الحسن عليه السلام ويأخذ بلجام فرسه ويقول:

«الله أكبر يا حسن، أشرك أبوك، وأشركت أنت! وطعته بالمعول، فوقعت في فخذه فشقه حتى بلغت أرييته.. وحمل الحسن عليه السلام على سرير إلى المدائن»^(١).

(١) عن شرح النهج لابن أبي الحديد: ٤٠ / ١٦.

وتسلط أرباب السوء:

وهكذا تحققت رؤيا النبي ﷺ ، وقام ملك أرباب السوء، وتوالى أبناء الطلقاء وأحفاد (الشجرة الملعونة في القرآن) في حكم الناس وفتنتهم والتحكّم بدينهم ودنياهم.

وحيث أجاد أولهم استخدام سياسة (فرق تسد)، ونشر القصاصيين في المساجد، واستبدلت قيم الحق والعدل بقيم الترف والثراء والتزلف لأصحاب المال والقرار، وحين أحس أن رجال المدينة يمتنعون عن بيعة ولده يزيد، راسلهم أولاً، ثم ذهب إليهم بنفسه عام خمسين للهجرة، مستخدماً سياسة المراوغة والخداع، عازفاً على أوتار النفوس المحتبة للمال والجاه، مدغداً كوامن الأهواء، عالماً أن الأمة التي أسلمت علياً والحسن لن تجتمع على الحسين عليه السلام، وبالتالي فالمطلوب هو كسب الوقت وتفتيت المعارضة وضرب الناس بعضهم ببعض حتى يصل الملك الى يزيد القروء غنيمة باردة، لا ينافسه عليه أحد، ولا تجرؤ عليه أمة، هان عليها دينها فذلت وهانت واستكانت.

وتستمر هذه السياسة، ويستمر معها طبعاً العزف على عود الدين، ولكن أي دين؟! دين الأنبياء، أم دين الفقهاء؟! حسب تعبير أحد المعاصرين - وليكن دين السلاطين ودين وعاظ السلاطين. هذا الدين الذي هو سبب كل الكوارث والرايا في تاريخ المسلمين، والذي وصفه

أحد المعاصرين أيضاً بأن مصيبته في فئتين:

«فئة أساءت استخدامه، وفئة أتقنت استغلاله، فالتى أساءت استخدامه ضلّلت المؤمنين به، والتى أتقنت استغلاله، أعطت الجاحدين حجة عليه».

وجاءت نهضة الحسين لتكشف الزيف والمزيّفين:

وجاءت نهضة الإمام الحسين عليه السلام بمهمة التوقّر على حفظ الدين نبأ صافياً أصيلاً، وجاءت ثورته الكبرى لكشف المزيّفين الذين ارتدوا رداء الدين وتلقّعوا بآيات الكتاب المبين.

فالحياة عندهم متاع وخداع وملذات، يرافقها قتل ومكر وغدر وسفك دماء. هدف هابط لا يمكن الوصول إليه إلا بشعارات دينية وذكر صلواتٍ وقراءة قرآن. نعم، لا مانع أن يرتقي المنبر من يحدث الناس عن الزهد والدين والآخرة والعقاب والثواب والحوار العيني، ويفاخر بصحبته لرسول الله ﷺ طالما أنه يُنهي خطبته بلعن أبي تراب والإجهاز على تراثه وعظمته ومناقبه.

ولا مانع أن يأتي زمانٌ بعد حين يلعن أولئك الذين يحدثون الناس عن الزهد ولا يزهّدون، ويرغبونهم في الآخرة ولا يرغبون، مادام الدين لعقاً على ألسن السلاطين والوعاظ، يضعّدون به على أعناق الناس، ويمرّرون ما يريدون بتوظيف نصوصه، وبيع صكوك الغفران، وعلى

خطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

وتأتي كلمات الإمام الحسين عليه السلام تدوي مرة أخرى: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة هم أولئك الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، فيستنهض ويذكر ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاعْشَوْا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾^(١). ولا يتردد أن يقول ببلاغ عربي فصيح في خطبة خلدها التاريخ:

«ثم أنتم أيها العصاة، بالعلم مشهورة، وبالخير مذكورة، وبالنصيحة معروفة، وبالله في أنفس الناس مهابة، يهابكم الشريف ويكرمكم الضعيف ويؤثركم من لا فضل لكم عليه ولا يد لكم عنده، تُسَلِّمُونَ في الحوائج إذا امتنعت من طلبها، وتمشون في الطريق بينة الملوك وكرامة الأكابر، أليس كل ذلك إنما نلتموه، بما يرجى عندكم من القيام بحق الله؟ وإن كنتم عن أكثر حقه تقصرون فاستخففتم بحق الأئمة، فأما حق الضعفاء فضيعتهم، وأما حقكم بزعيمكم فطلبتهم، فلا مالاً بذلتموه، ولا نفساً خاطرتهم بها للذي خلقها، ولا عشيرة عاديتموها في ذات الله، أنتم تمنون على الله جنته ومجاورة رسله وأماناً من عذابه».

إلى أن يقول عليه السلام:

«لقد خشيتُ عليكم أيها المعتنون على الله أن تحلَّ بكم نقمة من نعماته؛ لأنكم بلغتُم من كرامة الله منزلةً فُضِّلتم بها، ومن يعرف بالله لا يُكرم، وأنتم في عباده تُكرمون، وقد ترون عهد الله منقوضة فلا تفرعون، وأنتم لبعض ذمم آبائكم تفرعون، ولو صيرتم على الأذى وتحملتُم المؤونة في ذات الله؛ كانت أمور الله عليكم تزد،

وعنكم تصدروا، وإليكم ترجع، ولكم مكنتم الظلمة من منزلتكم واستسلمتم، وتركتم أمور الله في أيديهم، يعملون بالشبهات ويسرون في الشهوات، سلطهم على ذلك فواركم من الموت وإعجابكم بالحياة التي هي مفارقتكم، فأسلمتم الضعفاء في أيديهم وهم ما بين مستعبد مقهور، أو مستضعف على عيشه مغلوب»^(١).

حتى ينتهي سلام الله عليه، في هذه الخطبة الخالدة، إلى قوله:
«اللهم إنك تعلم أنه لم يكن ما كان منا نافساً في سلطان، ولا اتماً في فضول
الحطام، ولكن لردة المعالم من دينك ونظير الإصلاح في بلادك، وبأمن المظلومين
من عبادك، وتعمل بفرائضك وستنك في بلادك».

وبعد أن وضع الإمام الحسين عليه السلام أهم نقطة على أهم حريف في نهضته، وهي طلب الإصلاح في أمة جدّه وخاصّة بعد أن تنصّل عن تحمّل المسؤولية من يوهمون غيرهم أنهم أولى بحملها من تلك العصابة التي هي بالعلم مشهورة وبالخير مذكورة، ممن لم يخاطروا بنفسهم ولم يضخّوا بمنزلة، وتركوا أمور الله بأيدي الظلمة، جاءت النقطة الأخرى على حرف آخر حين خاطب محمد بن الحنفية أخاه الحسين قائلاً:

«يا أخي أنت أحب الناس إلي وأعزهم علي، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحقّ بها منك، تنحّ بشعبتك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت، ثم أبعث رُسلك إلى الناس فادعهم إلى نفسك، فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص

(١) تعف العقول عن آل الرسول، العزّاني: ٢٣٧ - ٢٣٨.

الله بذلك دينك ولا عقلك، ولا تذهب به مروؤتك ولا فضلك».

وهنا جاءت نقطة الحسين على حرف كبير آخر في قوله (ع):

«لو لم يكن في الدنيا لي ملجأ ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية، وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي كي أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، فمَن قبلني بقبول الحق فألله أولى بالحق، ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين»^(١).
ثم اختتم ذلك بقوله:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلماً
وواسى الرجال الصالحين بنفسه وفارق مذموماً وخالف مجرماً
وجاءت شعارات المثبتين مقابل الرفض الحسيني العظيم.

وفيما جاءت هكذا نهضة الحسين وشعاراتها المدقية الثائرة، جاءت معها شعارات المثبتين والخائمين والمتخاذلين، فبعضهم يخاطبه (ع):
«أتق الله ولا تُفرّق جماعة المسلمين!» وبعضهم يصفه بالبغي والعدوان والخروج على (خليفة المسلمين!) وبعضهم لا يفقه قصة رأس يحيى بن زكريا الذي أُهدي إلى بني من بغايا بني إسرائيل؛ فيلوم الحسين لو قُدم رأسه الشريف إلى يزيد، وبعضهم آثر الاعتزال والتفرّج؛ فلم ينصر حقاً ولم يخذل باطلاً، وبعضهم اكتفى بالدعاء، ولم يزد على أن يدعو الله تعالى بأن يقضي لهذه الأمة بالخير والإحسان؛ فيولي أمرها خيارها وأبرارها

ويهلك قبحارها وأشرارها، ولكنهم لا يحدّدون من هم أخيارها ومن هم قبحارها، فيتركون الناس في حيرة وبلبلة وسبل متفرقة. لا يهتدي فيها الضالّ، ولا يستيقن المهتدي.

وهنا لابدّ من الإشارة إلى هؤلاء المستفzلكين الذين يختفون وراء النصوص ويتحالفون مع اللصوص، والتنديد بهم والاستخفاف بفzلكتهم وفضحها، وكيف أنهم يتوهمون ويوهمون ثم يزعمون أنهم على هدى، ويمزّهون على العوام والبسطاء ببعض توابل العبادات مثل: طول الصلاة وطول القيام والتشذق بالصيام والتلفع بالنسك والتمتمات، فيما العقول كمقول البهائم والقلوب كقلوب الذئاب، كما وصفهم الإمام علي عليه السلام حين قال:

«يطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون جلد الضأن وتحتها قلوب الذئاب والنمور، يظنّ الناس أنهم من الزاهدين في الدنيا، يراءون الناس بأعمالهم ويُسخطون الله بسرائرهم»^(١).

ولو كان الإمام الحسين عليه السلام استمع إلى أي واحد من هؤلاء، وفعل كما فعل عبد الله بن عمر في بيعته الاضطرابية ليزيد؛ لأضاف إسماً أو لائحة أخرى إلى لوائح الروايات التبريرية التي تسوّغ الطاعة (لأمير المؤمنين)، ولاستدلّ بها البخاري ومسلم وامثالهما وقالوا: هاهو ابن بنت النبي يوجب السمع والطاعة ليزيد أو لحكم يزيد، وهاهو يدعو لوحدة

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ٤/ ٤٨٩.

الجماعة، (رغم نقض الشريعة)، ولا تشهد بذلك الأفأكون والمنافقون والمتعاصون والمخادعون واستخدموها راية وشعاراً في كل موقف، يرون فيه ضرورة لإسناد حزب الشياطين ومسايرتهم ومماشاتهم، تمشيةً لأموهم وحفاظاً على ذلك الحزب من الانهيار ومصلحتهم من التدمير. أي لماتت هذه الأمة الى نهاية الدهر، ولما نهض أحد لرفض الظلم والقهر والاستبداد.

نعم... ندّد الإمام الحسين (ع) بكلّ ذلك وقرّر أن يقوم بالمهمة الرسالية التي عجز عن حملها الصحابة والتابعون فيقول:

«خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني الى أسلافي اشتياق يعقوب الى يوسف، وخير لي مصرعٌ أنا لاقيه، كآني بأوصالي هذه نقطتها إعلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني أكراساً جوفاً وأجرية سباً».

الى أن يقول - سلام الله عليه - وبضرس قاطع، وبلا تردّد أو تهيب، وبكلّ صراحة ووضوح:

«من كان باذلاً فينا مهجته وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فإنني راحل مصعباً إن شاء الله»^(١).

نعم، لقد علّمنا الحسين (ع) درساً في الإدراك الواعي للهدف الذي نسعى لتحقيقه مهما كانت التضحيات، وهكذا سقطت مزة واحدة والى الأبد كلّ أقمعة الإسلام الكهنوتي الذي يريد لدين الله أن يبقى محاريب

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ٦٨٧/٤.

وعيادة ودعاء، ويسقط معها كل المتفرجين الذين يؤثرون الدعة والعافية ويتمسحون بأعتاب النصوص الدينية، تاركين فريضة الجهاد وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فكان لنا في كل عصر حسين في مواجهة يزيد، كما كان لكل فرعون موسى ولكل طاغية بطل، ولكل نمروذ إبراهيم.

وهذا يعني أن الامتداد الطبيعي لرسالة الإسلام الحق هو المنهج الحسيني، ونقيضه المنهج الأموي، وإن تُلَقَّع بألف آية قرآنية، وردد أدعيائه ألف حديث شريف، وحين يُعزَف الإنسان بأنه موقف، ولا خير في إنسان ليس له موقف فإن:

الموقف الحسيني هو المعيار:

نعم، يبقى الموقف الحسيني هو معيار الثوار، ويبقى رائده الإمام الحسين عليه السلام هو القدوة والمثال، وإن الأمة بدون هذا الموقف وتمثله وتمثيله سوف يسوق للظلمة والطغاة كل أعمالهم و(اجتهاداتهم). وسيأتي من يقول: إن اجتهادات هؤلاء إنما هي (اجتهادات أئمة)، وللأئمة أن يجتهدوا، فإن أخطأوا فلهم أجر، وإن أصابوا فلهم أجران، وإذا لم ينجح التسوية في الإقناع، يأتي فقهاء السلاطين، أو أرباب السوء فيقولون للناس: «عليكم أن تصبروا على السلاطين وظلمهم إلا أن تروا

منهم كفراً بواحاً»^(١١)! وما دام هؤلاء لا يجدون ضرورة لإعلان (الكفر البواح) فلا بأس أن يلي الأمة حكّام طواغيت من أمثال يزيد والحجاج والمتوكل ونبيرون.

وحين تستتب الأمور لهؤلاء الجبابرة فإنهم عندها لن يجدوا ضيراً في إعدام من يُبدي رأياً مقابل آرائهم، كما فعلوا بسعيد بن جبير وحجر بن عدي مثلاً، ويجعلوا ذلك سنة متبعة؛ إذ يرسمون بذلك سياسة مبرمجة تبتدئ بإذلال الرعية وكسر إرادتها، وبعدها ترويض أبناء الأمة على ارتكاب المحرمات ومواجهة الشرفاء، وجنباً إلى جنب مع التضاضي عن البطانة في نيلها من الحرام وتحذّي حدود الله، حتى يصبح الكلّ في الذنب سواء.

وبين ربط التأريخ بالواقع أو بالعكس قدّر لنا أن ننتظر هذا الانتظار الطويل، وأن نبقي نعيش الصراع المرير بين الحق والباطل داخل هذه الأمة، وأن نرى كلّ هذه المصائب من سفك الدماء وهدر الطاقات، وفي صراعات داخلية تطير فيها رؤوس وتُملأ بها السجون، إضافة إلى ما تتركه الغزوات الخارجية من تترية وصليبية وصهيونية، تعينها حكومات مستبدة من كافة الأشكال والألوان؛ ملكية وجمهورية وقاجارية وبهلوية، جزيت فينا كلّ شيء إلا العدل والحرية.

(١١) وهذه آراء ابن تيمية وأضرابه. ومهما أسوأ من ذلك كأنّ (تسمع وتطيع للأمير وإنّ ضرب ظهرك وأخذ مالك وسلخ جلدك)، راجع صحيح مسلم (كتاب الإمارة والطاعة للأمير).

وهكذا تحققت رؤيا النبي ﷺ في الفتنة التي طحنت البشرية ومازالت تطحنها، وسيتقن حتى يرجع الناس الى سنة الله في خلقه والتي خلاصتها:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١) و «كيفما تكونوا يوفى عليكم».

وسيتبقى الأمم التي تقتل أنبياءها موضع ابتلاء وعقاب، ومثلها الأمة التي تقتل ابن بنت نبيها، وأحفاده من بعده، ومن يسير على خطه، هذه الأمة، وسوف تفقد صلابتها وأصالتها لأنها، كما يقول السيد الشهيد الصدر عليه السلام:

«أمة متبعية لا توجد لديها أي مناعة ضد الكفر، وبعدها سوف تندمج هذه الأمة اندماجاً كاملاً بالتجربة الكافرة؛ وبذلك يضع الإسلام والرسالة، وتضع معها النظرية الإسلامية للحياة، وتضع حتى الأمة نفسها»^(٢).

وبغير هذا الفهم، ربما تستعصي فكرة استيعاب (رؤيا الفتنة) والشجرة الملعونة في القرآن، وكذلك فكرة خلق إبليس، وفلسفة القبح والجمال، إذ:

فلولا القبح ما عُرف الجمال ولولا النقص ما عُرف الكمال
وهكذا وبغير الثورة الحسينية وفهم أبعادها وآثارها ونتائجها

(١) الرعد: ١١.

(٢) أهل البيت تنوع أدوار ووحدة هدف، السيد محمد باقر الصدر: ١٢٥.

وقدرتها على فرز الحق عن الباطل، أو قل فضح الباطل المقنع بقناع الحق أو الشريعة، لما كانت هناك ثورات، ولما سطعت في سماء الإسلام شمس، ولغاب الحق تحت شعارات المتاجرين بالدين وقيم الدين.

نعم، بخروج الإمام الحسين (ع) على طاغية عصره، يُفسر الخروج على الحاكم الظالم المتلفع بالشرعية المزيّفة، حتى لو لم يكن كافراً، بل إن خروجه - سلام الله عليه - صار مبدأ إسلامياً شرعياً لا شبهة فيه ولا إشكال. وكما كان الخروج على عثمان في عدم تسليمه مروان (فورة من روح الإسلام) كما يستيها المرحوم سيد قطب، فإن خروج الحسين يعتبر ثورة من عمق الإسلام لفضح الزيف، وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح، أو كما يقول - سلام الله عليه - عن رسول الله (ص): «من رأى منكم سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهده الله، مخالفاً سنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ولم يغير ما عليه بفعل ولا قول كان سقاً على الله أن يدخله مدخله. ألا وإن هؤلاء قد لزمو طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالقيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وأنا أحق من غير»^(١).

وعلى منهج الحسين وخروجه المشرف، خرج الإمام زيد حفيده على هشام بن عبد الملك، وعلى نفس النهج كان موقف أبي حنيفة الذي أجاز الخروج على الأمويين، فعاذ زيداً وأيده سراً، بل كان يمثل خروجه بخروج رسول الله (ص) على المشركين يوم بدر، وكذلك خروج

(١) الكامل في التاريخ: ٤/ ٤٨.

يحيى على الوليد، وخروج محمد ذي النفس الزكية وخروج أخيه إبراهيم على الأمويين في أواخر عهدهم، وعلى العباسيين في أوائل عهدهم، ومثله خروج يحيى بن عبدالله على هارون الرشيد، وخروج إدريس بن عبدالله على الهادي في العراق، وخروج محمد بن إبراهيم المعروف بابن طباطبا، ومحمد بن جعفر الصادق وإبراهيم بن موسى بن جعفر على المأمون، وخروج محمد بن القاسم بن عمر على المعتصم؛ حتى صار شعار الجميع: إن الخروج على الحاكم الظالم، إنما هو خروج شرعي، يقره الدين وترضاه الشريعة، بل هو من صلب العقيدة والشريعة والدين. أمّا تعريف الظالم الذي تجب الثورة عليه، فقد أوجزه الإمام زيد بن علي عليه السلام قائلاً:

«كل من استأثر بالمال أو الرأي فهو ظالم». وما أكثر المستأثرين بالأموال والآراء! وما أحوجتنا في كل زمان إلى زيد جديد ويحيى جديد وحسين جديد!

ولولا هذه الثورات، وهذا الخروج، وهذه الروح الحسينية؛ لاستمر التعسف في تفسير مفاهيم الدين، واستمر غطاء السلاطين يوظفون نصوص الدين لصالح ملوكهم وسلاطينهم، يبرزون لهم الحكم والتحكّم باعتبارهم (لم يرتكبوا كفراً بواحاً)، أو لم يتركوا صلاة أو صياماً، ولصار الحديث عن الدين والتشدد به بديلاً عن العمل به، ولاختلط الحق بالباطل والتقية بالجب، والشجاعة بالتهور، وتلك هي الفتنة الكبرى فعلاً.

إذن، جاء خروج الحسين عليه السلام عبرة لنا للخروج على كل ظالم متجبر حتى لو تلقع بالدين، ولقب نفسه - (أمير المؤمنين)، وجاء مصرعه الشريف عبرة تستل دموع الطهر والفضيلة على الجرح الكبير، ليبقى - سلام الله عليه - نشيداً خالداً لكل أجيال المسلمين، بل لكل الأحرار والشرفاء في شرق الأرض وغربها:

سيظلّ ذكرك يا حسين يهزّ منا القلب هزاً
وكذا ندانا يا حسين يزيدنا شرفاً وعزاً



المناهج الأموية وثورة التصحيح الحسينية

سعد المنصوري

الجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام قم المقدسة

فِي سَمَاءِ الرَّحْمَةِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وعلى آله
الطيبين الطاهرين المعصومين.

التمهيد:

تعرض الإسلام لحملة تحريف وتقليص لدوره في الحياة، وتسخير
مفاهيمه ومبادئه المقدسة لغايات وأغراض متعددة، بعضها عدائية ولدت
مع ولادة الإسلام وتهديده لمصالح المترفين، وأخرى لمصالح فردية
وعائلية.

والغريب في التاريخ الإسلامي انقلاب المقاييس وقفز المجموعة
الأكثر عداوة للرسالة الإسلامية إلى أعلى موقع في دنيا الإسلام، خلافة
الرسول ﷺ والتصدي لقيادة العالم الإسلامي، وإمرة المؤمنين؛ في حين
كانوا أكثر الناس عداوة للنبي ﷺ ولدينه الحنيف، وهي من المسائل
المثيرة للتساؤل والباحثة على التعجب.

كيف تسال هؤلاء؟:

وما هي العوامل التي ساعدتهم للوصول؟
وكيف اطمأن أصحاب القرار السياسي لهم؟
وألم يكن في الصحابة من هو أكفأ منهم لمواقع قيادية في المجتمع الإسلامي؟

وكيف قبل المجتمع الذي عاش حرباً دموية ضدهم أكثر من عقدين من الزمن؟

وفي هذا الواقع المهزوم كانت شهادة الإمام الحسين (ع) جريمة أخرى تُضاف للانتهاكات الكثيرة للإسلام. والتي جاءت نتيجة لغياب الوعي، وغفلة الأمة والتسامح، واللامبالاة في الموقف أمام تلك الأخطاء الكبيرة التي عقيبت رحلة الرسول (ص)، وأدت إلى عزل وإقصاء القيادة الشرعية عن موقعها الرسالي.

وتبعت تلك الانحرافات انهيارات وتداعيات متعمدة، يدرك أسرارها الكامنة المتتبع للأحداث التي غيبت غايات الرسالة الكبرى وأهدافها العظيمة، وحرمت الإنسانية بصورة عامة والإسلامية خاصة من معطياتها الثرة.

ولعبت الاجتهادات الفردية دوراً رئيسياً في تزوير الحقيقة الإسلامية؛ لأنها لا تقوم على ضابطة أو قاعدة أو علم ودراية، وإنما مجزء آراء ارتجالية، صدرت من الحكام، ورددها وعاظ السلطان وفقهاء الدولة

الأموية، وأصبحت فيما بعد البدائل عن الكتاب والسنة. وهكذا حققت السلطة تكريس المفاهيم التي من شأنها فرض سيطرة الغرباء عن الإسلام.

وجعلت هذه العقلية المعادية للإسلام والمتبعة للشهوات والأهواء لنفسها القيمومة على الإسلام عقيدة وشريعة وأمة، وأصبحت الميزان الوحيد في معرفة الإسلام وفق رؤيتها، وهي التي تشخص المصلحة الإسلامية، وتعين اتجاه الهدى والإيمان والجماعة، لتكون السلطة السياسية الأموية الهادية المهدية.

وهذه المفارقات التي أفرزتها طبيعة التركيبة النفسية والفكرية الباهلية أصبحت فيما بعد تمثل الجماعة، والتي ابتدأت من عام الجماعة التي تم تسليم الملك لمعاوية بلا منازع، والانتماء إلى الجماعة رهن على طاعة الحاكم والانقياد لأمره حتى بالباطل، وأحاطوا هذه الجماعة بهالة من القدسية، لا تدنى إليها بالمقام جميع أركان الإسلام؛ فاعتبروا الخارج عن الطاعة مفارقاً للجماعة والأمر بالمعروف خارجاً من الجماعة يستحق أشد العقاب، وبهذا كان قضاؤهم على الصحابي الجليل حجر بن عدي وعمرو بن الحمق الخزاعي والجماعة الذين كانوا معهما من شهداء مرج عذراء؛ لأنهم خالفوا الجماعة التي كانت تلعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب؛ إذ كتب زياد بن أبيه إلى معاوية: «إنهم خالفوا الجماعة في لعن أبي تراب، وزروا على الولاة، فخرجوا بذلك من الطاعة».^(١)

(١) تاريخ العقوي، ابن واضح الأخباري ٢: ٢٣٠.

واتبعوا أقسى الأساليب وارتكبوا أكبر الجرائم ضدّ من خرج من جماعتهم؛ فارتكبوا مجازر جماعية في المدينة المنورة، وأُبيح «حرم رسول الله ﷺ» حتى ولدت الأبيكار ولا يعرف من أولدهنّ، ثم أخذ الناس على أن يبايعوا على أنهم عبيد يزيد بن معاوية، فكان الرجل من قريش يؤتى به، فيقال: بايع بأنك عبد قنّ ليزيد، فيقول: لا! فيضرب عنقه.^(١) وكان ذلك في وقعة الحزرة، واخترعوا لأنفسهم حصانة شرعية تبرر جرائمهم الماضية والقادمة، وجعلوا مقامهم فوق القانون والشرع؛ لأنّهم قاموا بأمر الأئمة وأئمة المسلمين. «قال عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم: لما ولي يزيد بن عبد الملك قال: سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز، فأتي بأربعين شيخاً فشهدوا له ما على الخلفاء حساب ولا عذاب.»^(٢)

وفي رواية أخرى أنّ يزيد بن معاوية قال له أبوه: «سلي حاجتك. قال له يزيد: أعتقني من النار، أعتق الله رقيبتك منها. قال: كيف؟ قال: لأنّي وجدت في الآثار أنه من تقلّد أمر الأئمة ثلاثة أيّام حرّمه الله على النار، فأعهد إليّ بالأمر من بعدك ففعل.»^(٣)

وكان الرسول ﷺ جاء ليبشّر بال أبي سفيان وبنّي أُمّية، وليعطيهم براءة من النار جزاءً لجورهم وفجورهم وانتهاءً لهم للحرمات. وفي مثل هذه الظروف قتل الحسين عليه السلام، وبنفس المناوئين حاولوا تبرير فعلهم، ولكن الحسين عليه السلام ابن الرسول ﷺ وريحانته وسيد شباب

(١) المصدر السابق ٢: ٢٥٠-٢٥١.

(٢) تاريخ الخلفاء، للسيوطي: ٢٤٦.

(٣) البداية والنهاية ٨: ٢٣٠.

أهل الجنة، وهو من «الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»، وأحد الخمسة الذين خرجوا لمباهلة النصارى، من الذين «يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً» والأمة تعلم ذلك وترتل آيات الله فيهم بكرة وأصيلاً. فهي حتى إذا تخاذلت عن نصرته آنذاك فقد تعلمت من ثورته، لأنه الشخصية الوحيدة القادرة على تحطيم النظرية الأموية بما يمتلك من مقام وموقع في الإسلام.

فكانت ثورته بيان الخطأ الأصيل للإسلام ومنهج الجهاد ضد الطغاة الذي فتحه، ولم ولن يُغلق حتى تُملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُئت ظلماً وجوراً.

وهنا نحاول من خلال هذه المقالة المختصرة تسليط الضوء على الآثار الأموية في النظرية السياسية في الإسلام، وشرعية سلاطين الجور، ودور الإمام الحسين عليه السلام في تحطيمها وإعطاء الصورة الأصلية لنظرية الإسلام المحمدي الأصيل.

نرجو أن نكون قد شاركنا ببيان شيء من الحركة الحسينية المباركة ومن الله نستمد التوفيق والتسديد.

النظرية السياسية في الإسلام:

تقوم النظرية السياسية في الإسلام على أركان رئيسية يبلغها الرسول ﷺ في الأمة على المستوى النظري، وثبتها القرآن الكريم بنصوصه المقدسة، وطبقها النبي ﷺ على المجتمع الإسلامي طيلة فترة

حياته في المدينة عندما استطاع أن يبني المجتمع الجديد. وهذه الأركان قائمة ومتصلة مع بعضها لا يمكن الفصل بينها، وفقدان أحدها يؤدي إلى ضياع جزء منها، ثم يساهم ذلك في تداعي الأركان الأخرى وفقدان الصفة الإسلامية الكاملة. فالنظام السياسي كـل متكامل لا يمكن الفصل بين أجزائه، وبكليته يمكن الحصول على الثمار المرجوة من تطبيقه.

فالتبعض والانتقاء تعامل لا يرتضيه الإسلام، وقد نهى عنه بقوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِتَبْغِضِ الْكِتَابِ وَتُكْفَرُونَ بِتَبْغِضِ﴾^(١) وقال آمراً بالأخذ بجميع الإسلام كتاباً وسنة بقوله تعالى: (ما جاءكم به الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)^(٢)

فإبدال شيء من ذلك بمثابة الاشتراك مع الله في إدارة أمور عباده، والاعتقاد بأفضلية الآراء البديلة من الأصول التي أرادها الله العليم الخبير. والحكم من المسائل المختصة بالشأن الإلهي «إن الحكم إلّا لله» وهو يضع ويقنن لعباده ما يريد.

الركن الأول، العقيدة:

تعتبر العقيدة القاعدة المركزية للفكر الإسلامي والأساس للحياة الدينية، وتطلق منها المفاهيم، والضمم للحياة والعلاقات المختلفة،

(١) البقرة: ٨٥.

(٢) الحشر: ٧.

وسلامة السلوك والنشاطات والفعاليات على جميع المستويات.
والعقيدة الإسلامية المرتكز الأساسي الذي تنطلق منه جميع الرؤى
للكون والحياة، والمقياس الذي تعرض عليه الآراء لينحها سلامة الهوية
والانتساب للإسلام، أو عدم الانطباق على المقاييس ليحكم بعدها
وسلبها الهوية الإسلامية.

والعقيدة حاكمة على جوانب الحياة كلها، وهي مؤثرة على نشاطات
وفعاليات الإنسان في المجالات المختلفة، والسلوك الإنساني يعتبر عن
مقدار هيمنتها على فكر وعواطف وإرادة الفرد؛ لأن السلوك يعبر عن
اتجاه ويواعتث حركة الإنسان، والإيمان بالله وعدله واليوم الآخر وما
يترتب على السلوك الديني.

فالعقيدة المعتصر المشترك الذي يحدد طبيعة وكيفية سلوك الحاكم
والمحكوم، والتزام كل منهم لوظائفه، ويتحرك باتجاه الأهداف الإسلامية
الكبرى.

الركن الثاني، الإمامة:

والإمام هو القائد الديني في الإسلام، يتم تعيينه من قبل الله مباشرة.
وقد بلغ ذلك الرسول ﷺ، وهو المؤهل لاستخلاف الرسول والقيام
بمهامه من بعده، فهو يقوم بتبليغ ما أنزل الله، وبيان للناس، والقيومة
على قيادة الدعوة والدولة، والحكم بما أنزل الله، وهذه المهام الكبيرة
والمسؤوليات الثقيلة بحاجة إلى إعداد إلهي ومؤهلات فريدة للقيام بها

على أحسن وجه، وعبر القرآن الكريم عن أهميتها في الخطاب الإلهي:
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^(١)

ويتمتع الإمام بصفات وملكات شخصية لا يشاركه بها غيره، فهو
الأعلم والأفهم والأشجع والأحلم والأقرب إلى الله ورسوله وأفضل العباد
بعد النبي ﷺ.

وقد أوجب الشرع المقدس على كل مسلم معرفة إمامه الشرعي
والانقياد له، ورتب على هذه المعرفة أحكاماً، وقد جاء عن الباقر عليه السلام عن
الرسول ﷺ: «من مات وليس له إمام فموته ميتة جاهلية، ولا يعذر الناس حتى
يعرفوا إمامهم»^(٢)

وقال الصادق عليه السلام: «نحن عروة الله الوثقى، من استمسك بنا نجا، ومن تخلف
عنا هوى، لا ندخله في باب ضلال، ولا نخرجه من باب هدى، ونحن رعاة شمس الله،
ونحن عترة رسول الله ﷺ، ونحن القبة التي طالت أطناها، واتسع فناؤها، من ضوى
إلينا نجا إلى الجنة ومن تخلف عنا هوى إلى النار»^(٣).

الركن الثالث. الشريعة (القانون):

الشريعة وهي الطريقة الإلهية التي يجب أن تسير عليها البشرية في
حياتها، وتجب على الأمة صياغة حياتها على أساسها في كل صغيرة
وكبيرة، وتدخل في جميع نشاطاتها.

(١) السائدة: ٦٧.

(٢) بحار الأنوار. المجلسي ٧٧: ٢٣.

(٣) المصدر السابق ٢: ٢٥.

وتتصف الشريعة الإسلامية بالعمومية والشمولية، وهي مجموعة القوانين التي جاء بها الكتاب الإلهي القرآن الكريم. وقامت السنة النبوية الشريفة ببيان وتفصيل البيانات الإلهية وتطبيقاتها، وما صدر من النبي ﷺ هو بيان الوحي الإلهي وتعبير عنه، فالكتاب البيان الإلهي والسنة فرع منه: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى)^(١) ويتميز هذا القانون بقدرة استيعابه لكل زمان ومكان بما يختزن من قدرة على المواكبة لهما.

وأنزل الله تعالى القرآن الكريم في فترة (٢٣) سنة، وقام الرسول ﷺ بتبليغه إلى الناس، وأكد تعالى عدم قبوله العمل بما يخالفه، وشدد على الالتزام بما اختاره لعباده من دين كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٢).

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣) على المستوى العقائدي والعبادي والأخلاقي والقانوني.

وأكد أمراً آخر وهو خطابه للنبي ﷺ أن يحكم بما أنزل إليه كما في قوله:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ

(١) النجم: ٣.

(٢) آل عمران: ١٩.

(٣) آل عمران: ٨٥.

شرعة ومنهاجاً» (١).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

ويؤكد القرآن الكريم أنَّ التشريع لله تعالى دون غيره، والرسول مبلغ لهذا التشريع، وما أعطي الرسول من صلاحيات تشريعية فهي في إطار التشريع الإلهي.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ (٣).

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَن أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِن أَتَّبِع إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (٤).

وذم القرآن الكريم الذين لا يحكمون بما أنزل الله، ووصفهم بالكفر كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٥).

وبالظلم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٦).

وبالفسق في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٧).

واعتبر القرآن الكريم كلَّ حكم نابع عن الهوى، وكلَّ انحراف عن

(١) المائدة: ٤٨.

(٢) الجاثية: ١٨.

(٣) الأنعام: ١٠٣-١٠٢.

(٤) يونس: ١٠٥.

(٥) المائدة: ٤٤.

(٦) المائدة: ٤٥.

(٧) المائدة: ٤٧.

الحكم الإلهي أو إبداله بحكم آخر حكم جاهلي.

قال تعالى: ﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فاعلم أَنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ، أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَن أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (١).

فالحاكم الإسلامي نبيّاً أو خليفة ملزم باتِّباع ما أنزل الله تعالى على جميع المستويات، والأمة ملزمة بالالتزام بالتشريع الإلهي والأخذ به من دون تبعض.

والحاكم الإسلامي المحامي والمدافع عن الإسلام عقيدة وشريعة والمسؤول عن تطبيقها على الحياة، ويجب أن يكون عالماً بها؛ حتى لا تقع مخالفة للشرع الإلهي في التطبيق.

الركن الرابع، العاطفة:

وهي من أهم وسائل الربط لنسيج المجتمع الإسلامي على المستوى الشخصي والرسامي، فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض، وهم إخوة فيما بينهم ويحب بعضهم الآخر: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قُلُوبِهِمْ يُحِبُّونَ مَن جَاءَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ...﴾ ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا

تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم»^(١) وقوله: ﴿رحماء بينهم﴾^(٢).

وهذا تسجيل لمستوى الولاء والأخوة، وما فيهما من حب واحترام ووفاء، وهو يمثل طرف الولاء من العاطفة الإيجابية لوحدة الانتماء الإيمانية.

وجاء في الحديث النبوي: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(٣).

أما الطرف الآخر فهو يمثل العاطفة خارج دائرة الإيمان والإسلام، وتسمى بالبراءة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾^(٤). وقال تعالى: ﴿ولا تتركوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾^(٥).

وقال تعالى: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾. فالعاطفة قائمة على تول لأولياء الله وللمؤمنين، وبراءة من أعداء الله والكفار والمشركين والظالمين، وهذا الموقف العاطفي في المودة والبغض أو الولاية والبراءة يتحرك معه المؤمن في جميع علاقاته،

(١) الحشر: ٩ و ١٠.

(٢) الفتح: ٢٩.

(٣)

(٤) المائدة: ٥٦.

(٥) هود: ١١٣.

ويشمل التعامل مع الحكام على أساس انتسابهم للإسلام والتزامهم العملي به، وكذلك يشمل العلاقة العاطفية مع الأحكام والقوانين الإلهية، فالمؤمن يحب الخير والطاعة والصلاح، ويكره الشر والمعصية والفساد؛ وهكذا تكون العاطفة داخلية في الأركان الثلاثة السابقة، ومؤثرة في طبيعة العلاقة.

موقف الأمويين من الإسلام:

لا يمكن الفصل بين عصر الدولة الأموية عن ماضي الأمويين خصوصاً عند قياس سلوكهم وطموحاتهم إلى ما كانوا عليها قبل إسلامهم وبعده. فأبوسفيان قائد قريش في جميع مواقفها ضد الإسلام ونبي الإسلام محمد ﷺ، فهو الذي قاد عمليات تعذيب المستضعفين، ومخطط الحصار والمقاطعة على بني هاشم، وأرسل وفداً للنجاحي لرد المهاجرين، وهو المتآمر على الرسول ﷺ ليلة الهجرة، وقد حاول شخصياً قتل الرسول ﷺ، وهو الذي أخرج الحروب على رسول الله ﷺ، وخلق اتحاداً وتعبئة ضمت اليهود وقريشاً وعرب الجزيرة، وهو الذي «عدا على ذوي المهاجرين من بني جحش بن رئاب وباعها لعمر بن علقمة»^(١)

وكان يقول: إن أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد^(٢)

(١) السيرة النبوية، لابن هشام، ٢: ١١٧.

(٢) المغازي، للواقدي، ٢: ٤٤٢. خاطب بذلك الوفد اليهودي.

وقال: «وإني لأنا الموتور الشائر، قُتل إني حنظلة وسادة أهل الوادي»^(١).

وقد ذكر ابن الأثير: أباسفيان بن حرب والحكم بن أبي العاص والد مروان وغيرهما، وقال: إن هؤلاء أشدّ عداوة لرسول الله ﷺ، أسلموا يوم الفتح»^(٢).

وكان يزيد ومعاوية وعتبة، أبناء أبي سفيان وقفوا مع أبيهم ٢٣ سنة، وقاوموا الرسول ﷺ ودين الإسلام بكلّ وسائل المقاومة، واشتركوا مع أبيهم في كيد، وحاربوا الإسلام طيلة هذه المدة، وهؤلاء دخلوا الإسلام مكرهين يوم الفتح وهم الطلقاء.

أما حليف الموقف الأموي وشريك معاوية في مؤامراته على الإسلام عمرو بن العاص: كان أبوه شائناً لرسول الله ﷺ، وله مواقف عديدة مناوئة حاول فيها النيل من الرسول ﷺ ورسالته، وفي إحدى المرات حاول خياب بن الأرت صاحب الرسول ﷺ أن يتقاضاه ثمن سيوف عملها له؛ فامتنع عن الدفع قائلاً: «أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب وفضة أو ثياب أو خدم؟ قال خياب: بلى، قال: فانظري إلى يوم القيامة يا خياب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هناك حقك، فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خياب آثر عند الله متي، ولا أعظم حظاً في ذلك فأنزل الله تعالى فيه:

(١) المصدر السابق ١: ١٢٥.

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١: ٥٩٦ دار الكتب العلمية.

﴿أفرايت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتيني مالا وولداً، أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً كلاً منكتب ما يقول وننشد له من العذاب مذباً ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً﴾ (١) (٢)

والعاصم بن وائل السهمي هو الذي قال: فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو مات لانتقطع ذكره واسترحتم منه، فأنزل الله في ذلك: ﴿إنا أعطيناك الكوثر...﴾ (٣) وقد هلك ولم يسلم.

وعمر بن العاص ورث هذا العداء من أبيه؛ ولذلك كان قاسياً على المسلمين في أول البعثة، ومتآمراً عليهم بعد ذلك. وقد قال له الإمام الحسن يوماً بحضور معاوية: «لقد قاتلت يا عمرو رسول الله في جميع المشاهد، وهجوته وكذته كيدك كله، وكنت من أشد الناس له تكذيباً وعداوة... ثم إنك تعلم وكل هؤلاء الرهط يعلمون أنك هجوت رسول الله ﷺ بسجين بيتاً من الشعر، فقال رسول الله ﷺ: اللهم إني لا أقول الشعر ولا يتبغي لي، اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة، فعليك إذا ما لا يحصى من اللعن» (٤) ولعن رسول الله ﷺ الحكم وما في صلبه (٥)؛ فيكون مروان ملعوناً وهو في صلب أبيه. ولقد صرح رسول الله ﷺ بلعن هذه العصابة وقد تقدم لعن ابن العاص.

(١) سورة مريم: ٧٧-٨٠.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام ١: ٣٥٧.

(٣) المصدر السابق: ٣٩٣، والطبري ١: ٥٩٣.

(٤) تذكرة الخواص. سبط ابن الحوزي: ١٤؛ شرح ابن أبي الحديد المعتزلي ٣: ١٠٣.

(٥) أنساب الأشراف ٥: ٢٧؛ المغازي، للواقدي ١: ١٤٧-١٤٨.

ولعن معاوية وأباه فقد لعنه رسول الله ﷺ كما جاء عن البراء بن عازب قال: أقبل أبو سفيان ومعه معاوية فقال رسول الله ﷺ: «اللهم العن التابع والمتبوع، اللهم عليك بالأقيص»، فقال ابن البراء لأبيه: ومن الأقيص؟ قال: معاوية^(١)

وجاء في رسالة محمد بن أبي بكر^(٢) لمعاوية: «وأنت اللعين ابن اللعين، لم تزل أنت وأبوك تبغيان الغوائل لدين الله، وتجهدان على إطفاء نور الله، وتجمعان على ذلك الجموع، وتبذلان فيه المال وتحالفان فيه القبائل»^(٣)

وقال ابن الأثير: «إنه جرى بين محمد ومعاوية مكاتبات گرهت ذكرها؛ فإنها مما لا يحتمل سماعها العامة»^(٤)

وقد قال رسول الله ﷺ: «إن أشد قومنا لنا بغضاً، بنو أمية، وبنو المغيرة، وبنو مخزوم»^(٥)

وصرحت جورية بنت أبي جهل بذلك لما سمعت الأذان في مكة قالت: قد لعمرى رفع لك ذكرك، أما الصلاة فستصلي، والله لا تحب من قتل الأحبة أبداً^(٦)

هذه نماذج من الصورة الأموية في موقفها من الإسلام

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم: ٢١٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، المعتزلي، ١: ٢٨٣؛ جمهرة الرسائل ١: ٥٤٢.

(٣) الكامل ٣: ١٥٧.

(٤) كنز العمال ١١: ١٦٩.

(٥) المغازي، للواقدي ٢: ٨٤٦.

وأهل البيت عليهم السلام ، وهي لم تتغير إلى آخر حكومتهم؛ بل تهيأت لهم فرصة للانتقام والثار لما أصابهم في عصر الرسول ﷺ ، وهم يصدّون عن سبيل الله ، ولم يتغير المنهج الأموي باتجاهه وأهدافه، وبقيت طموحاته تحزّكهم نحو تحقيقها، وبطريقة عارية من المبادئ والقيم والروح الإنسانية.

شعار نحن مع من غلب:

اتّبع الأمويون نظرية سياسية خاصة بهم تسمى: الحق مع الغالب، ولقنوا الأئمة أن تقول: «نحن مع من غلب» وبهذه المقولة صادروا الإسلام، وأزالوه من واقع الحياة الفكرية والعملية ، وألغوا دور الأئمة على جميع المستويات من المشاركة.

ولهذا ابتدعوا أحاديث نسبوها لرسول الله ﷺ ، نذكر منها هذه النماذج:

الأول: في صحيح مسلم، جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع حين كان من أمر الحزّة ما كان زمن يزيد بن معاوية فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال: إني لم آت لك لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثاً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»^(١) وعبد الله بن عمر الداعي إلى بيعة يزيد كان من المتخلفين عن بيعة

(١) صحيح مسلم ٣: ١٤٧٨، ح ١٨٥٠.

ونصرة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

الثاني: جاء في صحيح البخاري، أنه عليه السلام قال: «إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدوا إليهم حقهم، واسألوا الله حقكم»^(١)

وروى البخاري عنه عليه السلام: من كره من أميره شيئاً فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية»^(٢)

الثالث: روي عن أبي هريرة عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال: من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر؛ فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتة جاهلية»^(٣)

الرابع: عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: من أطاعني فقد أطاع الله، ومن يعصني فقد عصى الله، ومن يطمع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني»^(٤)

والروايات التي جاءت في طاعة أولي الأمر كثيرة جداً، ونقلها أصحاب الصحاح والمساند والسنن وكتب الحديث الأخرى، واشترك بنقلها جميع الفرق الإسلامية؛ فلا يمكن ردّها وهي بهذا الشكل من

(١) صحيح البخاري ٦: ٢٥٨٨، ح ٦٦٤٤.

(٢) المصدر السابق، ح ٦٦٤٥.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإمامة، باب وجوب طاعة الأمراء من غير معصية ٣: ٦٤٧٩.

(٤) صحيح البخاري، كتاب فضل الجهاد والسير، باب يقاتل من وراء الإمام ويتقى به، ٦٠: ٤.

الكثرة والتعدد في النقل، بل هذه العوامل تؤدي إلى الاطمئنان بصورها من النبي ﷺ إلا أن النبي ﷺ لم يكن داعية لآل أبي سفيان وبني أمية، ولحكومة البغاة، وأهل الجور، ولم يبعثه الله تعالى ليبشر بحكومتهم ويدعم سلطانهم، وإنما جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وليبلغهم رسالات ربه، وليحكم بينهم بما أوحى إليه، بالقسط والعدل وجاء بالحق ليزهق به الباطل، وبالنور ليبدد الظلام، وليقيم دولة الحق والعدل والإيمان، وليحرر الإنسان من المبودية وحكم الطغاة: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ (١).

فالأهداف الإلهية من بعث النبوات وإنزال الرسالات لتحرير الناس من أمثال بني أمية، وقد عرف الأمويون ذلك في بداية البعثة، وكانت مواقفهم العدائية على أساس معرفتهم، وعرف المستضعفون أن آمالهم وأحلامهم وانتظارهم للحياة السعيدة العادلة الكريمة تتحقق بالرسالة الإلهية التي جاء بها محمد ﷺ، وآمنوا بها قبل غيرهم لإدراكهم هذه المعاني.

فلا يبقى محل لتطبيق دعوة الرسول ﷺ لطاعة أولي الأمر أن يكون مصداقها الأمراء الأمويون، لأنها لا تتحقق بها طاعة الله، ولا تتحقق أهداف الرسالة، ولا يمكن استئمانهم على الرسالة وحقوق المجتمع الإسلامي، وقد أثبت الواقع ذلك من خلال سلوكهم وطريقة الحكم التي

انتخبوها لأنفسهم، ومخالفاتهم العلنية للإسلام وضيق صدورهم من الالتزام حتى يطواهر الإسلام.

تأسيساً على ما تقدم، أن الروايات صحيحة ولكن حُرِّفت في تعيين المصاديق لها في الخارج. وهي جاءت لدعم أولي الأمر الذين ذكروهم القرآن الكريم؛ إذ نهى عن مخالفتهم وأمر بطاعتهم، وقرن طاعته بطاعتهم، وبها تتحقق طاعته تعالى.

والذي لا نتفق به في روايات طاعة الأمراء هو طاعة أمراء الجور، والذين ليسوا من المؤمنين، وتحريكها باتجاه التبرير أو تحكيم سلطة الظالمين.

أولو الأمر في القرآن الكريم:

إن لفظة أولي الأمر ذكرها القرآن في موارد متعددة، وذكر مصاديقها؛ ولذلك سنكتفي بذكر الآيات تجنباً للإطالة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(١).

وقد تنازع المسلمون في أولي الأمر، ولم ينقطع نزاعهم إلى يومنا هذا، فلنرجع إلى الله تعالى أولاً لنرى من هم أولو الأمر الذين فرض الله طاعتهم وقرنها بطاعة رسوله ثم بطاعته؟

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلَّيْنَاكُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(١).

وإذا أردنا التفصيل في تعريف أولي الأمر فإن الله قد فضل لنا بقوله تعالى في سورة الإنسان: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً ه عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً. ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوْجِهَ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً^(٢).

ثم تبدأ الآيات الأخرى بالتفصيل والشرح لمقامهم في الآخرة بعد أن يتبين إخلاصهم في عملهم وحبهم لله تعالى، وهؤلاء هم الذين خصهم بالتطهير بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٣).

وخصهم بالسلام بقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾^(٤) وهم الذين (إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة...)
فبناء على ما تقدم لا يمثل الأمويون مصداقاً لأولي الأمر؛ لأن أولي الأمر بيّتهم الله تعالى بالصفات المحصورة بهم، والتي يعرفها المسلمون لهم وبيّتهم الرسول ﷺ بأسمائهم وأسماء آبائهم.

(١) المائدة: ٥٥.

(٢) الإنسان: ١-٩.

(٣) الأحزاب: ٣٣.

(٤) الصافات: ١٣٠.

وهؤلاء يمثلون حزب الله بناء على التقسيم القرآني مقابل حزب الشيطان، فتجب موالاته الأول والبراءة من الثاني.

قال تعالى: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾^(١).

وجاءت هذه الآية مباشرة بعد ﴿يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾^(٢).

أما بنو أمية فإنهم مصداق لقوله تعالى: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن، ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾^(٣).
فهنا رأينا أن البحث لم يكن في الروايات، وإنما في المسألة الأساسية التي تتقدم على الروايات؛ وهي من هو الحاكم الذي تكون له الطاعة، وطاعته مقربة إلى الله ومعصيته مبعدة من الله تعالى؟
ومن خلال ما تقدم علمنا أن أولي الأمر الذين تجب طاعتهم وتحرم معصيتهم هم أهل بيت النبوة ﷺ.

نظرية الغلبة عند فقهاء الجمهور:

وضع الأمويون نظريتهم السياسية القائمة على الطاعة المطلقة للسلطان في جميع الأحوال، وبغض النظر عن المملكات الأخلاقية والخلفية التاريخية التي يرجع إليها، والالتزام العملي والسلوكي بالإسلام.

(١) المائدة: ٥٦.

(٢) المائدة: ٥٥.

(٣) الإسراء: ٦٠.

وهذا الشرط لم يأت بمؤيد قرآني، أو رواية أو دليل عقلي أو أخلاقي عليه، يسمح لهم بارتقاء هذا المقام، ثم حزموا الخروج على سلطان الجور ومحاربهه وغيرها من شروط الإذلال والترويض التي مارسوها مع الأئمة، واعتمدوا بذلك على إعطاء صفة شرعية لأنفسهم من خلال هذه النظرية، بعد إعطائها المبررات الشرعية وتقديمها إلى المجتمع لتمثل نظرية الإسلام السياسية الوحيدة في الفكر السياسي الإسلامي؛ ولهذا وضعوا لها هيكلًا روائيًا ضخمًا ينسجم تمامًا مع أهوائهم، قائمًا على اختلاق الروايات ونسبتها إلى نبي الإسلام محمد ﷺ، وساهم هذا التراث المكذوب في التأثير على الفقهاء المتأخرين عن الزمن الأموي؛ حيث اعتمدت رؤيتهم السياسية وطبيعة الحكم الإسلامي على ذلك التراث الأموي المختلق.

فنتيجة لكثرة ما أنتجته الفترة الأموية من روايات عن النبي ﷺ، وهي الفترة الزمنية التي كان التدوين للحديث فيها محظورًا، تلقى الفقهاء الروايات باعتبارها من الحقائق الواقعية المسلّمة بالصحة، وكأنهم لا يشكون بعدم صدورها من الرسول ﷺ؛ فجاءت أحكامهم على سياق الروايات الأموية المنسوبة إلى الرسول ﷺ.

فكانت الآراء الفقهية في هذا المجال تنطلق من الفقهاء، اعتماداً على الأحاديث وسيرة بني أمية التي لم يستنكرها الصحابة والتابعون وآخرون كذلك لا يمتلك قيمةً واقعية، وقد صرح معاوية عن سبب سكوت الصحابة والتابعين بعد صراع مرير مع الخطّ الأموي بقوله وهو

يخاطب أهل المدينة: فإني والله وليت أمركم حين توليته، وأنا أعلم أنكم لا تسرون بولايتي ولا تحتونها، وإني لعالم بما في نفوسكم من ذلك، ولكنني خالستكم بسيفي هذا مخالسة^(١).

وقال عتبة بن أبي سفيان في خطاب عنيف: فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا فإنها تنقطع دوننا، ورب متمن حظه في أمنته، اقبلوا العافية ما قبلناها منكم وفيكم وإناكم، ولو فقد أتعبت من كان قبلكم ولن تريخ من بعدكم^(٢).

فالصحابة والتابعون كانوا تحت هذا المستوى من المحاصرة والإرهاب الأموي، لا يعبر سكوتهم عن دليل رضا وقناعة، وهل جاء بنو أمية إلى الحكم ببيعة الصحابة حتى يعطوا للصحابة قيمة ونوعاً من الاهتمام؟ إنهم جاءوا بالسيف. واستمر وجودهم بالسيف وأفتى لهم الفقهاء بجواز ذلك العمل؛ وعلى الأمة الطاعة والخروج عليهم خروجاً على الله، والميعة خارج طاعتهم ميعة جاهلية.

أولاً: الإمام الشيخ أبو جعفر الطحاوي الحنفي (المتوفى عام ٣٢١) في رسالته (بيان السنة والجماعة) ولا نرى الخروج على أنبتنا ولا ولاة أمرنا وإن جاروا، ولا ندعو على أحد منهم ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعات الله عز وجل فريضة علينا ما لم يأمروا بمعصية^(٣).
ثانياً: قال الإمام أبو اليسر محمد بن عبد الكريم البزودي: الإمام إذا

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، ٨: ٣٢٢.

(٢) الكامل في اللغة والأدب، المبرد ٣: ٣١١-٣١٢، دار الفكر.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، لأبي جعفر الطحاوي، ١١٠-١١١ طبعة دمشق.

جار أو فسق لا ينعزل عند أصحاب أبي حنيفة بأجمعهم، وهو المذهب المرضي... ثم قال: وجه قول عامة أهل السنة والجماعة، إجماع الأمة، فإتّهم رأوا الفساق أئمة، فإن أكثر الصحابة كانوا يرون بني أمية وهم بنو مروان حتى كانوا يصلّون الجمعة والجماعة خلفهم، ويرون قضايهم نافذة، وكذا الصحابة والتابعون وكذا من بعدهم يرون خلافة بني عباس وأكثرهم كانوا فساقاً. ولأن القول بانعزال الأئمة بالفسق، إيقاع الفساد في العالم»^(١).

ثالثاً: قال الإمام أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي (المتوفى عام ٤٠٣ هـ): إن قال قائل: ما الذي يوجب خلع الإمام عندكم؟ قيل له: يوجب ذلك أمور منها: كفر بعد إيمان، ومنها تركه الصلاة والدعاء، ومنها عند كثير من الناس فسقه وظلمه بغصب الأموال وضرب الأبرار وتناول النفوس المحرمة، وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود. وقال الجمهور من أهل الإثبات وأصحاب الحديث: لا يخلع بهذه الأمور ولا يجب الخروج عليه بل يجب وعظه وتخويله وترك طاعته في شيء مما يدعو إليه من معاصي الله، إذ احتجوا في ذلك بأخبار كثيرة متضافرة عن النبي ﷺ، وعن الصحابة في وجوب طاعة الأئمة وإن جاروا واستأثروا بالأموال، وأنه قال ﷺ: واسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع، ولو لعبد حبشي، وصلّوا وراء كلّ بز وفاجر.

وروي أنه قال: وإن أكلوا مالك وضربوا ظهرك، وأطيعوهم ما

(١) أصول الدين للإمام البزودي: ١٩٠ - ١٩٢ طبعة القاهرة.

أقاموا الصلاة»^(١).

وابعاً: قال الشيخ نجم الدين أبو حفص عمر بن محمد التنسفي (المتوفى عام ٥٣٧ هـ): لا ينمزل الإمام بالفسق والجور، وتجوز الصلاة خلف كل يز وفاجر.

وعلل ذلك التفتازاني بقوله: لأنه قد ظهر الفسق واشتهر الجور من الأئمة والأمرء بعد الخلفاء الراشدين، والسلف كانوا يتقادون لهم وقيمون الجمع والأعياد بإذنهم ولا يرون الخروج عليهم^(٢).

لهذا المستوى أنزل مقام القيادة في الإسلام، وجعلوه لكل من هب ودب، ولكل من استطاع الغلبة بأي وسيلة ولأي هدف، وبهذا أفرغ الإسلام من محتواه الفاعل والمؤثر في الحياة، لأن القيادة ذات موقع متقدم في الإسلام، ومن الأسس التي تقوم عليها الرسالة، ولذلك قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَةَ اللَّهِ يَعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾^(٣).

فالخطاب الإلهي جعل قضية القيادة وإهمالها يعادل عدم تبليغ الرسالة، فكان الله تعالى يقول لرسول الله ﷺ: إذا لم تجعل للأمة قائداً بعدك بمستوى الرسالة وقضاياها الفاعلية والموضوعية، وعلى مستوى عالٍ من الانحلاص للمبادئ والأهداف الرسالية، فكأنك لم تبلغ ولم تفعل شيئاً؛ لأن الإمامة حركة الرسالة في الحياة، وأراد الله للرسالة أن تكون

(١) التمهيد، للباقلاني: ١٨٦ طبعة القاهرة.

(٢) شرح العقائد النسفية، للتنسفي: ٤٨٨.

(٣) المائدة: ٦٧.

حاكمة على الفكر والسلوك والعواطف لتقويمها وتفعيلها ضمن الدائرة الإيجابية لحياة الإنسان، والقيادة تحمي المسيرة من الزلل والانحراف، والقيادة الأمينة هي التي تحمل فكر وهموم وقضايا الأمة، ولا يليق برسالة العدل الألهي أن تجعل لأهل الفسوق والجور والظلم، مقام الإمامة.

البدائل الأموية:

كان يتحرك معاوية بخطى حثيثة لوضع مثل أعلى للمسلمين مغاير للمثل الأعلى الذي دعا إليه الرسول ﷺ وجشده بسلوكه ونشاطاته الخاصة والعامة والذي يتمثل بالإسلام وقيمه ومبادئه، فكان يسعى بجد وفعالية ونشاط وساعياً من أجل أن يجعل لكل شيء من الإسلام بديلاً من الجاهلية بعد أن يخلع عليه الظاهر الإسلامي. وسندكر بعض هذه النماذج:

١- الشخصية النموذجية:

أبوسفيان كان الأكرم من بين جميع الشخصيات الإسلامية، إلا ما وصل الله لنبيه، ولذلك كان يقول: «إن لي فضائل كثيرة، وكان أبي سيداً في الجاهلية وصرت ملكاً في الإسلام»^(١)

وقال معاوية مرة أخرى: «وقد عرفت قريش أن أباسفيان كان أكرمها، وابن أكرمها، إلا ما جعل الله لنبيه ﷺ فإنه انتخبه وأكرمته، وإني لأظن أن أباسفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازماً.

(١) البداية والنهاية ٨، ٩.

فقال له صعصعة بن صوحان: قد كذبت وقد ولدهم خير من أبي سفيان، من خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا له، وكان فيهم البر والفاجر والأحمق والكتيس»^(١).

٢. المجتمع النموذجي:

في مقابل اهتمام الرسول ﷺ بأهل المدينة المنورة التي احتضنت الإسلام ونبي الإسلام وأصحابه المهاجرين، وكان فيها كثير من الصحابة الذين اشتركوا ببدر وأحد والمواقع الأخرى، اكتسبت المدينة أهمية خاصة، وللمدينة وأهلها موقع خاص في نفوس المسلمين لأنها وصية الرسول ﷺ، وأهلها أنصار الرسول ﷺ.

إلا أن معاوية لا يحمل ذكريات طيبة عن المدينة، ولم يترك صورة حسنة في أذهان أهل المدينة، ثم الأهم أنه لا يستطيع أن يمزج أفكاره ولا يحقق آماله من خلال الأنصار الذين كان مع الإمام علي (ع) أغلبهم. وجاءت الأحاديث الكثيرة في شرف المدينة المنورة؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «المدينة حرم ما بين غيري إلى ثور؛ فمن أحدث فيها حدثاً، أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

وقال ﷺ: «الصلاة في مسجدي تعادل ألف صلاة في غيره، إلا المسجد الحرام فإنه أفضل منه».

«من مات في المدينة بعثه الله في الآمين يوم القيامة».

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٣٤ - ٣٥.

وقال الإمام علي عليه السلام: «المدينة حرم الله وحرم رسوله»^(١).

مع هذه السابقة والمقام العظيم، إلا أنه لا يخدم ملك معاوية، بل يعتبر شتيمة له ولآبائه وحزبه، ولذلك حاول إظهار أهل الشام على أنهم الصفوة المختارة من المسلمين، وأنهم مبعث فخر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمجتمع الإسلامي النموذجي الذي يسعى الإسلام لتحقيقه؛ ولهذا جاء عن معاوية بشأن أهل الشام: «إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام، الذابين عن بيعته التاركين لمحارمه، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق المنتهكين المحارم والمحللين ما حرم الله والمحزمين ما أحل الله»^(٢).

وكانت بيعة أهل المدينة تتحقق بها الخلافة لمن كسبها، والأمصار الأخرى تبع لهم إلا أن معاوية بدّل ذلك وقال: وإنما كان الحجازيون هم الحكماء على الناس والحق فيهم، فلما فارقه كان الحكماء على الناس أهل الشام»^(٣).

فكان معاوية بحاجة إلى مجتمع خاضع لإرادته قادر على تحقيق أمنياته، وهكذا مجتمع بحاجة إلى تربية خاصة ومفاهيم خاصة تنسجم مع الأهداف الأموية؛ ولذلك كان إسلام أهل الشام على أيدي بني أمية، وعملية التربية والتعليم كذلك، ولم يسمح لغيرهم الإقامة في الشام إلا من كان يتطابق مع الأمويين فكراً وسلوكاً، فأهل الشام لا يعرفون من المسلمين غير معاوية ومن يرتبط به، وبهذا كوّن مجتمع يقول عنه

(١) روضة الواعظين ٢: ٤٠٨ - ٤١٠.

(٢) مروج الذهب ٢: ٥٠.

(٣) البيان والتبيين ٢: ١١٥.

معاوية: «وقد كنت في أصلح جند وأطوعه» وقال: «وكنت في أطوع جند وأقله خلافاً»^(١).

وقد شخّص الإمام علي عليه السلام علة الانقياد المطلق لمعاوية بقوله: «ألا وإن معاوية قاد لمة من الغراة، وعس عليهم الخبر حتى جعلوا نحورهم أغراض المنيّة»^(٢).

فأهل الشام نتيجة لسياسة معاوية وإخفائه الحقائق عنهم وحصر مجتمعهم، وعدم السماع لغيرهم إلى اشتراك معهم أو اختلاطهم بغيرهم بقوا مجتمعاً غير منفتح على المعارف الإسلامية، ويجهل الشخصيات الإسلامية إلا معاوية وأباسفيان.

وقد ذكر المسعودي: أنه عندما «نزل عبد الله بن علي الشام، ووجه إلى أبي العباس السفاح أسيافاً من أهل أرباب النعم والرياسة من سائر أجناد الشام، فحلفوا لأبي العباس السفاح أنهم ما علموا الرسول الله ﷺ قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى وليتم الخلافة»^(٣).

فمعاوية يريد للمجتمع أن يكون بهذا المستوى من الوعي أو أقل، لأنه في كلام آخر له يقول: ابلغ علياً أنني أقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقه والجمل»^(٤).

وهذا المستوى لا يمكن أن يحصل في مكان آخر؛ لأن الصحابة أين

(١)

(٢) نهج البلاغة: ٨٩.

(٣) مروج الذهب، المسعودي، ٢: ٣٩ - ٤١.

(٤) المصدر السابق.

ما حلوا كانوا ينشرون الوعي الديني والأحكام الإسلامية، ويذكرون التاريخ الإسلامي لأنهم جزء منه، ومعاوية لا يذكر ذلك لأنه جزء من الجبهة المواجهة للإسلام، ولا يسمح لأحد من الصحابة الإقامة في الشام إلا لمن هو على شاكلته؛ ولهذا أصبح المجتمع الشامي نموذجياً في نظر معاوية وبني أمية ودعا الأمصار الأخرى بالافتداء به .

٣- النظام السياسي:

يقوم التعامل السياسي في الإسلام على ركيزتين وهما:

أ- الحق.

ب- العدل.

وهما ضابطتان تحكمان على كل المسائل المتعلقة بالحكم، إلا أنهما لم يسلمتا من التغيير والتحريف؛ ولهذا وضعت مبادئ أخرى تتوافق مع الأطماع الأموية:

١- مصلحة السلطة

ب- مصلحة السلطان

وقامت على هذا الأساس الحكومة الأموية بتغيير جذري لأصول الإسلام:

أولاً: الخلافة

وهي تمثل القيادة بعد الرسول ﷺ والأساس في الإسلام؛ ولذلك جعلها الله تعالى شرط قبول تبليغ الرسالة وكمالها كما في قوله تعالى: ﴿يَا

أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴿١﴾ .

وقوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ (٢) .

ولذلك وضعت لها شروط كثيرة وهي لا تصالح لكل شخص، وقد قال تعالى لإبراهيم عندما جعله إماماً: ﴿إني جاعلك للناس إماماً، قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ (٣) .

أما معاوية فقد جعل الخلافة مجردة من أي شرط للصالح والإعان والسابقة والعلم، واكتفى بالسيطرة بالسيف، وقد خاطب أهل المدينة بقوله: «والله وليت أمركم، حين توليته، وإذ أعلم أنكم لا تُسزّون بولايتي ولا تحبونها، وإني لعالم بما في نفوسكم من ذلك، ولكنتي خالستكم بسيفي هذا مخالسة» (٤) .

وقام معاوية مخاطباً أهل الكوفة بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام: «ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا وقد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأنأمر عليكم، فقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون» (٥) .

وقال: «إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا

(١) المائدة: ٦٧.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) البقرة: ١٢٤.

(٤) البداية والنهاية، ابن كثير، ٨: ١٣٢.

(٥) المصدر السابق ٨: ١٣٤.

وبين ملكنا»^(١).

فهو بهذا ألغى الشورى وبيعة أهل الحل والعقد من الصحابة حتى على المستوى الظاهري، واستبدلها بالسيف والاضطهاد ثم بولاية العهد التي لم يسبقه بها سابق في الإسلام.

وقد انتقد هذه الطريقة في الوصول إلى السلطة سعد بن أبي وقاص؛ فقال لمعاوية: السلام عليك أيتها الملك، فضحك معاوية وقال: ما كان عليك يا أبا إسحاق لو قلت: يا أمير المؤمنين؟ فقال: أتقولها جذلان ضاحكاً؟ والله ما أحب أني وليتها بما وليتها به»^(٢).

ثانياً: البيعة

البيعة عهد وميثاق على الطاعة. يؤديها أشراف المجتمع على المسائل المهمة والرئيسية التي لها أثر على الحياة العامة، وتؤدي عن وعي وإدراك واختيار ورضا بالأمر الذي تتم عليه البيعة، ويشترط مؤدو البيعة أو المبايع له بعض الشروط، والمسلمون غالباً ما يشترطون العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأضاف بعضهم «سيرة الشيخين» إلا أن خلفاء بني أمية كانوا يريدون البيعة فقط، وإذا وضع شرط لا يفون به، وسيرة عثمان بن عفان نموذج لذلك، وقد أذى عمله خلاف الشروط إلى قتله وفتح باب الفتنة.

ومعاوية إضافة إلى عدم الوفاء بالعهد كان يأخذ البيعة بالإكراه والقوة. وذكر اليعقوبي طريقة مبايعة أهل الكوفة بالعبارات التالية:

(١) مروج الذهب، المسعودي ٣: ٣٥٨.

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ٣: ٢٧٥.

«وأحضر الناس لبيعته، وكان الرجل يحضر فيقول: والله يا معاوية إني لأبايعك وإنني لكاره لك، فيقول: بايع، فإن الله قد جعل في المكروه خيراً كثيراً، وبأبي الآخر فيقول: أعوذ بالله من شر نفسك»^(١).

أما يزيد بن معاوية فقد تقدم أكثر من سابقه، وطلب من أبناء المهاجرين والأنصار على أن يبايعوا بأنهم عبيد ليزيد عندما قتل يزيد من أهل المدينة «خلقاً من الصحابة (رضي الله عنهم) ومن غيرهم، ونهبت المدينة وأفتض فيها ألف عذراء»^(٢).

«دعا مسلم الناس إلى البيعة ليزيد على أنهم خول له، يحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم ما شاء»^(٣).

فكان الرجل من قريش يؤتى به فيقال: بايع آية أنك عبد قن ليزيد^(٤) فيقول: «نبايعك على كتاب الله وستة رسوله، فيضرب أعناقهم»^(٥).

٤. النظام الاقتصادي:

لم يتقيد خلفاء بني أمية بضابطة أو نظام اقتصادي سوى قاعدة واحدة وهي: الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما آخذ من مال الله فهو لي وما تركت منه كان جائزاً لي»^(٦).

(١) تاريخ البعقوبي ٢: ٢١٦.

(٢) تاريخ الخلفاء، للسيوطي: ٢٠٩.

(٣) الكامل في التاريخ ٣: ٤٦٠.

(٤) تاريخ البعقوبي ٢: ٢٥١.

(٥) الكامل في التاريخ ٣: ٤٦٠.

(٦) مروج الذهب ٣: ٥٣.

٥- المشروع الثقافي:

المشروع الأموي الثقافي يتلخص بالنقاط التالية:

أ- بغض آل البيت عليهم السلام وسبهم ولعنهم على المنابر، ومطاردة محبيهم وتصفيتهم جسدياً ومنعهم العطاء.

ب- فضائل الخلفاء ونشرها مقابل فضائل الأئمة من أهل البيت عليهم السلام.

ج- إثارة عقيدة المرجئة والجبرية وتبنيها والدعوة لها.

د- التزام الخلفاء خطّ الفجور والفسق وشرب الخمر ونشره في المجتمع، وقد ذكر ذلك ابن عبد ربّه بقوله: يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب، وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعل من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي، وأظهر الناس شرب الشراب»^(١)
فبناءً على ما تقدم فقد نقض بنو أمية كلّ ما يرتبط بالنظرية السياسية في الإسلام.

أولاً: استبدل التعيين الإلهي للإمام بالغلبة بالسيف والسيطرة بالجور والظلم، وإن سبقه غيره إلا أنّ إمكان إصلاح الأمور متحقق لولا هم.

ثانياً: إحلال الهوى والرغبة والذوق الشخصي محل الشرع الإلهي المقدس، ولم يسبقهم أحد بالتجرؤ على الإسلام.

ثالثاً: عدم التعهد بالعمل بالكتاب والسنة في إدارة الدولة.

رابعاً: عدم الالتزام الشخصي بالقيم والقوانين الإسلامية.

(١) العقد الفرید ٣: ٨٣

خامساً: إلغاء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإرهاب وقتل العاملين بها.

سادساً: جعل الحكومة الإسلامية وراثية.

سابعاً: التجاوز على المقدسات الإسلامية وانتهاك الحرمات.

ثامناً: إشاعة الفحشاء والمنكر ابتداء من مؤسسات الدولة ثم عامة المجتمع.

وقد تبين أن المنهج الأموي إفرازات من تاريخهم العدائي للإسلام، وأوضح دليل على ذلك موقفهم الفكري والمعملي من الإسلام عقيدة ونظاماً وعاطفة، ولقد تهيأت لهم فرصة لا يخشون فيها أحد، فأظهروا كوامن عقولهم ونفوسهم وعواطفهم بشكل لا يعتذرون منه ولا يستحون، وقد امتلأت كتب التواريخ بأخبارهم وفجورهم.

الحكم الأموي خارج عن الإسلام:

لم يبق الأمويون عروة من الإسلام إلا نقضوها ولم يتركوا محرماً إلا ارتكبه، ابتداء من معاوية وانتهاء بآخر خليفة لهم.

فعلى مستوى الخلافة الإسلامية التي تعتبر أعلى منصب ومقام في الدولة الإسلامية بذلوا الشرائط التي ينبغي أن تتوفر في الخليفة من شرائط علم وتقوى وعمل بالكتاب والسنة إلى ملك وراثي، يأتي الأبناء بعد الآباء، لا يمتلكون مؤهلاً سوى أنهم أبناء الخليفة السابق.

ثم إنهم قدموا نظرياتهم في الحكومة على المستوى النظري

والعملي؛ فكانت جميعها تناقضاً مع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

وقد تقدم ذكر بعض الخروج عن الشريعة الإسلامية، والتبديل الذي حصل في الحكومة الأموية.

والأنمة ﷺ كانوا يراقبون الأمور بجديّة ودقّة، وينظرون إلى ما تؤذي إليه وما تساهم به أفعالهم ونشاطاتهم خلق أجواء انحراف عن الإسلام؛ ولهذا كان يقول الإمام عليّ ﷺ في أمر معاوية: ولقد أهمني هذا الأمر وأسهرني، وضربت أنفه وعينه فلم أجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ، إن الله تبارك وتعالى لم يرض من أوليائه أن يعصى في الأرض وهم سكوت، مذعنون لا يأمرّون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فوجدت القتال أهون عليّ من معالجة الأغلال في جهنم. (١)

وجاء في رسالة الإمام الحسين ﷺ التي كانت جواباً على رسالة بعثها معاوية:

«ما أردت حرباً ولا خلافاً، وإني لأخشى الله في ترك ذلك، منك ومن حزبك القاسطين المحلّين، حزب الظالم وأعوان الشيطان الرجيم، ألس قاتل حجر وأصحابه العابدين المخبتين، الذين كانوا يستظفون البدع، ويأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر؟ فقتلتهم ظلماً وعدواناً، من بعد ما أعطيتهم الموائيق الفليضة، والعهود المؤكدة، جراءة على الله واستخفافاً بعهده، أو لست قاتل عمرو بن الحمق، الذي

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم: ٤٧٤ - ٤٧٥.

أخلفت وأبليت وجهه العبادة؟ فقتله من بعد ما أعطيته من العهد ما لو فهمته العصم نزلت من شعف الجبال، أو لست المدعي زياداً في الإسلام، فزعمت أنه ابن أبي مفيان؟ وقد قضى رسول الله ﷺ أن الولد للفراش وللعاهر الحجر، ثم سلطته على أهل الإسلام، يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم على جذوع النخل، سبحان الله يا معاوية! كأنك لست من هذه الأمة وليسوا منك، أو لست قاتل الحضرمي الذي كتب إليك فيه زياد أنه علي بن علي بن علي، ودين علي بن علي هو دين ابن عمه ﷺ الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه؟ وإني لا أعلم لها (الأئمة) فتنة أعظم من إمارتك عليها، وإني والله ما أعرف أفضل من جهادك، فإن أفعل فإنه قرية إلى ربي، وإن لم أفعله فاستغفر الله لذيبي»^(١).

وقال الإمام الحسين ﷺ في آخر زيارة له لجده رسول الله ﷺ: «لقد خرجت من جوارك كرهاً، وفرت بيني وبينك وأخذت قهراً، أن أبايع يزيد شارب الخمر وراكب الفجور، وإن فعلت كفرت، وإن أبيت قتلت»^(٢).

الإمام علي بن أبي طالب يحذر من الأمويين:

أدرك الإمام علي بن أبي طالب خطورة بني أمية على الإسلام وذلك لتأريخهم المعادي للإسلام أولاً، ولمواقفهم المخالفة للإسلام إبان حكومة عثمان ثانياً، ولوصايا الرسول ﷺ المتكررة على إبعادهم عن مراكز القوة ثلثاً، لأنهم عدو دخل الإسلام وخضع للأمر الواقع بخسارة المعركة؛ حيث لم

(١) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة: ١٨٠ - ١٨١.

(٢) مقتل الحسين، أبي مخنف: ٥٠.

يسلموا إلا بعد أن فتحت مكة، ودخلها الرسول ﷺ بقوة عسكرية لا طاقة لأبي سفيان وأعوانه بها.

إضافة إلى ذلك أن هذا العدو لم يكن من جنس الذي يحمل أفكاراً على المستوى الفردي، وإنما كانت له القدرة على تعبئة حلفائه الذين يشتركون معه في الأهداف والمنطلقات، وفعلاً تحققت التحذيرات بعد ذلك.

نماذج من تحذيرات أمير المؤمنين علي عليه السلام:

١ - «ألا وإن أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية، فإنها فتنة عمياء مظلمة، عمت خطتها وخصت بليتها؛ وأبم الله لتجدن بني أمية لكم أرباب سوء بعدي، كالناب الضروس، تعذب فيها، وتخيظ يدها، وتزين رجلها، وتمنع ذرها، لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعاً لهم أو غير ضائر بهم، ولا يزال بلاؤهم عنكم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كان نصار العبد من ربه»^(١).

٢ - قال الإمام علي عليه السلام يصف مستقبل ظلم بني أمية بقوله: «والله لا يزالون حتى لا تدعوا لله محزماً إلا استحلوه، ولا عقداً إلا حلوه، وحتى لا يبقى بيت مذر ولا وبر إلا دخله ظلمهم، ونباه سوء رعيهم وحتى يقوم الباكبان يبكيان، بالبك يبكي لدينه، وبالبك يبكي لذيائه وحتى تكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده إذا شهد أطاعته، وإذا غاب اغتابه حتى يكون أعظمكم فيها عناء أحسنكم بالله ظناً»^(٢).

(١) نهج البلاغة، خطبة ٩٣.

(٢) نهج البلاغة، خطبة ٩٨.

٣- الإمام علي عليه السلام يصف معاوية ورايته بقوله: «راية ضلال قد قامت على قطبها، وتفرقت بشعبها، تُكَلِّمُكم بضاعها وتخطكم بباعها، فائدها خارج من الملة، قائم على الضلة»^(١).

مسؤولية الإمام الحسين عليه السلام:

تحرك الإمام الحسين عليه السلام من موقع المسؤولية في الدفاع عن الدين عندما تعرّض إلى التهديد، وبدأت المعاول الأموية تضرب قواعد الإسلام لتهدم كل ما بناه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وتذهب بكل الجهود المؤمنة التي بُذلت بهذا الطريق.

والإمام الحسين عليه السلام إمام المسلمين ومعتمدتهم، وهو يرى مسيرة الانحراف الأموية ومحاولاتها لجز الدين إلى اتجاهات جاهلية بعيدة عن أهداف الإسلام وغاياته الكبرى.

والإمام الحسين عليه السلام إضافة إلى اعتقاد الأمة بأنه الأصلح لمقام الخلافة، فهو الإمام الشرعي بالنص والانتخاب الإلهي له، وقد حمل الإسلام الإمام مسؤولية كبيرة، وأوكل له مهمات خاصة تتناسب ومؤهلاته وملكاته لا يقدر على أدائها غيره.

فأوجب عليه السهر على مصالح المسلمين ورعاية شؤونهم الدينية والدنيوية، والدفاع - بشكل يتناسب مع الظروف الموضوعية - عن الإسلام شريعة وعقيدة وأمة.

(١) المصدر السابق: خطبة ٨-١.

وأناط بالإمام مسؤولية العمل على تطوير وتنحية الحياة الفكرية والمعنوية والسلوكية، وإرشادهم إلى الخير والصلاح والإشراف على التجربة الإسلامية نظرياً وعملياً، وقيادة الحركة الاجتماعية، وهداية الناس باتجاه الله تعالى، ومدة المجتمع الإسلامي بالأحكام الشرعية للوقائع الجديدة التي تواجه المسلمين في حياتهم بجوانبها المختلفة وحراسة الإسلام وحفظ الدين من التحريف والتزوير، ومن المستهترين بالقيم والأخلاق الإسلامية.

والحفاظ على أمن البلاد الإسلامية؛ ليعيش الناس آمنين على أنفسهم وأموالهم. ونشر الإسلام والدعوة إليه لإخراج الناس عن الشرك والكفر إلى التوحيد والإيمان. وغيرها من المسائل المتعلقة بإدارة الدولة وكانت نهضة الإمام الحسين عليه السلام وفق هذه الوظائف والمسؤوليات تتحرك وتسعى لتحقيقها، لكن المسألة الأهم في ذلك الوقت الحفاظ على الشريعة الإسلامية من التحريف، والأمة الإسلامية من الضلال والإضلال التي تعمدت السلطة آن ذاك إلى اتخاذها هدفاً لنشاطها وحركتها الإعلامية والثقافية.

فتحرك الإمام وأعلن عن موقفه من الأحداث، ومن الحكومة بشكل قادر على إيقاف حركة التحريف للدين، وبعث روح الإصلاح والمواجهة في المجتمع، ومنع المجتمع من الحركة التراجعية التي رسم الحكام لهم طريقها ومنهجها. فاستهدف الوجدان الديني عند المجتمع الإسلامي على جميع مستوياته ومختلف طبقاته واتجاهاته، فقصده إثارة وإيقاظه

وتوجيهه نحو مواضع الخطر والتهديد، ليكون أمام مسؤولياته الشرعية، وليخلق بيئة فعالة ومؤثرة في الواقع الاجتماعي.

الحسين عليه السلام باتجاه الإصلاح:

كشف الإمام الحسين عليه السلام عن حقيقة الانحراف وطبيعته، وأظهر المبادئ البعيدة بينه وبين الشريعة الإسلامية التي أرادها الله لعباده، وكون رؤية عن المبادئ والقيم الأصلية، والاتجاهات التي تتحرك المسارات المنحرفة نحوها، والتي اتخذت من الإسلام غطاءً لنشاطاتها، وبين مفرداتها الفكرية التي تشترك في انتمائها إلى الدائرة السلبية من النشاط الفكري في مواقع عبادة الهوى.

فنقض الأسس التي تقوم عليها كفى تفاصيل النظرية التي استحدثها وابتدعها حكام الجور بصوت سمعته الإنسانية، وبقي صدها يقرع مسامعها على مدى الحياة وتعاقب القرون، ويشكل لا يمكن لقوى الظلم من كتمانها ومنع انتشاره، وزاد ذلك انتشاراً وحركة طريقة التشغي من النبي صلى الله عليه وآله وعترته عليه السلام عندما داروا برأسه ورؤوس أصحابه في أغلب الأمصار تنكياً بالدين وبالأحرار من المسلمين، فبلغ رسالته إماماً قائماً بالقسط داعياً إلى الله والإصلاح، مجاهداً في سبيل ذلك حتى الشهادة، وشهيداً رأسه على الرماح يُطاف به في البلدان وهو ابن النبي محمد صلى الله عليه وآله، وهو الذي قال فيه جده محمد صلى الله عليه وآله: حسين مني وأنا من حسين، أحب الله

من أحبّ حسيناً، حسين سبط من الأسباط»^(١).

وهو أحد أصحاب الكساء من أهل البيت عليه السلام الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٢).

فكان موقف الإمام عليه السلام كاشفاً عن عقلية أهل الوحي، وفي المقابل كانت عقلية الجاهلية، التي هاجمها الإمام عليه السلام، وكشف خطر الفكر والسلوك الأموي على المنهج الإسلامي؛ فكانت ثورته عليه السلام الأولى في شكلها وطريقة تحديدها، وأنها أوضح وأبلغ خطاب كاشف عن مدى الانحراف في الاتجاه الذي لا يمكن السكوت معه، وأظهرت ما وصلت إليه الأمة من مستويات متدنية من جزاء الخضوع والاستسلام للانحراف والجبروت، لقد افتقدت الأمة الإرادة والقدرة على اتخاذ الموقف، ولهذا استطاع الجائرون من إخضاعهم لإرادتهم ودفعهم على ارتكاب جريمة قتل أولاد نبيها، مع ما يحفظون من وصايا وأوامر باتباعهم والتمسك بهم.

الإمام الحسين عليه السلام الخليفة الشوعي:

إضافة إلى النصوص النبوية التي تثبت إمامة الحسين عليه السلام نتعرض إلى أحاديثه عليه السلام في هذا المجال ودعوة الناس لنفسه:

١ - قال عليه السلام مخاطباً للكتائب التي كانت مع الحرّ بن يزيد الرياحي: «أما بعد أيها الناس فإنكم إن تقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله، ونحن أهل

(١) التاريخ الكبير، البخاري، ٨: ٤١٥، ٣٥٣٦؛ وسنن الترمذي، ح ٣٧٧٥؛ وسنن ابن ماجه، ح ١٤٤، مسند أحمد، ٤: ١٧٢؛ ومصابيح السنة، ٤: ح ٤٨٢٣.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

التيت أولى بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجرور والعدوان، فإن كرهتمونا وجهلتم حقنا وكان رأيكم غير ما أتني به كتبكم ورسلكم انصرفت عنكم»^(١).

٢ - وفي خطبته الثانية بأصحاب الحرّ قال: «ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وأنا أحق من غيري»^(٢).

٣ - وجاء في كتابه الذي بعث به مسلم بن عقيل: «ولعمري ما الإمام إلّا العامل بالكتاب، القائم بالقسط، الدائن بدين الحق».

معطيات الثورة:

لا يمكن حصر عطاء الثورة الحسينية بنقاط معدودة؛ لأنها أكبر من الزمان والمكان اللذين كانا ظرفاً لها، فهي تجاوزت الزمان والمكان؛ فأصبحت ثورة الإنسان للاعتناق والحزبية، وثورة الإيمان ضد الكفر والوثنية بأشكالها المتعددة، فحصرها تحجيم لها، فنذكر معطياتها لا على سبيل الحصر وإنما على سبيل المناسبة مع الموضوع الذي وقع عليه الاختيار.

١ - إحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي عطّلها الأمويون من خلال دعوته لإقامتها بقوله عليه السلام: «إني لم أخرج أشراً ولا

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ٣: ٨-٤.

(٢) المصدر السابق.

بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر».

ووقف آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر بأشكال مختلفة انتهت الأمر فيها إلى الموقف العسكري المسلح.

٢- التفكيك بين الشرعية الدينية وشرعية القوة.

ليس من يمتلك القوة والغلبة، ويسط يده على المسلمين بالمقومات المادية والقهر، والإعلامية بالمكر والكذب والخداع يمتلك الشرعية، وإنما الإمام الشرعي هو كما يقول الإمام الحسين عليه السلام: «فلمعري ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالعق، والعابس نفسه على ذات الله»^(١).

وقد علم الأمة أن الغلبة لا تمنح حقاً، وأن الفاسق لا تصح له بيعة فنقض الإمام الحسين عليه السلام محاولة تأكيد القناعات الأموية المخطوءة في وعي ووجدان وذاكرة الأمة التي مفادها: أن من تسلط على الناس بأي مفردة من مفردات القهر يستحق الطاعة والانصياع وبالتالي من يخرج عليه فهو خارج على إمام زمانه فيكون في النتيجة خارجاً عن الدين.

وأثبت ضرورة القيام ضد الحاكم الظالم بقوله: «أيتها الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من رأى سلطاناً جائراً مستعلاً لحرام الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير ما عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله، ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء وأحسوا

(١) مقتل الحسين عليه السلام، المرقوم: ١٦٥، الكامل في التاريخ ٣: ٣٨٦.

حرام الله وحرموا حلاله»^(١) وهذه مبررات القيام ضد الحكام.

٣- أعطى بحركته التعريف الصحيح للجماعة التي تستر خلفها طغاة بني أمية، فالجماعة هي التي يكون الحق والإمام العادل محوراً لها، ولا قيمة لجماعة تتحد على الباطل والظلم والمعصية، والأخيرة أكثر خطورة من التفرق عن الباطل.

٤- بعث روح الثورة والجرأة والغيرة على الدين في نفوس المسلمين بالدفاع ببسالة عن الإسلام العزيز، فكانت نهضة الإمام الحسين عليه السلام مدرسة لجميع الحركات التي جاءت بعدها في تاريخ الإسلام.

٥- إيجاد خطأ أصيل يتبنى الحسين عليه السلام فكراً ومنهجاً وعاطفة يمثل الأمة الوسط، الأمرة بالمعروف والناهية عن المنكر، تكون حجة على غيرها بولائها وحركتها الثورية، فخلقت ثورة كربلاء جمهوراً حسيانياً يتحرك في كل زمان ومكان؛ ليضع لنا أكثر من كربلاء وأكثر من ثورة، وكلها وليدة النهضة الأم نهضة الحسين عليه السلام.

٦- كشف حقيقة المبادئ التي يؤمن بها الأمويون، وأنهم ليسوا رداء الإسلام ليمكروا به، ولذلك فهم لا التزام ولا إيمان ولا عهد لهم، ولا يمنعهم شيء من ارتكاب أي جريمة وانتهاك كل حرمة.

٧- إن النصر انتصار المبادئ والقيم التي يؤمن بها المرء، لا السيطرة على أوسع مساحة أرضية؛ ولذلك انتصر الحسين عليه السلام لأنه انتصرت مبادئه وقيمه، واندحرت مبادئ الطغاة الذين قتلوه وأصبحوا لعنة للأجيال.

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٤٠٨.

فكان للحسين ﷺ خلود ومدرسة في المقاومة، ولأعدائه اللعنة والعذاب.
 ٨ - الانصياع للطغاة لا يحقق أي هدف إلا الذل والهوان وانتهاك
 المقدسات، ثم لا يرضى الحكام إلا بالطاعة التي لا تقف عند حدود؛ فمن
 أطاع في المسائل الصغيرة سيقوض حتى يرتكب الجرائم الكبيرة.

المصادر

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- نهج البلاغة.
- ٣- بحار الأنوار، المجلسي.
- ٤- مروج الذهب، المسعودي.
- ٥- تاريخ اليعقوبي، ابن واضح الأخباري.
- ٦- تاريخ الخلفاء، السيوطي.
- ٧- البداية والنهاية، ابن كثير.
- ٨- السيرة النبوية، ابن هشام.
- ٩- المغازي، الواقدي.
- ١٠- الكامل في التاريخ، ابن أثير.
- ١١- تذكرة الخواص، سبط بن الجوزي.
- ١٢- شرح النهج، المعتزلي.
- ١٣- أنساب الأشراف، البلاذري.
- ١٤- وقعة صفين، نصر بن مزاحم.
- ١٥- صحيح مسلم.
- ١٦- صحيح البخاري.
- ١٧- سنن الترمذي.
- ١٨- مسند أحمد.
- ١٩- مصابيح السنة.

- ٢٠- كنز العمال.
- ٢١- الكامل في اللغة والأدب، المبرد.
- ٢٢- العقد الفريد، ابن ربه.
- ٢٣- روضة الواعظين.
- ٢٤- الإمامة والسياسة، ابن قتيبة.
- ٢٥- مقتل الحسين عليه السلام، لأبي مخنف.
- ٢٦- مقتل الحسين عليه السلام، المقدم.
- ٢٧- التاريخ الكبير، البخاري.
- ٢٨- شرح العقيدة الطحاوية، لأبي جعفر الطحاوي.
- ٢٩- أصول الدين، الإمام الهزودي.
- ٣٠- التمهيد، الباقلاني.
- ٣١- شرح العقائد النسفية، النسفي.



الإمام الحسين عليه السلام في مواجهة الانحراف

سعد متعب

المجمع العالمي لأهل البيت: قم المقدسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة:

لا شك أن رسالة الإسلام أعظم وأكمل الرسالات الإلهية التي بعث الله بها خير خلقه على الإطلاق، وكانت أحد أهدافها الرئيسية إقامة العدل ومواجهة الظلم بكل أنواعه واتجاهاته. ليهنأ الإنسان ويعيش بكرامة، وتتوفر له فرصة التحرك في مدارج الكمال.

ولم تكن هذه المسألة خطاباً أو شعاراً استهلاكياً للحصول على أكثر أنصاره، وإنما هي استراتيجية الإسلام في حركته نحو سعادة الإنسانية وإدارة الحياة وتنظيم الحقوق، وقد كان كتاب الله صريحاً في هذا المجال والحديث والسلوك النبوي نموذجاً تطبيقياً لما جاء به الوحي.

والإمامة بعد رسول الله ﷺ كانت المنهج الذي يحفظ الإسلام في حركته الفكرية والتطبيقية باتجاه أهداف الإسلام ليمتد إلى كل الأجيال وكل الناس .

إلا أن التحرك غير المسؤول الذي تلى رحلة الرسول ﷺ من بعض الصحابة أدى إلى تغيير الواقع الإسلامي، واتجاه حركة الأمة الإسلامية ونفوذ أعداء الدين، وهذه نقطة بداية المأساة وحلول الكارثة؛ حيث لم

تكتف بالسيطرة على الحكم فحسب وإنما قامت باحتلال موقع النبوة والإمامة، وبدأت تتخبط بشكل أضر بالإسلام فكرياً وعملياً، لالتزام الأجيال التي تكثر بأقوالهم وأفعالهم باعتبارها تمثل الدين وجزء من نصوصه المقدسة، ولم تنتهِ المسألة إلى هذا الحد، وإنما قاموا بعمليات إقصاء للأمس التي يمكن الرجوع إليها لتقويم المسيرة فشملت:

- ١- إقصاء القرآن من الحياة، بتفسيره وفق هوى الحاكم.
- ٢- إقصاء السنة النبوية الشريفة، بمنع تدوينها ومنع المخلصين من الصحابة بنشر الحديث النبوي، وإعطاء المجال واسعاً للدخلاء على الإسلام لنشر أباطيلهم وأكاذيبهم.
- ٣- إقصاء الإمام الشرعي الذي اختاره الله تعالى للأمة بعد الرسول ﷺ.

وفي هذه الأجواء الخائفة فقدت الأمة:

- ١- الكتاب والسنة باعتبارهما المصدرين اللذين تأخذ منهما أحكامها الشرعية.
 - ٢- الإمام المعصوم الذي يمثل الرسالة الإسلامية وعياً وتطبيقاً.
- واختفاء الكتاب والسنة والقيادة المعصومة بأي مستوى وشكل، يساهم بأضرار وخسارات عظيمة على الأمة يصعب جبرأتها منها:
- أ- ضياع التفسير الصحيح للإسلام في أجواء الضجيج وكثرة الاجتهادات.

ب - فقدان الأمة للقُدوة الصالحة، لما كان الرسول مع الأمة فهو القدوة والأسوة، ولما اختاره الله إلى الرفيق الأعلى فحاجة الأمة إلى القدوة - بأجيالها المتعاقبة - لم تنتهِ .

ج - الانقسام إلى اتجاهات ومذاهب كثيرة تختلف في قراءتها للإسلام.

د - إيجاد فرصة لنفوذ أعداء الإسلام التقليديين للانتقام من الإسلام والمسلمين.

هـ - خسارة الإنسانية للمشروع الإلهي للإنقاذ على جميع المستويات. وفي هذه الأجواء والظروف التي حذفت فيها المصادر الفكرية والتطبيقية استحدثت وتولدت معطيات غريبة لا تنسجم مع روح الإسلام، ساهمت في تغيير الحقائق والمعايير، وألبس الإسلام ثوب الجاهلية بعد ما أفرغ من محتواه إلا بالمقدار الذي يقوم السلطة الحاكمة ويمكنها من رقاب المجتمع.

وانتهى الأمر إلى اجتهادات فردية ارتجالية حلت مكان الأحكام الإسلامية، والتي كوّنت فيما بعد المدارس الفقهية التي خلطت جزءاً من السنة مع تلك الآراء فأنتجت فقه الأحكام الذي لا يستفي إلا استقرار عروشهم، وكانت من إفرازاته قانون الغلبة والسيف والكثرة، وإقرار حكام الجور والظلمة والطلاقاء وابناء الطلقاء، ورفعوا بذلك جميع الالتزامات المفروضة على الحاكم وذهب ضحية ذلك خيرة أبناء الأمة

ورجالاتها المخلصين. واستولى على الحكم الإسلامي أصحاب المواقف المخزية من الإسلام ورسول الكريم ﷺ أمثال بني أمية، وهؤلاء جعلوا من أنفسهم الممثلين لتفسير الإسلام وطرح نظريته، وأعلنوا العداء والحرب لآل بيت النبي ﷺ، وللصحابة الذين لا يرتضون سلوكهم المنحرف، مع كل ذلك اعتبروا الخروج عليهم خروجاً على الإسلام والجماعة وشق عصا الطاعة، وأحياناً يتهم المخالف لهم بالزندقة والكفر. فالمسألة لم تنته بالسيطرة على السلطة، وإنما تهدر وجود الإسلام كدين للإنسانية يريد انقاذها، فإذا استمر الحال على هذا المتوال فلم يبق عنه بنو أمية شيئاً يذكر.

ففى هذه الأجواء وهذه النشاطات الجادة لمحو الإسلام كانت حركة الإمام الحسين عليه السلام باتجاه الفكر لتحريك الوعي العام، وباتجاه الدين ونحو الإمامة والخلافة ليحتل الأمة مسؤوليتها فيما يحدث، لأن الأسلوب الأموي في السياسة والحكم، استطاع ان يجعل دور الأمة هامشياً وتابعاً لإرادتهم، وألفت ذلك الجماهير المسلمة التي عاشت تحت ظل السلطة الأموية وسيفها القاهر.

ونتيجة للإرهاب الذي تعرضت له الأمة من الأمويين أخذت بالانصراف تدريجياً عن مراقبة الحكام والأخذ على أيديهم حين يخطئون.

وبهذا تم إقصاء الأمة عن دورها الأساسي في المراقبة والتوجيه

وممارسة دورها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الأداة العملية لتقويم الانحراف على جميع المستويات، والآلية السلمية في مراحلها الأولية لاسترجاع الحقوق وإيقاف الظالم عند حدوده؛ ومن أجل ذلك جعل الله اللعنة على بني إسرائيل لتركهم هذه الوظيفة بقوله تعالى: لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون^(١).

ولسعة مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يشمل جميع أنواع الإصلاح الفكري والسياسي والاجتماعي كان بيان الإمام الحسين عليه السلام: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر»^(٢).

فكانت ثورته عليه السلام لبناء أمة قادرة على أداء وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحفاظ على جميع المستويات، سائرة على خطى الحسين عليه السلام في أداء هذه الوظيفة متفاعلة مع منهجه وأهدافه تعيش هموم الإسلام، تستمد وتستلهم من حركته روح المقاومة، تفكر بالعطاء، وتحسب الربح والخسارة التي تحصل عليها المبادئ والقيم الإسلامية الرفيعة.

(١) المائدة: ٧٨ - ٧٩

(٢) بحار الأنوار: ٣٢٩/٤٤، مقتل الخواري: ١/ ١٨٨.

الحسين في مواجهة الواقع المنحرف

إقصاء أهل البيت (ع) وأزمات المستقبل:

لقد ساهم التسامح في مسألة الإمامة على رسم نقطة البداية باتجاه لا يلتقي مع الغايات الرسالية، والرسالات السماوية، فكانت بداية الافتراق ونقطة الانطلاق التي رسمها الجهل بعواقب الأفعال ونتائجها باب فتنة، فُتحت ولم تُغلق، ولم تكن هذه النهاية خافية على الواعين من الأمة وإنما كانت واضحة النتائج لكثير منهم، ولكن قصر النظر وتفسير الخلافة على أنها سلطان ومكسب أدى إلى أن يدخل البعض في صراع ومناقسة مع الأئمة الشرعيين من جهة، ومع المنافسين لهم من أمثالهم، وكانت حجتهم على أمثالهم: (من ينازعنا سلطان محمد وميراثه، نحن أولياؤه وعشيرته. إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم، أو متورط في هلكة)^(١).

فلم ينظر إلى الخلافة إلا من جهة كونها سلطة ومقاماً دنيوياً، وهى رؤية هابطة ومتدنية لا تحمل أى بعد حضارى ودينى ورسالى؛ ولهذا كانت ضربيتها على الأمة باهضة جداً، وجبرانها عسير ومأساتها عامة وفسادها واسع وجرحها عميق. وكلفت الأخطاء التي أرتكبت عمداً من البعض بعد وفاة الرسول (ص) جهوداً ودماء وتضحيات، كان موقعها الطبيعي أن توظف في طريق البناء الحضارى وخدمة المجتمع الإنسانى،

(١) الإمامة والسياسة: ٨.

والى يومنا هذا شغل المسلمون بتلك السيرة لإصرار البعض على اتخاذها مبدأً، وفرضها على وعي المسلم والتزاماته باعتبارها المشروع الإسلامي. وقد رأت الأمة الإسلامية الامتدادات أو التفاعلات العملية عبر القرون الماضية وتأثيراتها السلبية في وعي المسلم وعناصر القوة للإسلام، والمشروع الإسلامي في إقامة العدل والفسط ومخاربة الجور والظلم. ومنذ اللحظة الأولى كان موقف أهل البيت عليه السلام واضحاً من هذه المسألة، وذلك لإدراكهم خطورة المصير الذي ستنتهي إليه الأمة، ولذلك كانت تقترن مطالبهم بحقهم في الخلافة، موافقهم من المنهج الانحرافي والتهديد الذي تختلقه التفاعلات والتعقيدات المستقبلية لهذا الأمر، والنهاية الأساسية التي ستعرض لها الأمة. نتيجة تعاطيها وتسامحها مع تلك المواقف غير المبدئية التي كانت تمثل إسقاطات الذات على الواقع الخارجي فصبغت بممارساتها الحياة بصبغتها، فأفرزت أطروحات إنسانية ناقصة تحمل في ثناياها أزمات ومشاكل، ولدت لحظة ولادة الآراء الجديدة الغربية عن روح الإسلام، وتفاقت إلى الحد الذي وضع المجتمع الإسلامي في موقف يقتل ذرية رسوله عليه السلام ويعرضهم للسبي.

إمامة أهل البيت عليه السلام ضمان من الإنعراف:

الإمامة في مدرسة أهل البيت عليه السلام عهد الهي يضعه الله حيث يشاء وهو استمرار لخط النبوة ووظائفها ولا يليق إلا لشخصيات معينة، اطلع الله على كمالاتهم واستعداداتهم فانتخبهم لذلك، فالخلافة للنبي والإمامة للأئمة لم تكن سلطة وامتيازات وإنما مسؤولية ومهام عظيمة لا يؤديها إلا من عرف الله قدرتهم على ذلك.

جاء في الروايات أن الإمامة وسياسة المجتمعات كانت من وظائف الأنبياء، وتجربة بنى إسرائيل النموذج الأكثر وضوحاً في هذا المجال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

« كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما ملك نبي خلفه نبي »^(١)

فالإمامة مسؤولية عظمى تتحقق بها غايات الرسالة وأهدافها، ويعيش الإمام للأهداف والمبادئ، ويتجرد من المسائل التي تؤثر على أداء مسؤوليته ولهذا قال الإمام علي عليه السلام :

« لا يقيم أمر الله إلا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع »^(٢).

وقد أوضح الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وصف الإمام بقوله:

« للإمام علامات: يكون أعلم الناس، وأحكم الناس، وأتقى الناس، وأحلم

(١) صحيح مسلم: ١٤٧١/٢، ح ١٨٤٢.

(٢) عيون الأخبار الرضا عليه السلام: ١٩٢/٢.

الناس وأشجع الناس، وأسخى الناس، وأعبد الناس...»^(١)

قال عليه السلام: «إِنَّ الإمامة أَسَ الإسلام النامي وفرعه السامي، بالإمام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، وتوفير النقيء والصدقات وإمضاء الحدود والأحكام ومنع التفور والأطراف.

والإمام يحلّ حلال الله ويحرّم حرام الله، ويقيم حدود الله ويذبّ عن دين الله ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والحيّة البالغة.

الإمام كالشمس الطالعة للعالم، وهي بالأفق؛ بحيث لا تنالها الأيدي والأبصار، الإمام البدر المنير والسراج الزاهر والنور الساطع والنجم الهادي في غياهب الدجى، والبيد القفار ولجج البحار.

الإمام الماء العذب على الظمأ، والندال على الهدى والمنجي من الردى. والإمام النار اليفاق الحار لمن اصطلّى به، والدليل في المهالك من فارقته فهالك...

الإمام الأمين الرفيق والوالد الرقيق والأخ الشفيق ومفرّج العباد في الداهية. الإمام أمين الله في أرضه وحيّته على عبادته وخليفته في بلاده الداعي إلى الله والذابّ عن حرّم الله.

الإمام المظهر من الذنوب المبرأ من العيوب، مخصص بالعلم موسوم بالحلم، نظام الدين وعز المسلمين، وغيظ المنافقين وبور الكافرين.

الإمام واحد دهره، لا يدانيه أحد ولا يعادله عالم ولا يوجد منه بدل ولا له مثل

(١) نهج البلاغة: ١٨ / ٢٧٤.

ولا نظير، مخصوص بالفعل كله من غير طلب منه له ولا اكتساب، بل اختصاص من المفضل الوهاب..

فمن ذا الذي يبلغ معرفة الإمام ويمكنه اختياره؟
فكيف لهم باختيار الإمام؟ والإمام عالم لا يجهل راع لا ينكل.
معدن القدس والطهارة والنسك والزهادة والعلم والعبادة، مخصوص
بدعوة الرسول وهو نسل المطهرة البتول لا مغمز فيه في نسب ولا يدانيه
ذو حسب. (١)

فالإمام يمثل أعلى درجات الكمال الإنساني ودرجات القرب
الإلهي.

والإخلاص لربه والتقيد بشرائعه والعالم الذي لا يشتبه ولا تلتبس
عليه الأمور المعصوم من الزلل.

ولأجل الأوصاف التي ذكرها الحديث الرضوي وغيره من
الأحاديث أصبح أهل البيت كما قال النبي ﷺ:

«التجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب التجوم
أتى أهل السماء ما يكرهون، وإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون» (٢)
فإبعاد أهل البيت ﷺ عن مواقعهم التي رتبهم الله بها وإبعاد منتهجهم عن
واقع الحياة الإسلامية يساوق إبعاد الإسلام وعزله عن الحياة؛ لأنهم

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢/ ١٩٧ - ١٩٩.

(٢) علل الشرائع، الصدوق: ١/ ١٥٠.

الممثل الحقيقي للإسلام، ولذلك يفقد المجتمع بمقدارهم:

- ١ - الموجه للمسيرة الإنسانية باتجاه الكمال.
- ٢ - الرؤية الكاملة والنقية للإسلام في المجالات على المستوى النظري.
- ٣ - المثال الأعلى للتعامل على أساس الإسلام في جميع نواحي الحياة.

الحركة الإصلاحية في حياة الأئمة:

نريد بالأئمة خصوص الإمام علي عليه السلام والإمام الحسن عليه السلام؛ لأن الحديث عنهما يرتبط بالإمام الحسين عليه السلام، حيث كانت هذه الفترة فيها عناصر مشتركة، ومعاصرتهم ﷺ لها جعلت الأحداث التي جرت معهم والمواقف منها ذات صلة وثيقة بهم.

فعندما أخطأ أهل السقيفة الصواب وانتهى الأمر إلى إقصاء الإمام علي عليه السلام والأئمة من بعده، وأقصيت معهم مناهج بناء المجتمع العلمية والمعنوية والعدل والحق بين أفرادهم وتفعيل التنمية الاقتصادية، والقضاء على الفوارق الطبقة وتوفير العيش الحر الكريم، وتقوية البناء الداخلي للمجتمع، وتهذيب العادات والتقاليد من الزوائد التي لا تتفق مع الإسلام، ورفع المستوى الأخلاقي وغيرها من المسائل المهمة كانت من ضمن وظائف الإمام وأهداف الإسلام.

ومن جانب آخر عمل الحكام على غير هدى ولا كتاب، فكانت الآراء الارتجالية الفردية أحد مصادر التشريع؛ ومن هنا بدأت المخالفات تزداد كلما تقدموا في الزمان وابتعدوا عن زمان الرسالة، وكلما استحدثت مسائل جديدة، واختلطوا مع مجتمعات غريبة عنهم بتاريخها الثقافي؛ وهذه المسائل وتراكماتها وآثارها أدت إلى نقل المجتمع إلى ثقافة جديدة تتضاعف فيها مسؤولية المصلح الديني؛ ولذلك عندما جاء الإمام علي (ع) إلى الخلافة واجهته عقبات كثيرة مانعة من تحقيق أداء رسالته في الإصلاح في مجالاته المختلفة، لكنه (ع) استمر بمنهجه الإصلاحية، وكان في المجالات التالية:

١ - المجال الحقوقي

ألغى الامتيازات الحقوقية التي جاءت نتيجة للتركيب الطبقي في المجتمع، وأقر المساواة في الحقوق والفرص والواجبات فكان يقول (ع): «الدليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه».

وقال: «أيها الناس، أعينوني على أنفسكم، وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بغرنامه حتى أورده منهل الحق، وإن كان كارها»^(١).

٢ - المجال الاقتصادي

كان العطاء على أساس الطبقة التي ينتمي إليها المواطن، أما في دولة

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٣٦.

على عليه السلام فهو يقول: «وأيما رجل استجاب لله وللرسول فصدق ملتنا ودخل في ديننا، واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده فأتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية لا فضل لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غدا أحسن الجزاء»^(١).

٣ - المجال الإداري

اتخذ متهجاً يختلف عما سبقه في اختيار الولاة والعمال ووضع شروطاً لذلك:

أ- الكفاءة على أداء المسؤولية

«أيها الناس، إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه، وأعملهم بأمر الله فيه»^(٢).

ب - حسن السابقة والصلاح

«ثم ألصق بذوي المروءات والأحساب، وأهل البيوت الصالحة والقدم في الإسلام فإنهم أكرم أخلاقاً وأصح أعراضاً»^(٣).

ج) العدالة والتقوى

«فاخفض لهم جناحك وألن لهم جانبك، وابسط لهم وجهك وآس بينهم في اللعظة والنظرة؛ حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم ولا يئأس الضعفاء من عدلك عليهم»^(٤).

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٧، ٢٧ - ٢٨.

(٢) نهج البلاغة خطبة: ١٧٣.

(٣) المصدر السابق: ١٧٣.

(٤) المصدر السابق: ١٧٣.

(د) حب المجتمع

«واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللفظ بهم»^(١).

وقد شكّلت خطب ورسائل الإمام علي عليه السلام أروع تجسيد لتعاليم القرآن ومنهجه في بناء الفرد والمجتمع الصالح، وهو بذلك قد وضع أسس الدولة الإسلامية المبدئية والمجتمع الإسلامي النموذجي بكل تشكيلاته، وأوضح الحقوق المتبادلة بين الأمة، وقادها بطريقة تختلف عما سبقه ولحقه، وتتفق مع سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن الكريم.

واستمر الإمام الحسن عليه السلام خلال فترة خلافته على نفس المنهج الذي كان عليه الإمام علي عليه السلام، ولكن جهل المجتمع وتفاعل الفتنة فرضا الصلح على الإمام الحسن عليه السلام حفظاً لطائفة مؤمنة، تتبنى المنهج الحق، ولا يقف المجتمع على حقيقة بني أمية عامة ومعاوية خاصة، وتحقق ذلك.

الإمام الحسين محمدي وعلوي المنهج:

كان الإمام الحسين عليه السلام يؤكد نفس المنهج الذي كان عليه الإمام علي عليه السلام والذي كان يمثل أصدق صورة للقرآن والسيرة النبوية، فالإمام الحسين عليه السلام كان مشروعه الإصلاحية صورة للقرآن والسيرة النبوية، فالإمام الحسين عليه السلام كان مشروعه الإصلاحية هو العمل بسيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) المصدر السابق: ٥٣.

والإمام علي عليه السلام: «ولهذا قال في وصيته لأخيه محمد بن الحنفية: «وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ﷺ أريد أن أمر بالمعروف وأنهاى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق، فالله أولى بالحق، ومن رذ عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين»^(١).

فالإمام الحسين عليه السلام سار على نفس منهج الإصلاح وباتجاه نفس الهدف وإن اختلف الموقف بشكل يتناسب مع الظروف الموضوعية، والدور الخطير الذي لعبه الأمويون في تهديد الدين وحاجة الأمة الى مواقف تهز وجدانها الديني والإنساني، ويوقف هذا التدهور، ويعالج الانحراف ويرجع الأمة الى موقعها الذي ينبغي أن تكون فيه، ويهز قواعد الحكم الأموي ويكشف واقعه الحقيقي.

الانحذار الخطير:

نتيجة لتراكم الأخطاء السابقة والابتعاد عن الدين والاهتمام الحكومي بقضية الحكم والثرف، والتعامل مع ممتلكات الأمة باعتبارها ملكاً لقريش والأمة تشمل لبني أمية، وكل ما تتملك الأمة فهو ملك لهم، وأضاف يزيد الى ذلك أن أشراف الأمة عبيد له، وطلب البيعة على ذلك

(١) بحار الأنوار: ٤٤/ ٣٢٩، مقتل الخوارجي: ١/ ١٨٨.

وقتل من أين: (١)

وكان الجهاز الحاكم يدير الأمة بهذه الطريقة، ويتعامل معها بكل ما لديه من انحراف فكري وسلوكي.

وهذا المستوى المتدني والانحراف الظاهري يهتد أصل الدين ولهذا لا يمكن السكوت عليه حتى إذا أدى إلى التضحيات الجسام. فلا ينظر في هذه المواقع إلى المصلحة الشخصية وما يترتب على التصدي لهذا الواقع المنحرف. لأن الدين ضرب من جميع الجهات وهو جرم على جميع الاتجاهات ولم يقف الأمويون عند حد معين. وإنما كانوا في حركة دائمة بالاتجاه المعاكس للدين، ولو قدر لهذه النشاطات المعادية للإسلام أن تستمر لا يبقى رجاء بسلامة الدين. ولنقضت حلقاته الواحدة بعد الأخرى، ولسيطرت مجموعة متهتكه على مقدرات المجتمع ومقدساته بلا مخالفة.

وقد أثار سلوك يزيد أشرف أهل المدينة المنورة عندما وفدوا عليه، حيث رجعوا يقولون: قدمنا من رجل ليس له دين يشرب الخمر، ويضرب بالطناير، ويعزف عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسمر عنده الخراب - وهم اللصوص - وإننا شهدكم أننا قد خلعناه» (٢). وقام عبد الله بن حنظلة الفسيل فقال: جئكم من عند رجل لو لم أجد إلا بني هؤلاء لجاهدته بهم. وقد أعطاني وأكرمني وما قبلت منه عطاء إلا لا تقوى به،

(١) حدث ذلك في وقعة الحرة.

(٢) الكامل في التاريخ، ٣/ ٤٤٩.

فخلعه الناس، وبايعوا عبدالله بن حنظلة الغيل على خلع يزيد وولوه عليهم^(١).

وكان عتال يزيد على طريقته بالانحراف عن الدين والتظاهر بمخالفة الشريعة وارتكاب المحرمات، وقد ذكر ابن عبد ربه ذلك بقوله: «(يزيد بن معاوية) صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب، وغلب على أصحاب يزيد وعتاله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب»^(٢).

فاشتركت تركيبة حكومية كاملة بالفسق والاستهتار بقيم السماء والعمل على عزل أحكام الإسلام عن مسرح الحياة، ونشر ثقافة التهلكة والتحلل من الالتزامات الإسلامية الظاهرية العامة فضلاً عن الالتزامات الخاصة على الولاة والخليفة؛ لأنهم القائمون على إقامة الإسلام وإجراء أحكامه.

اتفاق هذه التشكيلة الحكومية أدت إلى السقوط والوصول إلى أدنى مستوى من الإنحطاط، وشكلت أكبر خطراً على الإسلام والأمة الإسلامية، وأعظم حاجز عن تحقق غايات الشريعة، وأوسع ضوضاء في أجواء العقيدة.

(١) المصدر السابق: ٣ / ٤٥٠.

(٢) المقد الفريد ٣: ٨٣.

الحسين عليه السلام يحطّم الصمت:

عند ما هلك معاوية وخلف يزيد على الأمة بما يتصف به من مجون وفسوق وجرأة على ارتكاب المحرمات، عاشت الأمة حالة قلق ووجل من مستقبل هذه السلطة وخطرها على الإسلام عقيدة شريعة وأمة.

وفي هذه الأجواء المملوءة بالارهاب والانحرافات الواسعة عن الإسلام، والمخاطر المحدقة بالصالحين من أبناء الأمة، كان الإمام الحسين عليه السلام محط الأنظار، والبقية الباقية من آل البيت عليه السلام وهو إمام المسلمين وقدوتهم، والهادي لهم على المستوى الفكري والعقائدي والسلوكي.

طلبت الحكومة الأموية من الإمام البيعة، وفعلها هذا خلاف لمهادة الصلح التي عقدت مع معاوية؛ حيث اشترط أن يكون الأمر للإمام الحسن إذا هلك معاوية وإذا حدث أمر للإمام الحسن عليه السلام فالإمام الحسين عليه السلام. ثم إن ولاية العهد بدعة لم يألفها المسلمون ولا تتفق مع ثقافتهم، وإضافة إلى ذلك لم يكن يزيد من الشخصيات المجهولة عند الأمة وإنما كان واضحاً ومعروفاً جداً لسلوكه الشاذ عن المستوى الطبيعي، ولعدم تحفظه من عمل المنكر والمجاهرة به.

في مثل هذه الظروف المتشنجة طلب الحكم الأموي من الإمام عليه السلام

البيعة ليزيد، وكانت بطلب من يزيد مباشرة؛ اذ كتب إلى الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان :

(أما بعد فخذ حسينا وعبد الله بن عمر وابن الزبير بالبيعة أخذا شديدا ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام)^(١).

في هذا الوقت أعلن الإمام الحسين عليه السلام عن موقفه من حكومة يزيد ومن شخصية يزيد بقوله وهو يخاطب والي المدينة:

«...إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهيض الرحمة، بنا فتح الله، وبنا يغتم، ويزيد شارب الخمر، وقاتل النفس المحترمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنتظرون، أينا أحق بالخلافة والبيعة»^(٢).

وقال لمرwan بن الحكم: «على الإسلام السلام إذا ابتليت الأمة براع مثل يزيد، ولقد سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الخلافة معزومة على آل أبي سفيان؛ فإذا رأيتم معاوية على منبري فابقروا بطنه، وقد رآه أهل المدينة على المنبر فلم يبقروا فابتلاههم الله يزيد الفاسق»^(٣).

بهذه المواقف الصريحة والمبدئية بدأ الإمام الحسين عليه السلام حركته، وعين الموقف من حكومة يزيد؛ فتحطم الصمت وبدأ الكلام عن شرعية وكفاءة يزيد لهذا المقام، قبدأ ولم ينته، وأسس مدرسته مواجهة مع يزيد الماضي وكلّ يزيدي السلوك على طول التاريخ.

(١) الكامل في التاريخ: ٣/ ٣٧٧.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام، المرقم: ١٤٤، عن مشير الأحرار، لابن نما الحلبي: ١٠.

(٣) مقتل الحسين المرقم: ١٤٧.

الإمام الحسين عليه السلام يعلم بشهادته:

البيانات الأولى للإمام الحسين عليه السلام كانت واضحة وممتلئة بعلم الإمام بالنتيجة النهائية التي ستنتهي إليها حركته عليه السلام، والشخصيات المعاصرة كانت تحذر من النتائج المرشحة للظهور، واستمرت التحذيرات للإمام من جميع الأطراف التي لها خبرة بتركيبة المجتمع الكوفي وطريقة تعامل الحكومة الأموية مع معارضيه.

ولم تكن هذه المسائل خفية على الإمام عليه السلام وإنما كان عالماً بالذي سيحدث؛ وأخبر بذلك كما في قوله: «خط الموت على ولد آدم مغطى القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف! وخير لي مصرع أنا لقيه، كأني بأوصالي تقطعها عسلان القلادة بين النواويس وكربلاء فيعلان مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً، لا محيص عن يوم خط بالقلم رضا الله رضا أهل البيت»^(١). وهذا المستوى من العلم اشترك غير الإمام مع الإمام به لقراءة الأحداث واستعداد الشخصيات الرسمية على ارتكاب أبشع الجرائم من غير حدود وقيود والتزامات، ولكن الأمر الذي يفترق به الإمام عن غيره هو معرفة النتائج التي سيؤدي إليها موقفه وشهادته وانتهاك حرمة، والتأثير الذي ستخلفه الفاجعة.

(١) مقتل الحسين عليه السلام المرقم: ١٩٣، عن الملهوف: ٣٣.

إقصاء الإسلام عن الحياة:

أراد الله تعالى لدينه عقيدة وشريعة أن يكونا ضابطة لفكر وسلوك الإنسان، وجعل من أنبيائه وأوليائه أئمة ليكونوا قادة العباد وساسة الأمة، وجاء في الحديث النبوي: «كان بنو إسرائيل توسهم الأنبياء كلما ملك نبي خلفه نبي»^(١).

السياسة الدينية تعتقد أن الأمة أمانة، والإمام أمين عليها، ويتولى قيادتها على خط الهدى باتجاه رضا الله ورضوانه، ويتم هذا بولاية أمرها وتعليمها الكتاب والحكمة وهدايتها إلى العمل الصالح، ومنعها عن الأعمال المانعة من الوصول إلى الله. وتجنبها الفتن والشكوك بنشر المعرفة، والحكم في المجتمع وإرادته وفق الشريعة الإلهية ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾^(٢).

ولكن يمكن أن يتعرض الأنبياء أو الأئمة ﷺ لحالات اضطهاد واستضعاف في غفلة من الأمة أو جهل لما يؤدي إليه هذا الأمر من ضرر على المجتمع فردا وجماعة، وعلى الدين من أهداف وغايات كبرى. فعزل الأئمة ﷺ أمر ممكن، وقد عزل عن تنفيذ مقام الإمامة بعض

(١) صحيح مسلم: ٣/١٤٧١ ح ١٨٤٢.

(٢) المائدة: ٤٨.

الأنبياء وكذلك منع الأنبياء ﷺ أو الأئمة ﷺ عن ممارسة دورهم في قيادة المجتمع على المستويات المذكورة، والقاضون في السجون أو قتلهم ومحاولة إلغاء دورهم وقدرة تأثيرهم.

والتاريخ يشهد على الذين شغلوا مقام الأئمة ﷺ بالغوا في إزوائهم وإبعادهم عن مسرح الحياة، وأحياناً يحاولون أن يضيعوا اسماءهم فضلاً عن مبدئهم ورسالتهم، وهذا الأمر لو قدر له الانفراد في الساحة الفكرية كما هو الحال في السلطة فسيتهي الأمر الى سيادة ثقافة الحكام واختفاء الرسالة الإلهية الأصلية، وهذه أحد وسائل تحريف الأديان وتفرغها من محتواها وتغيير اتجاهها.

وأراد الأمويون للرسالة الإسلامية هذا المصير وهذه النهاية.

ففي عصر الإمام الحسين عليه السلام كان الإسلام مستهدفاً، والمواقف الأموية من القرآن والنبي ﷺ وعترته وأصحابه ومدينته وبيت الله الحرام. كلها تشير على الاتجاه والأهداف العدائية التي يقصدونها في حركتهم، وخلقوا أجواء إرهابية لدعم مخططاتهم العدائية تدعمه مجموعة وعاظ السلطة وأصحاب الأطماع والمتخاذلون الذين لا يبالون ولا يهتمون بأمر الدين، وما يتعرض له من تهديد إذا ضمنت مصالحهم.

ففي هذه الأجواء المملوءة بالإرهاب وهذه الانحرافات الكبيرة عن الإسلام، والمخاطر المحيطة بالأمة ورجالها المخلصين، والهجمة الشرسة على الإسلام عقيدة وشرعية كان إمام المسلمين الحسين عليه السلام وهو

المسؤول عن صيانة الدين من التحريف والأمة من الانحراف، وقد دُعي لبيعة يزيد بن معاوية الذي عرفته الأمة بالفجور وشرب الخمر، وقد ذكره الحاجز في كتاب التاج بقوله:

«وكان ملوك الإسلام من يدمن على شربه الخمر، يزيد بن معاوية، وكان لا يمسي إلا سكران ولا يصبح إلا مخموراً»^(١).

خيارات ومواقف:

في اليوم الأول من طلب البيعة ليزيد من الإمام الحسين عليه السلام نظر الإمام إلى الأمر فرأى أمامه خيارين وقد ذكرهما عندما اشتكى لجده رسول الله ﷺ وهو يريد الخروج من المدينة ومن جوار جده إذ قال: «يا بني أنت وأمي يا رسول الله، لقد خرجت من جوارك كرهاً، وفزق بيني وبينك وأخذت قهراً، أن أباع يزيد شارب الخمر وراكب الفجور، وإن فعلت كفرت وإن أبيت قتلت، فما أنا خارج من جوارك كرهاً فعليك مني السلام يا رسول الله»^(٢). وقد أضاف لهذين الخيارين خياراً ثالثاً في الجملة الأخيرة وهو الخروج من المدينة للتهيؤ للقيام والثورة.

وقدم بعض المعترضين على خروج الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة خياراً رابعاً، وهم لا يرون بيعة ليزيد ولا وفاء لأهل الكوفة؛ ولذلك اقترح

(١) كتاب التاج في أخلاق الملوك، للحاجز: ١٤٩، تحقيق الأستاذ أحمد زكي باشا.

(٢) مقتل الحسين لأبي مخنف، ٥٠.

عليه محمد بن الحنفية بالذهاب الى اليمن أو بعض نواحي الير، وقال ابن عباس: يا ابن العم، إني أتصبر وما أصبر وأتخوف عليك هذا الوجه الهلاك والاستئصال، إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم، فإن أبيت إلا أن تخرج فسر الى اليمن فإن بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة، ولأبيك بها شيعة، وانت عن الناس في عزلة فتكتب الى الناس وترسل وتبث دعائك فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية^(١).

فالإمام الحسين عليه السلام أمامه مجموعة من الخيارات أحلاها مراً. وستعرض الى ذكرها وموقف الإمام عليه السلام منها وهي كالتالي:

الخيار الأول: أن يبايع يزيد:

وهذا الموقف لا ينسجم مع هذه المرحلة، ولأنه يعتبر نوعاً من أشكال الموافقة، فهو يعطي قوة لحكومة يزيد المعادية للإسلام، ومن ثم يؤدي الى زيادة نشاط الفعاليات الأموية ضد الإسلام وعزل أكثر لأهل البيت عليه السلام وقد عبر الإمام عن هذا الموقف بالكفر بقوله:

(وان فعلت كفرت) وعبر عنه بالذلة كما في قوله: «ألا أن الذعي وابن الذمي ركز بين اثنتين بين السلة والذلة، وههنا منا الذلة».

(١) الكامل في التاريخ، ٣: ٤٠٠

الخيار الثاني: لا يبايع ولا يترك المدينة أو مكة:

إذا بقي الإمام الحسين عليه السلام في المدينة ولم يبايع فإنه يقتل، وقد ذكر ذلك بقوله:

(وإن أبيت قتلتي). وكان كتاب يزيد إلى الوليد بن عتبة يأمر بذلك. وقد كان نص الكتاب يقول: إذا أتاك كتابي هذا فأحضر الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير والسلام.^(١)

وإذا قام الإمام الحسين في مكة ولم يبايع فإن بنى أمية لا يعرفون حرمة لكعبة أو نبي أو ابن نبي، فإذا لجأ الإمام الحسين إلى الكعبة فإنهم أضافه إلى اغتياله ينتهكون بيت الله الحرام، وقد قال لابن الزبير: «أن أبي حدثني أن لها كبشاً به تسحل حرمتها فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش»^(٢).

وقال: «والله لأن أقتل خارجاً منها بشير أحب إلي من أن أقتل فيها»^(٣).

ولم يكن هذا الأمر مجرد حذر وإنما (دس عمرو بن سعيد بأمر بن يزيد مع الحاج ثلاثين رجلاً من شياطين بنى أمية، وأمرهم باغتيال الحسين عليه السلام ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة).^(٤)

فالنتيجة هي القتل اغتيالاً أو صبراً وكلاهما لا يخدم رسالة الإمام الحسين عليه السلام.

(١) البيان والنبين، فلجأ حظ: ١٠٩ / ٢.

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ٤٠٠ / ٣.

(٣) تاريخ الطبري: ٣٧٨ / ٥.

(٤) تاريخ طبري

الخيار الثالث : يذهب الى اليمن:

وقدّم هذا الاقتراح ابن الحنفية وابن عباس، وقد أجاب الإمام الحسين عليه السلام ابن عباس: «يا ابن عمّني أعلم أنك ناصح مشفق». وقال عليه السلام: «والله لا بدعوني حتى يستخرجوا هذه العلة من جوفي؛ فإذا فعلوا سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أدلّ من فرام المرأة»^(١).

واليمن حتى إذا وجد فيها شيعه للإمام الحسين عليه السلام إلا أنهم لا يقاسون بالكوفة من ناحية العدة والعدد والولاء والمنعة وهم مع كلّ هذا لم يخرج منهم إلا اليسير لنصرة الحسين عليه السلام فكيف باليمن؟ ثم إذا حدثت مواجهة وانتهت الى ما انتهت إليه واقعة الطف فأنها لا تخلق أثراً، لأنها في موقع بعيد عن المراكز المهمة للبلاد الإسلامية.

وعلى فرض ذهاب الإمام الحسين الى اليمن وبإيعه أهل اليمن وخلعوا يزيد فهم لا يمتلكون القدرة على نشر دعوتهم لعوامل متعددة، منها: موقعهم الجغرافي وقلة الارتباطات وصعوبتها، وعدم وجود الكثافة السكانية، وإمكان القضاء عليهم بسهولة؛ لأنهم لم يمتلكوا القدرة على مواجهة غارات كان يوجهها اليهم معاوية، وأهل اليمن لم يدعوا الإمام اليهم ولم يبايعوه؛ فذهابه اليهم من غير دعوة لا يجعل موقعه في مقام القوة.

(١) الفرام: خرقة تجعلها المرأة في قبلها إذا حاضت.

والمحصلة النهائية أن بني أمية لا يتركون الإمام الحسين عليه السلام إذا لم يدخل في بيعة يزيد بقول الإمام الحسين عليه السلام:

«لو دخلت جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقتلوني».

الخيار الرابع: يرفض البيعة ويدعو لنفسه:

فقال عليه السلام: «مثلي لا يبايع مثله»، وقد سبق أن وثيقة الصلح التي كتبت بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية اشترط بها أن تكون الخلافة للإمام الحسن عليه السلام بعد هلاك معاوية، وإذا حدث حادث فللحسين عليه السلام وبيعة يزيد أحد مخالقات معاوية للمعاهدة التي عقدت بينه وبين الحسن عليه السلام وهذا أول المبررات، ثم أن يزيد فاسق وفاجر لا تتعقد له بيعة إضافة إلى ذلك قول الإمام الحسين عليه السلام الذي نقله عن جده: الخلافة محزومة على آل أبي سفيان). وقد ذكر هذا في الصفحات السابقة

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً عهده مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله، ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود، واستأثروا بالقيء، وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله، وأنا أحق من غيري»^(١).

(١) الكامل في التاريخ: ٤٠٧/٣٠.

فالإمام الحسين عليه السلام كما تقدم لا يرضى البيعة ليزيد، والأخير لا يبيعه له على الشرائط المطلوبة في الإمام أو الخليفة، ثم إذا انعقدت فهي تنفسخ لأنه لم يلتزم بشيء من لوازمها. وقد تقدم ذكر بعض أفعال يزيد .
وقد خطب عليه السلام بأصحابه في كربلاء قائلاً: «ألا ترون الحق لا يعمل به والى الباطل لا يتأهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله، إنني لأرى الموت إلى سعادة والحياة مع الظالمين إلى برا»^(١).

فالإمام المنتصب من الله تعالى أميناً على رسالته عقيدة وشرعة يرى أن الإسلام في خطر، ولا يمكن السكوت لأن الإسلام مهدد، لذلك يقول عليه السلام: «على الإسلام السلام إذا ابتليت الأمة براع مثل يزيد».

تأسيس خط المقاومة:

لو استقام الأمر للطفاة من دون مراقب ومعترض وثار لوخذوا الأمة على اتجاه واحد، ولجمعوا كلمتهم على رأي واحد ولعبأوهم نحو هدف واحد، لم يكن للدين فيها موقع ولم تغب للسلطان فيها منفعة، معبأة في طاعة السلطان، فارغة من طاعة الله، وغالباً ما تكون عمليات التحريف التي تمر بها الأديان السماوية على أيدي الحكام الذين مسخرة لخدمة مقامهم، وهذا الفعل يساق عملية التحريف وهو الغاء للدين واضلال للأمة ثم استعبادها.

(١) مقتل الحسين عليه السلام، للمقرم: ٢٣٢.

أما تحقيق الأهداف الإلهية للدين لا تتم إلا باجتناب المولى من يعرف عبوديته وإخلاصهم ومؤهلاتهم الأخرى لمقام الإمامة، وقد كان ذلك في الأديان السابقة، وفي الإسلام كانت الإمامة للأئمة من العترة الطاهرة، والحسين عليه السلام أحد الأئمة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، ولكنه منع من ممارسة دوره، ومنعت الأمة من انتخابه، فهل يترك الأمة طعمة لبني أمية وهي تسير بها باتجاه خطير ومقلق وهو إمام المسلمين، يرى أن عليه أن يقف بوجه هذا الانحراف الذي يستهدف وجود الإسلام؟

لم يكتف الإمام الحسين عليه السلام بالقيام والتضحية بنفسه وأهل بيته في مشروعه للدفاع عن الإسلام وصيانتها للفترة الزمنية التي عاشها، وإنما قام برسم خارطة لبناء أمة أمينة، تلتزم الحق قادرة على حفظ الخط الأصيل للإسلام تكون العلامة والدليل على طول التاريخ الإسلامي لبنيان الدين الحق الذي جاء به النبي صلى الله عليه وآله وأراد الله لعباده وفرزه عن الدين المزيف الذي أوجده الأمويون.

أمة تتحرك بهدى القرآن والسنة النبوية، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر كما في قوله تعالى:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُقْلِقُونَ﴾ ولا تكونوا كالأ الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم اليان

وأولئك لهم عذاب عظيم»^(١).

ونتيجة لثورة الإمام الحسين (ع) وما أفرزته من فكر إصلاحى ومقاومة واتجاه مقاوم؛ حدث توازن للقوى الاجتماعية التي كادت أن تكون طرفاً واحداً يضيع معه الإسلام.

وتحققت أهداف الثورة بقيام طائفة، أخذت على عاتقها مواجهة الجائرين للدفاع عن الإسلام. والأمة بشكل منظم ومعيناً، تتحرك على منهج واضح وشعارات أصيلة وأهداف مقدسة.

فالإمام الحسين (ع) أوجد أمة صالحة وكتلة مؤمنة، علمها طريق المواجهة والمقاومة، وعين لها الاتجاه، وترك الحكم الأموي لا يعرف الاستقرار والهدوء، فالأمة منفصلة عنهم انفصال رفض تام.

(١) آل عمران: ١٠٤ - ١٠٥



دراسة عسكرية لثورة الحسينية

عباس ذهيبات

المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام قم المقدسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة:

كُتِبَ الكثير من المواضيع، التي تتناول جوانب مختلفة من واقعة الطف، واحتل الجانب المأساوي منها حيزاً كبيراً، لكن الجانب العسكري لم يحتل من تلك المواضيع سوى حيز يسير، ولم يتم التطرق إليه إلا بصورة هامشية.

وعلى الرغم من كون واقعة الطف من حيث الأساس انتفاضة عقائدية وثورة مبدئية، إلا أنها انتهت بمعركة حربية، قد أفرزت على قصرها دروساً قتالية تستحق البحث والدراسة.

ونحن في هذه الدراسة الموجزة، نحاول تسليط الأضواء على بعض تلك الدروس والمواقف، وندعو أصحاب الاختصاص العسكري بأن يولوا اهتماماً أكبر بالجانب العسكري من واقعة الطف، لكي تستفيد منها الأجيال.

الموقف العام

وجد الحسين عليه السلام نفسه بعد وفاة معاوية وتسلم يزيد ابنه مقاليد السلطة الإسلامية أمام خيارين: أحلاهما من، إما السِّلَّة والمهادنة والذَّلة، أو المواجهة والتصدي مع قلة العدد والعُدَّة، لكن مع إصرار السلطة الحاكمة على مبايعته، وبما عُرف عنه من شهامة وإباء، اختار المواجهة والثورة

ورفع شعاراً تعبويّاً هو: (هيهات منا الذلة)^(١)، وقَرَّر الخروج من المدينة المنورة خوفاً على ثورته من أن يُقضى عليها وهي في المهد. وتوجه في أول الأمر إلى مكة المكرمة لثلاث من شعبان سنة ستين للهجرة، واختار في مسيره الطريق العام، ولم يسلك الطرق الفرعية الوعرة مما يغلب على الظن بأن الحسين عليه السلام كان يبتغي إعلان دعوته على الرأي العام، وهذا الأمر لا يتحقق على الوجه الأكمل لو سلك الطرق الجانبية التي قد تؤمن له الاستتار لا غير.

يذكر الشيخ باقر شريف القرشي أنه عليه السلام: سلك الطريق العام الذي يسلكه الناس من دون أن يتجنب عنه، وأشار عليه بعض أصحابه أن يحيد عنه مخافة أن يدركه الطلب من السلطة في يثرب، فأجابهم عليه وكنه ثقة في النفس قائلاً:

«لا والله لا فارقت هذا الطريق أبداً، أو أنظر إلى آيات مكة، أو يقضي الله في ذلك ما يحب ويرضى...»^(٢).

ثم أن عدم اتجاه الإمام الحسين عليه السلام إلى العراق بصورة مباشرة وهو مقصده الرئيسي وذهابه إلى مكة في موسم الحج يعطينا قناعة راسخة بأنه يريد إعلان دعوته على الملأ، وخاصة في هذا الوقت الذي يكون عادةً

(١) تحف العقول، ابن شعبة البهراني: ٥٨، مائة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين، ط ٢ - ١٤٠٤هـ وأيضاً: الاحتجاج، الطبرسي ٢: ٢٤، منشورات دار النعمان.

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام دراسة وتحليل، الشيخ باقر شريف القرشي ٢: ٣٠٥، ط ١ - ١٣٩٥هـ النجف الأشرف.

وقتاً مناسباً لتجمع الحجيج من كل فج عميق.

مهما يكن من أمر فإنه ﷺ توجه إلى مكة لثلاث مضيّن من شعبان سنة ستين للهجرة، فأقام بها وقضى فيها عدة أشهر: شعبان ورمضان وشوال وذو القعدة.

ولابد من التنويه على أن مكة أصبحت القاعدة الرئيسية للمعارضة ضد السلطة الأموية، وفيها تحصن عبدالله بن الزبير المعارض الثاني من حيث الأهمية بعد الحسين بن علي ﷺ. وكان بإمكان الإمام أن يتحصن في مكة، ويستفيد من موقعها الديني المقدس وطبيعة أرضها الوعرة الصالحة لخوض حرب العصابات، لكن الإمام ﷺ غادرها خوفاً على قدسيّتها من الدّنس وعشيّة من إراقة الدماء فيها.

فبادر بالخروج منها قبل أن يبادر الطرف المعادي ويسعى لمحاصرته أو اغتياله، حتى أن الفرزدق الشاعر عندما لاقى الحسين ﷺ في الطريق سأله باستغراب قائلاً له: ما أعجلك عن الحج؟!... فأجابه الحسين ﷺ: «لولا أني لأخذت»^(١).

أما السلطة الأموية، فبعد أن تبين لها بأن الحسين ﷺ - وهو الذي تحسب له ألف حساب - قد رفض البيعة وغادر المدينة، ثارت ثائرتها ووضعت قوّاتها في المدينة ومكة والكوفة في حالة استنفار دائم لمراقبة تحركات الإمام في حلّه وترحاله.

(١) الإرشاد، الشيخ المنجد ٢: ٦٧، تحقيق مؤسسة آل البيت ﷺ لتحقيق التراث. وأيضاً: مشير الأحزان، ابن نما الحلبي: ٢٨، المطبعة الحيدرية، النجف ١٣٦٨ هـ.

وقد زاد من توجسها وصول سفير الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل إلى الكوفة وقيامه بأخذ البيعة للحسين عليه السلام وتهيته للمقدمات اللازمة لمقدم الإمام عليه السلام، وسعيه للسيطرة على بيت الإمارة في الكوفة. وكانت الاستخبارات الأموية نشطة وفعالة في الكوفة، فقامت بإرسال التقارير الدورية عن تحركات مسلم بن عقيل (رض)، وكذلك عن حالة أمير الكوفة «النعمان بن بشير» الذي كان - حسب تقييمهم - ضعيفاً أو متضاعفاً لعدم تصديه الحازم لنشاطات مسلم بن عقيل عليه السلام، ولعدم سيطرته على الأوضاع المضطربة في هذه الإمارة ذات الأهمية الاستراتيجية.

درست القيادة الأموية في الشام الموقف من جميع جوانبه؛ فقد عقد يزيد بن معاوية مجلساً استشارياً بحضور أحد كبار مستشاريه ويدعى: سرجون النصراني، وكان الأخير قد أشار على يزيد بتولية عبيد الله بن زياد والي البصرة على الكوفة^(١) بما عُرف عنه من قسوة لامتناهية وسعة حيلة، فأصدر يزيد بن معاوية أمراً عسكرياً مقتضياً تقدح عباراته ناراً وشراً، ومما جاء فيه: «فسرحين تقرأكتابي الكوفة، فتطلب ابن عقيل طلب الغرزة حتى تثقله فتولقه أو تقتله أو تنفيه، والسلام»^(٢).

لقد وجدت القيادة الأموية بأن مرور الوقت ليس في مصلحتها، فكل

(١) الإرشاد، الشيخ المفيد ٢: ٤٢، وأيضاً: تاريخ الطبري ٤: ٢٦٥، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

(٢) الإرشاد، الشيخ المفيد ٢: ٤٣.

تأخير أو تهاون سوف يؤدي إلى وصول الحسين عليه السلام إلى العراق، ومن يُهيمن على هذا البلد الحيوي فسوف يتمكن من تهديد معقل القيادة وخطوط مواصلات الشام، وربما يجتد العراق على الشام حرب صفيين، في وقت تخلو أرض الشام من الداهيتين معاوية وابن العاص.

وصل عبيد الله إلى الكوفة ليلاً متخفياً وعليه عمامة سوداء، وهو متلثم، والناس قد بلغهم إقبال الحسين عليه السلام فهم ينتظرون قدومه، فظنوا حين رأوا عبيد الله أنه الحسين، فأخذ لا يمر على جماعة من الناس إلا سلموا عليه وقالوا: مرحباً يا ابن رسول الله، قدمت خير مقدم، فرائي من تباشيرهم بالحسين ماساءة^(١). ولما أدرك خطورة الموقف، قام بالسيطرة على المراكز الحساسة في الكوفة، وعزل أميرها «النعمان بن بشير»، واتبع أسلوب «الترغيب والترهيب» مع أهلها، وأخذ باعتقال وإعدام كبار الزعماء المواليين للحسين عليه السلام، وتمكن بواسطة مخابراته من تحديد مكان إقامة «مسلم بن عقيل» (رض) في دار هانيء بن عروة^(٢)، فسارع إلى اعتقاله وإعدامه، كما اتخذ تدابير عسكرية عاجلة منها إرسال مجموعة من دوريات الاستطلاع لمراقبة حدود الحجاز وسد الطرق منها وإليها، كما أرسل دورية قتالية مؤلفة من ألف فارس بقيادة العرب بن يزيد الرباعي، لتحول دون وصول الحسين عليه السلام إلى الكوفة أو الأقاليم القريبة منها، إذ كان التخوف الأموي شديداً من وصول الدعوة الحسينية إلى ما وراء الفرات وحدود بلاد العجم.

(١) الإرشاد ٤٣: ٢.

(٢) الإرشاد ٤٥: ٢ - ٤٧.

المعلومات

يقرّر القائد خطته وفقاً للمعلومات التي يتمكن من الحصول عليها، وكلما كانت المعلومات أوثق وأدق كلما كانت الخطة محكمة، ويجب أن تتضمن المعلومات نية العدو، وعدد قواته وتنظيمها، وأنواع أسلحتها وتجهيزاتها، وأسلوب قتالها، وطبيعة الأرض التي سوف تدور رحى الحرب عليها.

والإمام الحسين عليه السلام كقائد ميداني كان يسعى جاهداً للحصول على المعلومات أولاً بأول عن عدوه، والملاحظ أنه اتبع ثلاثة أساليب أساسية:

الأسلوب الأول: استنطاق المسافرين والاستفسار منهم:

ومن أمثلة ذلك أن الإمام عليه السلام لما بلغ منطقة «ذات عرق» تلقى بشريين غالب قادمًا من العراق، فسأله عن أهلها، فقال: خلفت القلوب معك والسيوف مع بني أمية، فقال الحسين عليه السلام حينئذ: «صدقت يا أخا بني أسد»^(١). وكنا قد تطرقنا إلى مقابلة الحسين عليه السلام للفرزدق الشاعر. والشيء الجديد هنا أن الفرزدق يذكر أن الحسين عليه السلام بادره بالسؤال التالي مستفسراً: «أخبرني عن الناس خلفك» فقال: الخبير سألت، قلوب الناس معك وأسيافهم عليك، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء. فقال الحسين عليه السلام للفرزدق: صدقت لله الأمر،

(١) مثير الأحزان، ابن نما الحلبي: ٣٠.

وكل يوم ربنا هو في شأن»^(١).

فالإمام عليه السلام يطلع على الموقف بنفسه أولاً بأول، وينقله إلى أصحابه حتى يتعرفوا على المستجدات ويكونوا على بصيرة من أمرهم.

الأسلوب الثاني: المكاتبات:

كان الحسين عليه السلام يكتب باستمرار إلى أنصاره وشيعته في الولايات والبلدان، وخاصة إلى اليمن والكوفة والبصرة، وهي المناطق المعروفة بحب آل البيت عليه السلام وموالاتهم، ينقل تعليماته إليهم ويطلع على كل المستجدات، ولكن وسيلة المكاتبات هذه لا يمكن الاعتماد عليها كلياً في الحصول على المعلومات ونقلها؛ وذلك لأن حامل الكتاب في بعض الأحيان يقع في فخ مغابراتي، ويكتشف أمره ويتعرض - بالتالي - إلى العقوبة القاسية أو يتعرض للتعذيب من أجل الكشف عن الجهة المكلف بإرسال الكتاب إليها. كما حصل مع قيس بن مسهر الصيداوي الذي كلفه الحسين عليه السلام بإيصال كتاب سري للغاية إلى سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد وجماعة الشيعة بالكوفة، فلما قارب دخول الكوفة اعترضه الحصين بن نمير - صاحب عبيد الله بن زياد - ليفتشه فأخرج (قيس) الكتاب ومزقه، فحمله الحصين بن نمير إلى عبيد الله، فلما مثل بين يديه قال له من أنت؟ قال: أنا رجل من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وابنه، قال: فلماذا خرقت الكتاب؟ قال: لئلا تعلم ما فيه.

(١) الإرشاد ٢: ٦٧. وأيضاً: مشير الأخوان: ٢٨.

فحاول (عبيد الله) التحقيق معه وأخذ الاعتراف منه. وقال له: ومن الكتاب وإلى من؟ قال: من الحسين عليه السلام إلى جماعة من أهل الكوفة لا أعرف أسماءهم، فغضب ابن زياد وقال: والله لا تفارقني حتى تخبرني بأسماء هؤلاء القوم، أو تصعد المنبر فتلعن الحسين بن علي وأباه وأخاه وإلا قطعك إرباً إرباً، فقال قيس: أما القوم فلا أخبرك بأسمائهم وأما لعن الحسين وأبيه وأخيه فأفعل.

فصعد المنبر فحمد الله وأكثر من الترحم على علي والحسن والحسين ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه، ولعن عتاة بني أمية عن آخرهم، ثم قال: «أيها الناس أنا رسول الحسين اليكم وقد خلقتكم بموضع كذا فأجيئوه» فأمر عبيد الله بالقائه من أعالي القصر^(١).

من هذا الموقف يظهر لنا جلياً بأن الإمام يختار حملة كتبه من ذوي الخبرة والكفاءة والشجاعة والأمانة للتقليل من الآثار السلبية للمكاتبات التحريرية.

الأسلوب الثالث: الاستطلاع:

اتبع الحسين القائد عليه السلام هذا الأسلوب في مسيره نحو العراق، فكان يستطلع بنفسه وأحياناً يؤلف دورية استطلاع قليلة العدد، تكون في طبيعة قواته، ليحصل من خلالها على المعلومات عن مدى اقتراب دوريات

(١) أنظر: بحار الأنوار. العلامة المجلسي ٤٤: ٣٧٠، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط ٢ - ١٤٠٣ هـ. وأيضاً: لواعج الأشجان، السيد محسن الأمين: ٧٩، نشر مكتبة بصيرتي.

العدو التي تحاول صده عن الوصول إلى هدفه، ويحاول التعرف على الطرق ومصادر المياه، ومن مصاديق ذلك أن الإمام الحسين عليه السلام عندما وصل منطقة «التعليه» ونزل بها، نظر إلى سواد مرتفع، فقال لأصحابه: ما هذا السواد؟ فقالوا: لا علم لنا بذلك. فقال: انظروا ثانية. فقالوا: خيلٌ مقبلة. فقال: اعدلوا بنا عن الطريق. لأنه لا يريد المواجهة العسكرية قبل الوصول إلى الكوفة. قال وهو واقف للاستطلاع: «قلما رأونا عدلنا.. عدلوا إلينا»^(١).

وإذا هم ألف فارس يقدمهم الحربين يزيد الرياحي. وهذه الحادثة مفادها: أن الحسين عليه السلام عندما بلغ منطقة «ذي حسم» كتب رجلٌ من أصحابه تكبيرة الإعجاب، وكان ضمن قوات الاستطلاع التي وضعها الإمام في طليعة الزّكب، فقد تصور هذا الرجل أنه رأى تخيل الكوفة؛ فلذلك أخذ يُكبر بأعلى صوته، مبشراً بالوصول إليها، ولكن الجماعة المكلفة بالاستطلاع لم تقتنع بذلك، وبعد التدقيق في صحة الخبر تبين لهم أنها رؤوس رماح، تحكي عن قدوم قوة عسكرية، فتحيّز الحسين عليه السلام برحله إلى هضاب (ذي حسم)، واتخذ وضعاً دفاعياً مرتجلاً، وأصدر تعليماته العسكرية فقد «خرج إلى أصحابه فأمرهم أن يقربوا بعض بيوتهم من بعض، وأن يدخلوا الأطناب بعضها من بعض وأن يكونوا هم بين البيوت إلا الوجه الذي يأتيهم منه عدوّهم»^(٢).

ومهما يكن من أمر فإن الحسين عليه السلام كان يستطلع أكثر الأوقات

(١) أنظر: الإرشاد ٢: ٧٧، بحار الأنوار ٤٤: ٣٧٥.

(٢) تاريخ الطبري، ٤: ٣١٩، مؤسسة الأعلمي، بيروت. وأيضاً: مقتل الحسين عليه السلام، أبو مخنف: ١١٢.

بنفسه، أو بواسطة مفرزة استطلاع من أجل الحصول على المعلومات المتيسرة - ولو على وجه السرعة - عن العدو وعدد قواته وتجهيزاته وتحركاته.

تطهير القوات:

سعى الإمام عليه السلام لتطهير قواته من عناصر الفتنة والخلدان وأصحاب الأهواء والمصالح، إدراكاً منه بأن قوة الجيش لا تُقاس بعدد جنوده، بل بمدى تحليهم بعناصر الضبط الذي هو أساس الجندية، ومدى درجة إيمانهم بحقانية الحرب التي سوف يخوضونها.

ومعنى الضبط: هو إطاعة الأوامر وتنفيذها بحرص وأمانة وإخلاص وعن طيب خاطر. وهذه الأمور يفتقد إليها بعض من التحق بجيش الإمام طلباً للمنتصب أو المَنَتم. فهؤلاء - أقصد أهل الأهواء والمطامع - بدأوا بالتفريق سراً وعلانية، ليلاً ونهاراً بمجرد سماعهم بشهادة مسلم بن عقيل (سلام الله عليه)، الذي تناهى إلى أسماعهم في منطقة زبالة.

والحسين القائد لم يخف هذا الأمر الجلل عن جنده؛ فقد عقد مؤتمراً عاماً لأهل بيته وأصحابه، وقام خطيباً فأطلعهم على ذلك الخبر المؤسف حول شهادة عميد بيته مسلم بن عقيل (سلام الله عليه)، ولم يبد من مظاهر الحزن سوى الإكثار من الاسترجاع، وأخفى كل مشاعر حزنه في سويداء قلبه؛ لأن العيون لدى الشدائد شاحصة إلى قائدها، فإن بدا عليه لائحة حزن عم الغم الجميع، وضغفت المعنويات وخارت العزائم. مع ذلك فإن ثلّة من

الملتحقين به بدأوا بالتخلي عنه إشاراً للراحة وطلباً للعافية.
يذكر الشيخ المفيد رحمه الله أنه لما تناهى لهم في منطقة «زباله» خبر مقتل مسلم (سلام الله عليه) أخرج الحسين عليه السلام للناس كتاباً فقرأ عليهم، وجاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فإنه قد أتانا خبر فظيع قتل مسلم بن عقيل، وهانيء بن عروة، وعبد الله بن يقطر، وقد خذلنا شيعتنا، فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف غير حرج، ليس عليه ذمام». فتفرق الناس عنه وأخذوا يميناً وشمالاً، حتى بقي مع خلص أصحابه^(١).

بعدها دعا الحسين عليه السلام أصحابه للتفرق، وبين لهم أن طرق النجاة مفتوحة أمامهم. وليست هذه المرة الأولى التي يطلب فيها الحسين عليه السلام من أصحابه بالتفرق عنه، فقد جدد ذلك الطلب قبل معركة عاشوراء، عندما جمع قواته وقال لهم: إن القوم يطلبوني ولا يريدون بدلاً عني، وطلب منهم أن يتخذوا من الليل جمللاً ليستر انسحابهم ويحفظ ماء وجوههم، قال لهم: «وقد نزل بي ماقد ترون، وأنتم في حل عن بيعتي، ليس لي في اعتناقكم بيعة، ولا لي عليكم ذمة، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جمللاً، وتفرقوا في سواده، فإن القوم إنما يطلبوني، ولو ظفروا بي لذهلوا عن طلب غيري»^(٢)، فتفرق أصحاب الأهواء والمصالح، وبقي معه خلص أصحابه الذين يابعوه على

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٧٤. وأيضاً: الإرشاد ٢: ٧٥.

(٢) الأنماي، الشيخ الصدوق: ٢٢٠، مؤسسة البعثة، قم ط ١ - ١٤١٧ هـ. وأيضاً: روضة الواعظين، الفتال النيسابوري: ٦٨٣، منشورات الرضي، قم. وكذلك: تاريخ الطبري ٤: ٣١٧.

الموت وأظهروا من السمع والطاعة لقيادته ما يصلح أن يكون نموذجاً يُحتذى به.. كانوا يتسابقون إلى الموت، ويقولونه من الشَّهام والژمَّاح بأبدانهم. يذودون عن قائدهم كما تذود اللبوة الجريحة عن أشبالها.

الاصطدام المبكر:

سار الحسين عليه السلام مع أهل بيته وتُخلص أصحابه سيراً حثيثاً نحو العراق، ولم يفت من عضده مقتل سفيره مسلم بن عقيل (سلام الله عليه)، وغدلان أهل الكوفة له؛ فقرر المضي إلى آخر الشوط. فلما وصل على بعد مرحلتين من الكوفة، ظهرت - كما أسلفنا - طلائع دورية الحر بن يزيد الرياحي القتالية المؤلفة من ألف فارس، فقال الحسين عليه السلام للحر مستفهماً: «ألنا أم علينا؟». طرح الإمام عليه السلام هذا السؤال لأن بعض القوات كانت تلتحق في صفوف جيشه أثناء تقدمه، فقال الحر الرياحي: بلى عليك يا أبا عبد الله! ^(١)

وبعد مناقشات ومشادات كلامية بين الجانبين، حاول الإمام عليه السلام إقناع الحر بالسماح له بالمسير نحو الكوفة، وعرض عليه الكتب المرسلة إليه من زعمائها وأهل الرأي فيها. لكن الحر أصر على رفض هذا الأمر، وتمخض النقاش عن حل وسط يُرضي الطرفين؛ وهو أن يسلك الإمام عليه السلام طريقاً لا يدخله إلى الكوفة ولا يُرجعه إلى المدينة. وكانت قوات الحر

(١) لوائح الأشراف، السيد محسن الأمين: ٩٠. وأيضاً: كلمات الإمام الحسين عليه السلام.

الشيخ الشريفي: ٣٥٤، منظمة الاعلام الإسلامي، ط ٣ - ١٤١٦ هـ.

الرياحي تواكب سير قافلة الحسين (سلام الله عليه) حتى لاتحيد عن الخطة المرسومة لتحركها.

استمر الحال على هذا المتوال فترة من الزمن ثم انقلب الموقف رأساً على عقب بصدور أمر عسكري صارم من عبيد الله بن زياد يطلب فيه من الحر الرياحي أن يضيق الحصار على قوات الإمام، ويوقف حركة مسيرتها. وعين ابن زياد ضابط استخبارات عسكرية كلفه بمراقبة مدى التزام الحر الرياحي بهذا الأمر الصادر إليه، وكان النص الحرفي للأمر هو: «أما بعد، فجميع بالحسين، حين يبلغك كتابي، ويقدم عليك رسولي، ولا تنزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء، وقد أمرت رسولي أن يلزمك، ولا يفارقك حتى يأتيني بإنفاذك أمري والسلام»^(١).

قاوم الحسين ﷺ هذا الأمر الصارم بكل قوة وعزم، لكنه ابقى باب الحوار مع الحر مفتوحاً، فكلما أراد الإمام المسير كانوا يمنعونونه تارة ويسايرونه أخرى حتى بلغ كربلاء في اليوم الثاني من المحرم.

ولم يكتف ابن زياد بالقوة الضاربة المؤلفة من ألف فارس التي أرسلها في طليعة قواته مع الحر الرياحي، حتى أرسل قوةً أخرى إضافية لتشديد الحصار المضروب على قوات الإمام ﷺ، وقد بلغت هذه القوة خمسة آلاف مقاتل بقيادة عمر بن سعد، وكانت مكتملة التسليح والتجهيز، وتملك مواد الإعاشة ووسائل التمويل من غذاء وماء.

(١) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب ٣، ٢٤٦. وأيضاً: روضة الواعظين: ١٨٠ والإرشاد: ٨٣.

وعندما أخذ الحل السلمي يتضاءل رويداً رويداً، وباتت احتمالاته شبه معدومة، اقترح بعض قادة جيش الحسين الميادينيين المبادرة بالقتال، وفي هذا الصدد قال زهير بن القين: «لن يكون بعد الذي ترون إلا أشد مما ترون، يابن رسول الله، إن قتال هؤلاء البغاة أهون من قتال من يأتينا من بعدهم، فلعمرى ليأتينا بعدهم ما لا قبل لنا به».

فقال الحسين عليه السلام: «ما كنت لأبدأهم بالقتال»^(١).

وتجدر الإشارة إلى أن ابن القين لم يصل إلى قناعته بالحرب إلا بعد أن بالغ في النصيح، بحيث وصل الأمر إلى أن يُرمى بسهم من قبل الشمر بن ذي الجوشن الذي عتفه على المبالغة في نصحه، وقال له: «اسكت أسكت الله نأمتك أبرمتنا بكثرة كلامك»^(٢).

وهكذا نلاحظ بأن الإمام عليه السلام قد بالغ مع أصحابه في الدعوة إلى السلم مع الحرص الشديد على مَدَّ جسور الفهم والتفاهم مع أعدائه، وعليه كان يحجم عن إصدار أوامر القتال على الرغم من تدفق القوات المعادية من حوله كالسيول، حرصاً منه على حقن دماء المسلمين وحل النزاع بالطرق السلمية، لا سيما وأنه اتبع وسائل سلمية عديدة منها: تذكيرهم بالكتب المرسلة إليه والعهود التي قطعت له بالولاء والنصرة، كما أنه عرّفهم بنفسه وحسبه ونسبه وقربه من رسول الله ﷺ، زد على ذلك أنه عقد مباحثات مطولة مع أركان وقادة الجيش المعادي له.

(١) روضة الواعظين: ١٨٠. وأيضاً: لواعج الأشجان: ١٠٠.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ٣٢٤. وأيضاً: البداية والنهاية، ابن كثير ٨: ١٩٥. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١ - ١٤٠٨ هـ تحقيق: علي شيري.

يذكر ابن مخنف في مقتله: بأن الحسين عليه السلام كان يجلس مع ابن سعد ليلاً، ويتحدثان طويلاً حتى يمضي من الليل شطره، قال: «فتكلمنا فأطالا حتى ذهب من الليل هزيع، ثم انصرف كل واحد منهما إلى عسكره بأصعابه»^(١). وكانت أساليب الحسين عليه السلام السلمية تتقابل بنزعة حربية طاغية، ورغبة ملحة بتعجيل القتال من قبل بعض قادة الجيش المعادي كالثمر ابن ذي الجوشن الذي كان يصصر على القتال، ووضع الحد للحوار الدائر بين الجيشين، وقد استغرب الحر الرياحي من اندفاع الثمر للقتال، وتعجله للشر، فالتفت الحر الرياحي لابن سعد، وقال: «أما تقاتل أنت هذا الرجل؟»، فقال ابن سعد: «أي والله قتلاً أيسره أن تقطع الأيدي وتطيع الرؤوس» عندئذ انعقدت الدهشة لسان الحر وأصابه مثل الأفكل - أي الرعدة - ثم التحق بصوف الحسين عليه السلام^(٢).

تجدر الإشارة إلى أن موقف ابن سعد القائد الميداني كان متردداً في البداية بالقتال، وكان بين الإقدام والإحجام، ويلتمس العذر في بداية الأمر، ولكن المعغيرات التي قدمت إليه كالحصول على ولاية الزي قد قلبت قناعته رأساً على عقب؛ فزجج بخيار الحرب على السلم، وأطلق إشارة بدء القتال بسهم من قوسه.

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣١٢. وأيضاً: مقتل الحسين، أبو مخنف الأزدي: ٩٩.

(٢) الإرشاد ٢: ٩٩؛ بحار الأنوار ١١: ٤٥. وأيضاً: اللهوف على قتلى الطفوف، السيد

ابن طاووس الحسيني: ٦١، ط ١ - ١٤١٧ هـ طبعة مهر.

الأعمال التمهيدية:

أدرك الحسين عليه السلام أن القتال أصبح خياراً لا مفر منه، بعد أن تلاشت آماله في السلام المشرف، وواجه الحقيقة المرة من حيث كونه محاصراً من جميع الجهات، ومصدوداً عن الماء ووسائل التموين والإعاشة. مع كل ذلك لم يقف مكتوف اليدين بل أعد قواته للدفاع المستميت، وقام بجملة من الأعمال التمهيدية، كان من أبرزها ما يلي:

- ١- انتخب موضعاً بنى فيه مقر قيادته: أمر بفسطاط فنصب عند الصباح^(١).
- ٢- رتب موضعه الدفاعي بالعق: بعد أن وجد معسكره في أجرد البقاع عن مزايا الدفاع، فقد سيز غور الوهاد والأنجاد، وأشرف على سلسلة هضاب وروابي تليق حسب مزاياها الطبيعية بأن تتخذ للحرم والخيم، و(كانت) الروابي والتلال متدانية على شاكلة الهلال وهو المسمى «الحير» أو «الحائر». ثم أن الحسين عليه السلام رأى بجنب هذه وجنوبها رابية مستطيلة أصلح من اختها للتحصن؛ لأن المحتمي بقنائها يكتنفه من الشمال والغرب ربوات تقي من عاديّات العدو برماة قليلين من صحب الحسين عليه السلام، إذا اختبأوا في الروابي، وتبقى من جهة سمتي الشرق والجنوب جواتب واسعة، تحميها أصحاب الحسين ورجاله، ومنها يخرجون إلى لقاء العدو أو تلقي الركبان، فنقل إلى هذا الموضع حرمه ومعسكره ويُعرف الآن (المخيم).

(١) أنظر: تاريخ الطبري ٤: ٣٢١، وأيضاً: مقتل الحسين، أبو مخنف: ١١٥.

فصارت منطقة الحائر منطقة حرام (بالاصطلاح العسكري المعاصر) فاصلة بينه وبين معسكر الأعداء، وأمر أصحابه أن يقربوا البيوت بعضها من بعض، حتى تتمكن قواته من خوض المعركة بقوة أقل، ولتوقع بالعدو خسائر أكثر. قال أبو مخنف:

«قال الحسين: أما لنا ملجأ نلجأ إليه لنجعله في ظهورنا ونستقبل القوم في وجه واحد، فقلنا له: بلى هذا ذو حسم (اسم جبل) إلى جنبك تميل إليه عن يسارك، فإن سبقت القوم إليه فهو كما تريد. قال: فأخذ إليه ذات اليسار. قال: وملنا معه فما كان بأسرع من أن طلعت علينا هوادي الخيل فتبينها وعدلنا، فلما رأونا وقد عدلنا عن الطريق عدلوا علينا، كأن أسنتهم البعاسيب، وكان راياتهم أجنحة الطير. قال: فاستقبلنا إلى ذي حسم فسبقناهم إليه، فنزل الحسين فأمر بأبنية فضربت، وجاء القوم وهم ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي»^(١).

وهذا النص يثبت لنا بأن الحسين ﷺ كان يفكر تفكيراً عسكرياً راقياً، وكان لا يستبد برأيه بل يستشير أصحابه، ويسأل دائماً عن المكان المناسب لكي يتخذ كموضع دفاعي، والنص صريح - أيضاً - بأن كل طرف كان يتسابق مع الطرف الآخر ويسعى للحصول على المكان المناسب لخوض الحرب.

٣- قام بمحاولات جريئة للوصول إلى شاطئ الفرات، المحروس بقوات محصنة تحصيناً جيداً، وموزعة كمائناتها على المشرعة بصورة شبكة

(١) مقتل الحسين، أبو مخنف: ٨٢

يصعب اختراقها، ولكن المراسلين الحريين - كأبي مخنف - قد اعترفوا بأن العباس (سلام الله عليه) تمكن من اختراق صفوف القوات المكلفة بحراسة المشرعة، وجلب الماء، ولكن في محاولته الثانية لجلب الماء تمكنت الكمائن المنصوبة في طريقه من منعه من إيصال ماء القرية إلى العيال والأطفال، بواسطة قناصيهما المتشربين بين الفخيل؛ فقد أمطروه بسيل من السهام، نفذ أحدها إلى القرية وأراق ماءها، ثم أن أحد أفراد هذه الكمائن تمكن من إصابة العباس (سلام الله عليه) بعمود من حديد على هامته.

ضمن هذا السياق يُروى أن الحسين ﷺ قام - أيضاً - باختراق تحصينات وحشود العدو المنتشرة على المشرعة، ودخل الفرات، وأراد أن يشرب الماء لولا الخدعة التي منعه من ذلك، وهي: مناداة القوم عليه بأن الأعداء قد هجموا على حريمه وخيمه فكيف يهنأ يشرب الماء وقد هتكت حرمة حريمه؟

٤ - حفر عندقاً حول المخيم، وملاءه حطباً، وأضرم فيه ناراً لأجل أن تكون جبهة الحرب ضيقة ومن جهة واحدة؛ ويبدو أن «الشمر بن ذي الجوشن» كان يخطط لتطويق قوات الإمام الحسين ﷺ، وكان يحاول الالتفاف على هذه القوات من الخلف، ولكن خبرة الإمام ﷺ بشؤون الحرب وتحسبه لكل الاحتمالات قد أحبطت هذه المحاولة. ومما يعزز ذلك، نقل أبو مخنف عن الضحاك المشرقي، قال: «لما أقبلوا نحونا فنظروا إلى النار من ورائنا لئلا يأتونا من خلفنا، إذ أقبل إلينا منهم رجل يركض

على فرس فلم يكلمنا حتى مر على أبياتنا، فنظر إلى أبياتنا فإذا هو لا يرى إلا حطياً تلهب النار فيه، ففعل راجعاً. فنادى بأعلى صوته: يا حسين، استعجلت النار في الدنيا قبل القيامة؟ فقال الحسين: من هذا كأنه شميرين ذي الجوشن، فقالوا: نعم أصلحك الله هو هو، فقال: يابن راعية المعزى أنت أولى بها صلياً^(١).

وفي موقف آخر يكشف أبو مخنف تفاصيل أكثر عن خطة الدفاع التي وضعتها القيادة الحسينية عند نشوب المعارك الحربية، فيقول: «وكان الحسين عليه السلام أتى بقصب وحطب إلى مكان من ورائهم منخفض كأنه ساقية فحفروه في ساعة من الليل فجعلوه كالخندق، ثم ألقوا فيه ذلك الحطب والقصب وقالوا: إذا عدوا علينا فقاتلونا ألقينا فيه النار كيلاً نؤتى من ورائنا، وقاتلنا القوم من وجه واحد، ففعلوا وكان لهم نافعاً^(٢)»، وأيضاً مرواه أبو مخنف من أن (جبيرة الكلبي) وقيل (ابن حوزة) قال للحسين عليه السلام بعد أن وقف بإزاء الخندق: «استعجلت بالنار في الدنيا قبل الآخرة؟»..

فدعا عليه الحسين عليه السلام قائلاً: أبشر بالنار^(٣).

٥ - عقد الحسين عليه السلام مؤتمراً حريماً لقاداته وقواته: واختار الليل وقتاً لانعقاده، حتى لا تنكشف استعداداته من قبل مراصد العدو، فقد أطلعهم على الموقف العصيب الذي يواجهونه، وبيّن لهم بأن الحرب وشيكة الوقوع، وسمح لمن أراد الانسحاب منهم بالذهاب وأحلّه من بيعته، وأمر

(١) مقتل الحسين، أبو مخنف: ١١٦.

(٢) مقتل الحسين، أبو مخنف: ١١٣.

(٣) مقتل الحسين، أبو مخنف: ١٢٥.

الباقين بالصبر والجهد حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

٦- جمع الحسين عليه السلام قواته وقسمها حسب التقسيم التقليدي السائد:

إلى ميمنة وميسرة وقلب، فجعل زهير بن القين ومعه عشرون فارساً على الميمنة، يقول أبو مخنف: «وعتبا الحسين أصحابه وصلّى بهم صلاة الغداة وكان معه اثنان وثلاثون فارساً، وأربعون رجلاً، فجعل زهير بن القين في ميمنة أصحابه، وحبيب بن مظاهر في ميسرة أصحابه، وأعطى رأيته العباس بن علي أخاه، وجعلوا البيوت من ظهورهم^(١)، وأدخل الأطفال والحرم إلى الخيمة. وتمكن من ترتيب قواته؛ بحيث تبقى تحت تصرفه قوة عسكرية احتياطية يعالج بها المواقف الطارئة.

٧- أُنحج معنويات جنوده: إلى درجة أصبحوا يستأنسون بالموت والشهادة، ويستبشرون بالجنة ويعذّون الساعات إليها؛ حتى أن البعض منهم كبرير كان يضحك ويهازل وكأن شيئاً لم يكن.

كانت الميزة الأساسية لقوات الإمام الحسين عليه السلام تتمثل بالقوة المعنوية العالية، التي أثبتت كل الحروب في جميع أدوار التاريخ أهميتها البالغة في الصمود، وحول هذه النقطة يقول القائد الفرنسي (نابليون بوناپرت): «إن العامل المعنوي في الحرب أكثر أهمية من العامل المادي بنسبة ثلاثة إلى واحد».

ولعل من أبرز العوامل التي عملت على شحذ معنويات القوات الحسينية هو إحساسهم بعدالة القضية التي يقاتلون من أجلها، وكذلك

(١) مقتل الحسين، أبو مخنف: ١١٣.

حقانية ومظلومية الإمام الحسين عليه السلام، كما لعبت العبادة وخاصة الصلاة دور (الداينمو) الذي يشحن العزائم والهمم... يقول الرواة: إن الحسين عليه السلام بات وأصحابه ليلة عاشوراء ولهم دوي كدوي النحل، وكانوا بين رাকع وساجد وقائم وقاعد، فعبر إليهم في تلك الليلة من عسكر عمر بن سعد إثنان وثلاثون رجلاً^(١). ويبدو أن المعنويات العالية التي كان يتحلّى بها أفراد الجيش الحسيني جعلت بعض أفراد جيش يزيد يتيقن من صدق وحقانية جبهة الحسين؛ فالتحقوا ببجته. كما نقل الرواة أيضاً بأن الحسين عليه السلام طلب من أخيه العباس أن يحاول تأجيل القتال ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، قال له:

«فإن استطعت أن تؤخرهم إلى غد، وتدفعهم عنا العشية لعلنا نصلي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أنني كنت أحب الصلاة له، وتلاوة كتابه، وكثرة الذكر والاستغفار»^(٢).

يبدو أن الحسين عليه السلام يريد بذلك إضافة إلى الجانب العبادي أن يُؤجج العامل المعنوي في نفوس مقاتليه القليلي العدد والعُدّة، ليصمدوا في المعركة غير المتكافئة التي يخوضونها. وهذا النص يثبت ضرورة الإكثار من الصلاة والذكر كأساليب ضرورية لجند الإسلام عند خوض الحرب.

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ٥٧، وأيضاً: أنصار الحسين، الشيخ محمد مهدي شمس الدين: ٥٥، الدار الإسلامية، ط ٢ - ١٤٠٦ هـ.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير ٨: ١٩٦، وأيضاً: إعلام الوري بأعلام الهدى، الشيخ الطبرسي ١: ٤٥٥، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، قم، ط ١ - ١٤١٧ هـ.

سير القتال:

يمكن تقسيم واقعة الطف - حسب التعبير العسكري المعاصر - إلى صفحتين قتاليتين هما:

أولاً: صفحة القتال الأولى: القتال الجماعي:

ابتدأت المعركة عندما تقدم عمر بن سعد نحو معسكر الحسين (ع) وأطلق سهماً باتجاهه وقال: «اشهدوا لي عند الأمير أنني أول من رمى، فقال الحسين (ع): قوموا إلى الموت الذي لأبد منه، فنهضوا جميعاً والتقى العسكران الرجالة مع الفرسان واشتد الصراع»^(١).

ثم أقبلت السهام ترشق أصحاب الحسين (ع) كأنها المطر، عندها قال الإمام القائد لأصحابه: «إن السهام هي رسل القوم إليكم. فاقتلوا ساعة من النهار حملة وحملة»^(٢).

بعدها أصدر الشمر بن ذي الجوشن - وهو من أبرز قادة أركان الجيش الأموي - أوامره بالهجوم الجماعي عندما قال: «احملوا عليهم حملة رجل واحد.. وأفتوهم عن آخرهم».

وصف أبو مخنف - المراسل الحربي بلمة اليوم، ضراوة المعركة، فقال: «...وقاتلوهم حتى انتصف النهار أشد القتال، وأخذوا لا يقدرّون على أن يأوهم إلا من وجه واحد لاجتماع أبنيتهم وتقارب بعضها من بعض، قال: فلما رأى ذلك (عمر بن سعد) أرسل رجلاً يقوضونها - أي يهدمون

(١) مشير الأنحزان، ابن نما الحلبي، ٤٦.

(٢) اللهوف في قتل الطغوف، السيد ابن طاووس، ٦٠.

البيوت - عن أيمانهم وعن شمائلهم ليحيطوا بهم، قال: فأخذ الثلاثة والأربعة من أصحاب الحسين يتخللون البيوت فيشدون على الرجل وهو يقوِّض وينتهب فيقتلونه من قريب ويعقرونه، فأمر بها (عمر بن سعد) عند ذلك فقال: أحرقوها بالنار ولا تدخلوا بيتاً ولا تقوضوه، فجاءوا بالنار فأخذوا يحرقون. فقال الحسين عليه السلام: دعوهم فليحرقوها فإنهم لو قد حرقوها لم يستطيعوا أن يجوزوا - أي يصلوا - إليكم منها، وكان ذلك كذلك. ويضيف أبو مخنف: وأخذوا لا يقاتلونهم إلا وجهاً واحداً^(١)، لاحظ كيف أن الحسين القائد كان يخطط بمنتهى الحكمة، ويضع بنظر الاعتبار معالجة خطط وأفكار الشمر (لعنه الله)، وكيف أنه أراد أن يكون اتجاه المعركة من وجه واحد، مراعيًا قلة عدد قواته. وحماية لنسائه وأطفاله من أن يعتدى عليهم، أو يقمن رهينة بيد عدوه.

ومع النقص الشديد في عددهم قاتل جند الحسين ببسالة متقطع النظير، وبالنتيجة سقطوا في ساحة الوغى بين شهيد وجريح؛ وذلك لشدة قصف السهام وكون ميدان القتال بالنسبة لأصحاب الحسين عليهم السلام المحاصرين ضيقاً لا يتسع للانتشار والتبعثر الذي يقلل - عادة - من الخسائر في الأرواح.

ثانياً: صفحة القتال الثانية: المبارزة الفردية:

ابتدأت بتوجه العر الرياحي بعد التحاقه بصفوف قوات الإمام

(١) مقتل الحسين، أبو مخنف: ١٤١.

الحسين عليه السلام يطلب الإذن له بالبراز، قال للحسين عليه السلام:

«إذا كنت أول من خرج إليك وجمع بك فأذن لي بأن أكون أول من يبرز للقتال بين يديك». فبرز إلى الميدان وهو القائد الحربي المجرب فأخذ يفتك بقوات العدو، ويتوغل بين صفوفها في العمق مما أوقع في صفوفها خسائر فادحة بين قتيل وجريح ثم استشهد عليه السلام.

بعدها برز برير بن خضير منفرداً إلى الميدان شاهراً سلاحه، فخرج في مقابلة يزيد بن المفضل فانفقا على المباهلة إلى الله تعالى في أن يقتل المحق منهما المبطل، وتلاقيا فقتله برير الذي استمر يجندل أفراد العدو إلى أن قُتل.

ثم خرج وهب بن جناح الكلبي مبارزاً وكانت معه امرأته ووالدته، وبعد أن أجهده التعب، واشتد به العطش رجع إليهما وقال:
يا أم أَرْضِيَتْ أم لا؟ فقالت الأم: مَرْضِيَتْ حتى تُقْتَلَ بين يدي الحسين. وقصته الكاملة مدونة في كتب المقاتل. ونحن قد اقتصرنا على موضع الحاجة وخاصة فيما يتعلق بالجانب العسكري.

استمرت المبارزة الفردية وخرج عندئذ مسلم بن عوسجة، فسقط على الأرض مضرجاً بدمه وبه رمق، فمضى إليه الحسين القائد ومعه حبيب بن مظاهر. فأوصى مسلم بن عوسجة حبيباً بأن يقاتل دون الحسين حتى الموت.

ثم خرج عمر بن قرطبة الأنصاري، وكان قد جعل من جسده درعاً يتقي به السهام والزجاج التي تنهال على الحسين عليه السلام كالمطر فلا يأتي إلى الحسين عليه السلام سهم إلا اتقاه بيده، ولا سيف إلا تلقاه بمهجته، فلم يكن يصل

إلى الحسين القائد سوء حتى أُلْحِنَ بالجراح؛ عندئذ التفت إلى قائده الحسين عليه السلام وقال له: يا بن رسول الله أوفيت؟ فقال الحسين القائد: نعم أنت أمامي في الجنة^(١).

ولم يقتصر القتال على الأحرار من الرجال، بل شارك فيه العبيد عندما برز جون مولى أبي ذر إلى الميدان وكان عبداً أسود.

فقال له الحسين عليه السلام أنت في إذن مني، فإنما تبعنا طلباً للعافية. فرفض القعود بإصرار، وله كلمات معبرة يذكرها أرباب المقاتل، تدل على الوفاء والإباء.

بعدها برز من تبقى من الانتصار واحداً بعد الآخر حتى ذاقوا الحمام، وبقي مع الإمام الحسين عليه السلام أهل بيته وهم يدورهم وردوا الميدان ابتداءً من ولده علي الأكبر إلى أخيه وقائد أركان حربه أبي الفضل العباس (سلام الله عليه)، وانتهاءً بابن أخيه عبد الله بن الحسن بعد أن سبقه إلى الشهادة أخوه القاسم بن الحسن عليه السلام، وفي نهاية المطاف لم يسلم من القتل حتى الطفل الرضيع عبد الله بن الحسين الذي أصبح هدفاً لحزمة بن كاهل الأسدي؛ وكان من أبرز القناصين وأكثرهم دقة في إصابة الهدف، فسدد رميته إلى نحر الرضيع فذبحه من الوريد إلى الوريد وهو على صدر والده.

لقد سطر أولاد الحسن والحسين عليهم السلام ملاحم بطولية رائعة، وعلى سبيل الاستشهاد لا الحصر: أراد عبد الله بن الحسن أن يدافع عن عمه الحسين عليه السلام وهو جريح واتقى ضربةً وجهت للإمام المطروح بيده

(١) مقتل الحسين، أبو مخنف، ١٣١.

فقطعتها إلى الجلد، ثم رماه حرمة بسهم فذبحه وهو في حجر عمه. بعدها استمر القتال الفردي بالسلاح الأبيض بعد تصفية القاعدة إلى القيادة؛ فبادر الحسين القائد إلى البراز فلم يزل يُقاتل كل من برز إليه حتى قُتل - كما يصف الرواة - مقتلًا عظيمًا. فقد وصف أحد الرجال الذين شهدوا معركة الطف حال الحسين عليه السلام وهو يخوض غمار الحرب، فقال: «والله ما رأيت مكثوراً قط قُتل ولده، نشد عليه الرجالة، فيشد عليها بسيفه فتتكشف عنه انكشاف المعزى إذا شد عليها الذئب، وكانوا ينهزمون بين يديه. واستمر الحال على ذلك المنوال حتى أنخن بالجراح وأصبح جسده كالقنطرة»^(١)، وكان يقوم بدور حربي مزدوج فمرة يشن هجوماً مقابلاً، ومرة أخرى عند اشتداد العطش وتزايد الطعان يتمسك بموقف الدفاع كان يحمل عليهم ويحملون عليه، وهو مع ذلك يطلب شربة من ماء فلا يجد حتى أصابه اثنان وسبعون جراحة، فبينما هو واقف إذ أتاه حجر فوقع على جبهته فأخذ الثوب لي مسح الدّم عن جبهته، فأثاه - حسب وصف الراوي المذكور - سهم مسموم له ثلاث شعب فوقع على قلبه، ثم أخرج السهم من وراه ظهره، فانبعث الدم كأنه ميزاب فضعف عن القتال^(٢).

ولما أحس القوم بضعفه حملوا على مقر قيادته، فطعن السهم فسطاط الحسين عليه السلام بالرمح وقال: علي بالنار احرقه علي من فيه. فقال الحسين عليه السلام:

(١) روضة الواعظين، القتال النيسابوري: ١٧٩، والإرشاد ٢: ١١١، وأيضاً: بحار الأنوار ٤٥: ٥٠.

(٢) اللّهُوف في قتلى الطفوف: ٧١، لواعج الأشجان، السيد محسن الأمين: ١٨٧.

يا بن ذي الجوشن أنت الداعي بالنار لتحرق عليّ أهلي؟ أحرقت الله بالنار^(١).
أما الطعنة القاضية التي وجهت للحسين عليه السلام فكانت من قبل صالح بن وهب، حيث سدّدها إلى خاصرته، فسقط عندئذ عن فرسه إلى الأرض على خذه الأيمن، بعدها أصدر الشمر أمراً يطلب فيه الإجهاز الجماعي على الإمام عليه السلام قائلاً لأصحابه: «مانظرون بالرجل؟؟».. فحملوا عليه من كل جانب، وأفرغ كل منهم حقه: إما بطعنه برمح أو رميه بسهم أو ضربه بسيف، أو رشقه بحجر.

بعد ذلك احتزوا رأسه الشريف، وتسارعوا إلى سلب ملابسه، ثم تسابقوا على نهب ما في رحله؛ حتى جعلوا ينتزعون ملحقة المرأة عن ظهرها^(٢).

وهذه هي مصاديق الحرب غير العادلة التي لاتتطابق مع الأعراف والقواعد الإنسانية التي توجب احترام الأموات وعدم التمثيل بهم، كما توجب احترام حياة وأملاك الأبرياء وحسن معاملة الأسرى وعدم التعرض بسوء لغير المقاتلين وخاصة النساء والأطفال والمرضى.

ويقتضي التنويه إليه على أن ماتطرقنا إليه من دروس عسكرية هو غيض من فيض، فالدروس العسكرية والمواقف الحربية التي تمتعنت عن معركة الطف القصيرة كثيرة وغنية بالعبر والتجارب. وهذه المعركة الفنية بالدروس نستفيد منها في صراعنا ضد القوى الغاشمة والمتجبرة؛ حيث نخرج بنتيجة حاسمة وهي: أن الدم سوف يتصر على السيف، وأن أبواب

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٤٦. وأيضاً: مقتل الحسين. أبو مخنف: ٢٠٠.

(٢) اللهوف (فارسي)، ٧٧. دفتر نشر نوين اسلام. ترجمة: عبد الرحم بخشايشي.

القوة لاستطيع كتم صوت الحق، وأن المعركة لا تقاس من الناحية العسكرية بعدد الخسائر بالأرواح، بل تقاس بالحصول على هدف القتال المستقبلي والمعنوي المتمثل بفضح سياسة وأساليب القوى المتجبرة تمهيداً لإسقاطها.

خلاصة البحث:

أفرزت واقعة الطف على قصرها دروساً قتالية تستحق البحث والدراسة، ونحن في هذه الدراسة الموجزة، نحاول تسليط الأضواء على بعض تلك الدروس والمواقف، ومنها: أن القائد يضع خطته وفقاً للمعلومات التي يتمكن من الحصول عليها. والإمام الحسين عليه السلام كقائد ميداني كان يسعى جاهداً للحصول على المعلومات أولاً بأول عن عدوه، والملاحظ أنه اتبع ثلاثة أساليب أساسية:

الأسلوب الأول: استنطاق المسافرين والاستفسار منهم.

الأسلوب الثاني: المكاتبات.

الأسلوب الثالث: الاستطلاع.

ولما أدرك الحسين عليه السلام أن القتال لأمير منه، قام بهجمة من الأعمال

التمهيدية:

١- انتخاب موضعاً بنى عليه مقر قيادته.

٢- رتب موضعه الدفاعي بالعمق.

٣- قام بمحاولات جريئة للوصول إلى شاطئ الفرات.

٤- حفر خندقاً حول المخيم وأشعل النار فيه.

٥- عقد مؤتمراً حريياً لقاداته وقواته.

٦- قسم قواته حسب التقسيم التقليدي إلى ميمنة وميسرة وقلب.

٧- أخرج معنويات أصحابه، وطهر قواته من أصحاب المطامع والأهواء. كما يمكننا تقسيم واقعة الطف إلى صفحتين قتاليتين: أولاً: صفحة القتال الجماعي.

ثانياً: صفحة المبارزة الفردية. وتفصيل كل ذلك في صفحات المقالة.



القيّمة و الباراغماتية في صراع الطف

صادق جعفر الروازق

المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام قم المقدسة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة:

لم يكن صراع الطّف حدثاً تاريخياً عابراً، شبيهاً بباقي الصراعات والوقائع الحربية القبلية المجزدة من الحيثيات الفكرية، بل جسد الطّف أعلى مراحل صراع القيم، ولا يصحّ الوقوف على المسفردات القيمية والبراغماتية (النفعية والمصلحية). في واقعة الطّف دون استحضار أصولها التاريخية ومنذ عصر ما قبل الرسالة.

فقد كانت أولى المصاديق هي استحكام العداء بين بني هاشم وبين عبدشمس، عندما تولّى (هاشم) زعامة مكة وعامة العرب مع المهمة التي تلازمها (سدانة الكعبة) فقد نازعه عليها ابن أخيه أمية بن عبدشمس وأدعاها لنفسه، وانتهى الخلاف بعد قبول هاشم بالتحكيم إلى الكاهن الخزاعي الذي شرط خمسين ناقة لصاحب الحق وإبعاد المغلوب عن مكة عشرين عاماً. فكانت نتيجة التحكيم لمصلحة هاشم، فاستلم من ابن أخيه الإبل ونحرها إلى الحجاج الوافدين وخرج أمية من مكة إلى الشام^(١).

وقد عُرف هاشم بأمانته وأخلاقه وإدارته الحكيمة لشؤون عرب الجزيرة في الوقت الذي لم يُعرف عن أمية بن عبدشمس بمثل هذه

(١) سيرة المصطفى، هاشم معروف الحسيني: ٣٠٥.

القابليات والسجاية، فكان عامل الحسد والغيرة لديه مفاهيم لا قيمة تجسدت بوضوح في خلافه مع عمه هاشم، والأتكي أن عبدشمس ذهب إلى (النجاشي) ليجدد العهد بينه وبين القرشيين، كما توجه نوفل بن عبدمناف إلى العراق للاتصال بكسرى، فهم يحاولون استعلاء الامبراطوريتين الرومانية والفارسية على بني هاشم، ولكن لم يكتب لهما البقاء الطويل، فقد توفي عبدشمس بعد أيام من رجوعه إلى مكة، وتوفي نوفل في موضع يقال له (سلمان)، فقام المطلب ابن عبدمناف بالزعامة بعد أخيه هاشم. وتنهى للزعامة شعبة بن هاشم بعد أن ترى في حجر عمه المطلب واشتهر باسم (عبدالمطلب).

وقد تهيأت لعبدالمطلب مقومات الزعامة ما لم تنتهياً لغيره حتى من أسرته (فقد حفر زمزم وسقى المكيين والحجاج من مائها ولم يستأثر به على أحد، ومضى على شريعة إبراهيم الخليل هو وجماعة من قومه، وصادف أن أبرهة ملك الحبشة غزا مكة بجنود وحشود لا يقبل للمكيين بها، واستخدم الفيلة في غزوته هذه ليرهب المكيين، وكان من قصده هدم الكعبة، فذب الذعر والخوف بين المكيين واعتصموا بالجبال وبطون الأودية خوفاً على أنفسهم وأموالهم، ولكن عبدالمطلب بقي معتصماً بجوار البيت عظيم الثقة بربه واثقاً بأن الله سبحانه لا يتخلى عن من اعتصم به والتجأ إليه).

فضلاً عما امتاز به بنو هاشم من سمات قيمة عالية أودت إلى أن يدب الحقد والحسد في صفوف مناوئهم، وبالأخص في نفوس أبناء

عمومتهم، فجد عبدالمطلب بذلك خصلة أخرى جعلت قلوب المكيين والعرب أكثر انشداداً وطاعة له، بعد أن أثبت ثقة عظيمة بربه وشجاعة منقطعة النظير لموقف صلب قلماً يهدي له الإيمان، وهو يرى عظمة الجيوش الغازية لببيت الله فأبى إيمانٍ مطلق لرجل آمن بربه غير مستوحش من هول المصاب وجلالة الحدث؟! وقد أشار الدكتور وطه حسين إلى هذا الموقف قائلاً: (لقد أظهر عبدالمطلب من الصبر والجلد والشجاعة والثقة بالله ما لم يظهر من أحد سواه من أشراف المكيين والقرشيين؛ فكان لذلك أثره البالغ عند عامة العرب مما ضاعف ثقتهم به، فانتسعت زعامته خارج مكة، وظل هذا الحادث حديث الناس زمناً طويلاً...)^(١).

وهذا مما جعل خصومه ينطون على أنفسهم، يعيث فيها الحقد والحسد، ويرتصون به الوقعة والخديعة.

فالوقوف على زعامة عبدالمطلب لوحدها، نرى أنها مثلت مرحلة متقدمة جداً في صياغة المنظومة الفكرية القيمة لأسرة بني هاشم، ولا عجب أن تتنافى موازية لها منظومة أخرى من التحلل الفكري والقيمي عند حشادهم من بني عبدشمس والآخرين من العرب.

واختصاراً للبحث نترك الكثير من الشواهد التاريخية التي تؤكد صراع المنظومتين، سواء كان منها في عصر ما قبل الرسالة أو ما تكاثر

(١) مرآة الإسلام، طه حسين.

منها في بدء رسالة الرسول ﷺ، ولكن نقف على ما تجلّى من صور الصراع بعد وفاة الرسول ﷺ وأوليات المؤامرة في أحداث السقيفة، لأن أبطالها هم من رجالات الإسلام الأوائل، ومن خاض مرارات الحروب والجهاد بين يدي الرسول ﷺ وقد أكد علي عليه السلام هذا المعنى بقوله: «لم يموتوا على الله بالصبر، ولم يستعظموا بذل أنفسهم في الحق، حملوا بصائرهم على أسياقهم، ودانوا لربهم بأمر واعظهم».

ولكن نرى أن الإسلام لم يكن بكامل مبادئه وعقائده راسخاً بشكله المطلق في نفوسهم، فوقائع السقيفة أكدت أن الانتصار إلى إحدى المنظومات الفكرية واقع واضح وصريح في الممارسة، فلم يستطع القوم إضفاء معالم النظرية اللاقيمية أمام النص القرآني وسيرة الرسول، وانتهى الأمر بإبعاد صاحب الحق ومن نصت عليه الكلمات القدسية ووصايا الرسول والتنصيب الغديري.

وتعتبر السقيفة أول بادئة خطيرة من عمر الإسلام، مهدت لصراع الطّف؛ فقد أُمسئ الخليفة (عمر) عشية دفن جثمان النبي ﷺ في غضب وهيجان وتهديد ووعيد، وعيدٌ بالحريق، حريق لبيتهم البيت وقرن فيه، وإن كان فيه فاطمة بضعة الرسول ﷺ وسيدة نساء أهل الجنة، والحسنان ريحانته سيّد شباب أهل الجنة، وكفيلهم أخو رسول الله؛ هؤلاء هم الذين ياهل النبي بهم وفود التصاري، وهم الذين أدار عليهم النبي كساءه وقال:

«اللهم هؤلاء أهل بيتي...»^(١)!! هكذا ظهر الأمر في ساعاته الأولى وكأنته انقلاب طارئ أكثر عنفاً مما عرفته البشرية من الانقلابات، أو ما يصطلح بالثورات البيضاء؛ فأتضح للرجل منهجه الخاص في استخدام القسوة والعنف، وباتت السقيفة ذريعة لرجال العهد اللاحقة، فحورب علي عليه السلام حروباً نكراء شرسة، تطاحن فيها المسلمون وتصارعت منها المنظومتان ولكن تحت يافطة الإسلام، تذرعاً وتحججاً بالتأويل وقدرة الاجتهاد؛ ففتحت الحروب باباً واسعاً أمام معاوية بن أبي سفيان، وصار يتذرّع صراحة بما كان من إقصاء علي عليه السلام عن الخلافة من رسالة مخاطب فيها علياً عليه السلام^(٢)، ثم عاد بمثل ذلك في خطاب آخر مع الإمام الحسن عليه السلام^(٣).

وهكذا يعلن معاوية معالم منهجه وليس مبالياً لما سمعت أذناه منذ حجة الوداع: «ألا أيها الناس، إنما أنا بشر، يوشك أن أدعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسكتكم بهما لن تضلوا بعدي، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإني ما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض».

أو قوله عليه السلام: «من كنت مولاه، فعلي مولاه...».

أو «علي مع القرآن، والقرآن مع علي، لن يفترقا حتى يردا علي الحوض».

وقد أكدها عمر بن الخطاب قبل رسائل معاوية إلى علي عليه السلام فكان

(١) صحيح مسلم ٤: ١٨٨٣ ح ٢٤٢٤.

(٢) أنظر جواب الإمام علي عليه السلام على رسالة معاوية، نهج البلاغة: ٣٨٥ - ٣٨٨، الكتاب رقم ٢٨.

(٣) مقاتل الطالبين: ٦٧.

قوله أدق تعبيراً وأوضح منهجاً لمنظومته الباراعماتية (اللاقيمية)، وهو يقول: (كرهت قریش أن تجتمع فيكم النبوة والخلافة)^(١) وإن كان (عمر) و (أبويكر) ليسا من بني عبدشمس إلا أنهم شركاء فيما آل إليه أمر الأمة في ربع قرن بعد غياب الرسول ﷺ.

ومن خطبة لملي ﷺ يقسم أصحاب من تقع عليهم المسؤولية فيقول ﷺ:

«... حتى إذا قبض الله رسوله ﷺ رجع قوم على الأعقاب، واتكلوا على الولاة، ووصلوا غير الرحم، وهجروا السبب الذي أمروا بمودته، ونقلوا البناء عن رض أساسه؛ فبنوه في غير موضعه».

ثم يقول ﷺ: «معادن كل خطية، وأبواب كل ضارب في غمرة، قد ماروا في الغيرة، وذهلوا في السكر، على سب من آل فرعون: من مُنقطع إلى الدنيا راكن، أو مفارق للدين مبين»^(٢).

فيتضح من تقسيم قول الإمام ﷺ ثلاث طوائف براغماتية هي:

١ - طائفة: (رجعت على الأعقاب...) فيجعلهم المرتدين، وهو ليس الارتداد في الدين، ولكن هجر السبب الذي أمروا بمودته، ونقل البناء عن رض أساس، وبتأؤه في غير موضعه.

٢ - طائفة: (وصلوا غير الرحم وهجروا السبب...) وهؤلاء هم الذين

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٢٢ - ٢٢٣، الكامل في التاريخ ٣: ٦٣، شرح نهج البلاغة ١٢: ٥٣، ٩.

(٢) نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٢٠٩ خ ١٥٠.

تركوا أهل البيت، ونقلوا الخلافة منهم ووضعوها في غيرهم منذ قبض الله رسوله.

٣- طائفة: (معادن كلّ خطيئة...) وهم بنو أمية ومن انتظم في مسلكتهم.

الأمة وغياب الموقف:

كان على الأمة أن تبايع علياً عليه السلام، بلا تنازع، وهو الأمر الذي كان يرتقيه علي عليه السلام بقين، وتنظره أمة المهاجرين والأنصار طالما كانت أمة الإسلام لا تردد في أداء البيعة ولا أداء الزكاة، فكان علي عليه السلام متيقناً من حقه في الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، انطلاقاً من موقعه الممتاز عند الرسول صلى الله عليه وآله ومن حياته الخالصة النقية في الإسلام، فلقد كان في حياة الرسول يقول: «إن الله يقول: (أفان مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم) والله لا تنقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، والله لئن مات أو قُتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت، والله إني لأخوه ووليه وابن عمّه ووراث علمه، فمن أحقّ به مني؟»^(١).

ولكن لاحظ ما يقوله عليه السلام، حينما انتهت أمر الخلافة إلى أبي بكر: «فلما مضى صلى الله عليه وآله تنازع المسلمون الأمر من بعده، فوالله ما كان يلقي في روعي ولا يخطر ببالي أن العرب تُزعج هذا الأمر من بعد عن أهل بيته! ولا أنهم مُنحَوه من بعده! فما داعني إلا اتّبال الناس على فلان يبايعونه...»^(٢).

(١) المستدرك ٣: ١٢٦، مجمع الزوائد ٩: ١٣٤.

(٢) نهج البلاغة، ج ٣ / خطب الإمام علي عليه السلام ص ١١٩.

ولم يكن موقف الأمة موقفاً صائباً في بيعتها للخليفة الأول وترك علي عليه السلام، ولا أعتقد بما ساقه بعض المؤرخين في الدفاع عن موقف الأمة نتيجة ممارسات السلطة الحاكمة الجديدة من أساليب التهريب والترغيب، وما عرف عن خشونة وقساوة (مر) سيباً وجيهاً لوحده في ابتعاد الأمة عن علي عليه السلام وإتباع الروسخ الضعف الإيماني في داخلها، وقلة الوعي لديها وعدم بلوغها درجة النضج الحقيقي الذي من الممكن أن يستثمره علي عليه السلام في استرجاع حقه، لذا ترك علي عليه السلام حقه، كما ترك الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حقه في كتابة (الكتاب) عند اختلاف الصحابة في حضرته وهو في ساعة الاحتضار، فترك الخيار للأمة تمارس دورها حتى تصل مرحلة النضج الذي يؤهلها لاختيار من هو أفضل وأصلح لها. فبعد تجربة مريرة لثلاثة خلفاء انثالت الأمة على علي عليه السلام، فكان خياراً جماهيرياً، بل هو أول خيار جماهيري في الإسلام حتى قال علي عليه السلام: «فما راعني إلا والناس ينثالون علي من كل جانب، حتى لقد وُطئ الحسان وشُقَّ عطفائي» ثم يصف عليه السلام بيعة الناس له مع تصميمه على أن لا يستجيب لهم: «وبسطتم يدي فكففتها، وحددتموها، فقبضتها، ثم تداككتم علي تذاك الإبل الهيم على حياضها يوم وردها، حتى انقطع النحل وسقط الرداء ووطئ الضعيف...».

وقبل أن يستجيب عليه السلام لبيعتهم وضعهم أمام ما سوف يحدث لهم من أصحاب الغد مع توضيح معالم سياسته: «دعوني والتمسوا غيري، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول وإن الآفاق قد أغامت، والمحجة قد تنكرت، واعلموا أنني إن أجبتكم، ركبت فيكم ما أعلم، ولم أصغ إلى

قول القائل وعتب العائب «كلّ هذا والجماهير بقيت مصرة على بيعته، وقد كان في قلوبهم لهذه البيعة وقع ليس له نظير: «وبلغ سرور الناس بيعتهم إني أن ابتهج بها الصغير، وهدج إليها الكبير، وتحامل نحوها العليل، وخسرت إليها الكعاب...».

لم تكن البيعة الجماهيرية لخلافة علي عليه السلام ناجمة من تخلص الأئمة وانتصارها على ذاتها من عقدة الهزيمة الأخلاقية التي صاحبها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، وتزعّم ثلاثة خلفاء، وهي تعلم بأحقّية علي عليه السلام في الخلافة، كونه سبباً جوهرياً لهذه البيعة؛ وإتّما الواقع لم يكن هناك منافس حقيقي لعلي عليه السلام، ولو كان لانشقت الأئمة على نفسها، ولم تحصل مثل هذه البيعة مع كامل علمهم ومعرفتهم بأحقّيته عليه السلام بها.

وهذا ناجم من طبيعة عدم إلمامهم ومعرفتهم بأصل الإمامة ومفهومها وحدودها وحكمها، وهذا ما تؤكّده أحداث حروب النهروان والجمل وصفين فيما بعد.

ففي فترة عثمان بن عفّان - وهي الفترة الأكثر وضوحاً للانحراف القيمي - استطاع الأمويون أن يسلبوا الأئمة إرادتها، وأن يسود الفساد إدارياً واقتصادياً وسياسياً وسط المجتمع الإسلامي، مع وجود علي وأصحابه في هذا المجتمع. ورغم نصائح علي عليه السلام وصرخات أبي ذر وامتعاض الصحابة إلا أن عثمان كان غير مبالي بهم، بل كان مستبداً برأيه دكتاتورياً بحكمه، (يهضم مال الله هضم الإبل لبنية الربيع). وما أن قُتل عثمان وحصلت البيعة الجماهيرية للإمام علي عليه السلام حتى سارع الأمويون إلى تأليب الوضع

الداخلي ضد علي عليه السلام، بعد أن استطاعوا توظيف بعض الصحابة المعروفين بسابقتهم وجهادهم مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وقربهم ونسبهم منه ومن ابن عمه علي عليه السلام، فكانت أشد هزيمة أخلاقية يتعرض لها المجتمع الإسلامي.

وبعد مؤامرة قتل الإمام وشهادته عليه السلام استطاع معاوية أن يحول مفهوم الخلافة إلى سلطة كسروية أو امبراطورية هرقلية، وبمحاولات ذكية أراد أن يصطيغ حكمه بصيغة شرعية؛ فقد حاول أن يوظف صلح الإمام الحسن عليه السلام بأنه اعتراف رسمي وشرعي من آل البيت عليه السلام لخلافته وسياسته، فشهد عهد معاوية بن أبي سفيان سياسة التكريع والإذلال والارهاب والترغيب والمكر والخديعة وفقدان الإرادة والمفسدة الكبيرة في وسط الأمة، وتحللها وانسلاخها من قيمها ومبادئها فضلاً عن ممارسات تسطيح الوعي وبث الأفكار الثقافية الانهزامية، وترسيخ فكرة «آل أبي طالب عليه السلام هم أسرع ما يكونون إلى سفك الدماء» كما قالها ابنه يزيد من بعده أيضاً، طالما إن الإنسان توافّق في طبيعته إلى السكينة والهدوء، فبمثل هكذا استطاع معاوية وابنه يزيد أن يسلبا إرادة المجتمع، ويسلبا كلّ مقومات النظرية القيمية وسبل الخير والإصلاح من وسطه ابتداءً من قتل بعض الخيرين الصالحين من الصحابة، وانتهاءً بتنصيب وتأمير الفسقة والمتحلّلين على أمور المسلمين.

علي عليه السلام وكشف المنهج الباراغماتي:

ليس هناك أدق وأوضح صورة، وحجة لا يشوبها التأويل من قول

عليه السلام وهو يصف بشقشقيته المنهج الباراغماتي لدور الخلفاء الثلاثة في اغتصاب حقه من الخلافة فيقول عليه السلام: «أما والله لقد تقصصها فلان، وإنه يعلم أن محلي منها محل القطب من الزحى...» واللطيف في التفسير ما ذهب إليه الشيخ محمد جواد مغنية: (ما هذا؟ هل هو حرقه وتلفه على الخلافة، كما يترأى للأغبياء؟ حاشا لمن قال: «إن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها». وكلنا يعلم أن علياً يفعل ما يقول، ولا يقول ما لا يفعل، وإن فمها هو السر لهذه الشكوى وهذا التظلم؟ السر واضح، لا إيهام فيه - والقول للشيخ مغنية - إنه نفس الشيء الذي أشعر به أنا وأنت، وكل إنسان حين ينتهب ثوبه عن بدنه ناهب أو غاصب، تقول هذا مع الإيمان والعلم بأن علياً أحرص على مصالح الناس من الناس أنفسهم، وأنه لا يرضى ولا يغضب إلا لله وحده... هذا، إلى أنها نفثة مصدور هدرت ثم قزت.)^(١)

ثم يستمر الإمام عليه السلام في توضيح آية المنهج الباراغماتي في تناقل الخلافة: «...أرى ترابي نهياً حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى فلان بعده

شان ما يومي على كورها ويسوم حيان أخى جابر

فيا عجباً! بنا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته لشدة ما تشطراً ضرعها، فقصرها في حوزة غشاء يلفظ كلمها ويخشن منها ويكثر العثار فيها والاعتذار منها، فصاحبها (لاحظ، حالة المجتمع الإسلامي آنذاك) كراكب الصعبة إن أشق لها حزم، وإن أسلس لها تقم فمني الناس لعمر الله بخبط وشماس

(١) في ظلال نهج البلاغة، محمد جواد مغنية ج ١: ٨٤.

وتلّون واعتراض، فصبرت على طول المدة وشدة المحنة...».

فهذا أبلغ صورة لهذا المنهج الذي قاله عليه السلام حول تجمع ما يسمى بالشورى واختيار عثمان؛ وهو يصف التحالفات المُسبقة وآلية الانتخاب ونوعية الحضور نسبهم القرابي مع بعضهم فيقول عليه السلام:

«حتى إذا مضى لسيله، جعلها في جماعة، زعم أنني أحدهم، فيالله وللشورى متى اعترض الزبّ فيّ مع الأوّل منهم حتى صرت أقرب إلى هذه النظائر، لكنني أسففتُ إذ أسفوا وطرّت إذا طاروا، فصفى رجلٌ منهم نصفه ومال الآخر لصهره مع هـن وهن إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حُصينه بين نثيله ومعتله، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل لبنة الربيع إلى أن انتكث قتلته، وأجهز عليه عمله وكبت به بظنّه».

ومن خطبة أخرى له عليه السلام، يصف فيها معاوية وسياسته العدائية تجاه المنهج القيمي: «أما إنّه سيظهر عليكم بعدي رجلٌ رحب العلوم مندحق البطن يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد، فاقتلوه ولن تقتلوه، ألا وإنّه سيأمركم بسّي والبراءة منّي، فأما السب فستوني فإنّه لي زكاة ولكم نجاة. وأما البراءة فلا تتبرأوا منّي فإنّي ولدت على الفطرة، وسبقت إلى الإيمان والهجرة»^(١).

ومن خطبة له أيضاً عليه السلام وهو يكشف فيها ما هو أخطر من الحُكام الظلمة، أولئك هم الزّهاد الدّجالون الذين يتظاهرون بالزهد رياءً ونفاقاً، حتّى إذا تقربوا من الطغاة كانوا لهم أعواناً وأنصاراً، فيقول علي عليه السلام في وصفهم: «ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد

(١) في ظلال نهج البلاغة، محمد جواد مغنّية ج ١: ٦٠٣.

طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمر من ثوبه، وزعر من نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية»^(١).

الحسين عليه السلام وكشف المنهج الباراغماتي:

الحسين يواجه معاوية

عندما أراد معاوية تنصيب يزيد، أشير عليه بالذهاب إلى المدينة، وعرض الأمر على آل البيت عليهم السلام حتى يستطيع أن يكسب لحكم ابنه (يزيد) الشرعية، عمل معاوية ذلك وبينما هو يعرض الأمر ويضفي الألقاب والكنى الفخمة على ابنه، وإذا بالإمام الحسين عليه السلام يلقي خطبته موعظاً ومتحدياً لمعاوية:

«أما بعد يا معاوية، فلن يزدي المادح وإن أظن في صفة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقد فهمت ما لبست به الخلف بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من إيجاز الصفة، والتكبر عن استبلاغ النعت، وهيات هيات يا معاوية! فضح الصبح فحمة الدجى، وبهرت الشمس أنوار السرج، ولقد فضلت حتى أفرطت، واستأثرت حتى أجهفت، ومنعت حتى بخلت، وجرحت حتى تجاوزت، ما بذلت لذي حق من اسم حقه من نصيب حتى أخذ الشيطان حقه الأوفر ونصيبه الأكمل».

ثم يؤكد الإمام عليه السلام: «وفهمت ما ذكرته عن يزيد عن اكتماله، وسياسة لأمة محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، تريد أن توهم الناس في يزيد كأنك تصف محجوباً أو تسنت غائباً، أو

(١) نهج البلاغة: ٩٨/١. وقد علق بتفصيل أكثر المرحوم محمد مهدي شمس الدين في ثورة الحسين: ٢٣٨.

تخبر عما كان ممّا احتوته بعلم خاص، وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ
ليزيد فيما أخذ به من استغرائه الكلاب المهاجمة عن التحارش، والحماس السبق
لأترابهم، والقيان ذوات المعازف، وضروب الملاحى، تجده ناصراً.

ثم يستخدم الإمام الأسلوب الوعظي لمعاوية قائلاً:

«ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر ممّا أنت
لاقيه! فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جورٍ وحقاً في ظلم حتى ملأت الأسمية، وما
ينك وبين الموت إلا غمضة، فتقدم على عملٍ محفوظ في يوم مشهود، ولات حين
مناص، ورأيتك عرضت بنا بعد هذا الأمر، ومنعتنا عن أبنا تراثاً ولعمر الله لقد أورثنا
الرسول ﷺ ولادة، وجئت لنا بما حججتم به القائم عند موت الرسول ﷺ فأذعن
للحجة بذلك ورده الإيمان إلى النصف. فركبتم الأعايل وفعلتم الأفاعيل، وقلتم كان
ويكون حتى أتاك الأمر يا معاوية من طريق كان قصدها تغيرك، فهناك فاعتبروا يا
أولي الأبصار.

رسالة الإمام عليه السلام:

من رسالة الإمام الحسين عليه السلام ردّاً على رسالة معاوية، يحمله فيها
مسؤوليات جميع ما حصل للبلاد والعباد من فقدان الأمن وسفك الدماء
ونهب الثروات وتمريض البلاد في الأزمات، وتعدّ هذه الرسالة من أروع
الوثائق التاريخية التي سجلت سياسة عهد معاوية.

فيقول عليه السلام في بدء رسالته:

«أما بعد، بلغني كتابك تذكر فيه أنّه انتهت إليك عني أمور أنت عنها راغب وأنا

بغيرها عندك جدير، وإن الحسنات لا يهدي لها المتأوون بالنيمة، المفوقون بين الجمع، وكذب الغاؤون، ما أردت لك حرباً ولا عليك خلافاً، وإني لأعشى الله في ترك ذلك منك، ومن الإعذار فيه إليك وإلى أوليائك القاسطين حزب الظلمة» (لاحظ التقرير والتضيق في أسلوب الإمام، فأراد أن يشعره بفداحة الإثم الذي اقترفه، من ظلم واضطهاد، وتجويع وتحريف للدين، واختلاس أموال الأمة، ثم يستطرد الإمام ﷺ مذكراً إياه:

«أولست القاتل حجرين عدي أباكندة وأصحابه، المصلين العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم، ويستعظمون البدع، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا يخافون في الله لومة لائم؟ قتلهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم الأيمان المغلظة والموانيق المؤكدة، جرأة على الله واستخفافاً بهده.

أولست قاتل عمرو بن الحمق الخزاعي صاحب رسول الله ﷺ العبد الصالح الذي أبلته العبادة فتحل جسمه واصفر لونه؟ فقتله بعد ما أمنت وأعطيت ما لو فهمته العصم لنزلت من رؤوس الجبال.

أولست بمدعي زياد بن سمية المولود على فراش عبيد ثقيف، فزعمت أنه ابن أبيك؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «أولاد الفراش وللعاشر الحجر» فتركت سنة رسول الله ﷺ تعبداً، وتبع هوائك بغير هدى من الله، ثم سلطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم ويسمل أعينهم ويصلبهم على جذوع النخل، كأنك لست من هذه الأمة وليسوا منك.

أولست قاتل الحضرمي الذي كتب فيه إليك زياد أنه على دين علي «كزم الله وجهه فكنت إليه أن أقتل كل من كان على دين علي؟ فقتلهم ومثل بهم بأمرك، ودين علي هو دين ابن عمه ﷺ الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه، ولو لا ذلك لكان

شرفك وشرف آياتك تجسم الرحلتين رحلة الشتاء ورحلة الصيف.
وقلت فيما قلت: أنظر لنفسك ودينك ولأمة محمد ﷺ وأثق شق عصا هذه الأمة
وأن تردهم إلى قنينة، وإنني لا أعلم قننة أعظم على هذه الأمة من ولايتك عليها، ولا
أعظم لنفسي ولديني ولأمة محمد ﷺ أفضل من أن أجاهرك؛ فإن فعلت فإنه قرينة إلى
الله، وإن تركته فإنني استغفر الله لديني وأسأله توفيقه لإرشاد أمري.
وقلت فيما قلت: إنني إن أنكرت أن تنكرني، وإن أكدك أن تكذبني، فكذبني ما بدالك،
فإنني أرجو أن لا يضرني كيدك، وأن لا يكون على أحد أضر منه علي نفسك، لأنك قد
ركبت جهلك وتحرصت على نقض عهدك، ولعمري ما وفيت بشرط، ولقد نقضت
عهدك بقتل هؤلاء النفر الذين قتلهم بعد الصلح والأيمان والعهود والمواثيق، فقتلتهم
من غير أن يكونوا قاتلوا أو قُتلوا، ولم تفعل ذلك بهم إلا لذكركم فضلنا وتعظيمهم
حقنا، مخافة أمر ملكك إن لم تقتلهم مَتَّ قِيلَ أن يفعلوا، أو ماتوا قبل أن يدركوا.
ثم ينتهي الإمام ﷺ بنصحه لمعاوية لعله يستفيق من سباته الظالم
وحكمه الجائر:

فأبشر يا معاوية بالقصاص، واستيقن بالحساب، واعلم أن الله تعالى كتابة لا يغادر
صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وليس الله بناس لأخذك بالفتنة، وقتلك أوليائه على
أنهم، وتليك إياهم من دورهم إلى دار الغربة، وأخذك الناس ببيعة ابنك الغلام
الحدث، يشرب الشراب، ويلعب بالكلاب، ما أراك إلا قد خسرت نفسك، وبترت
دينك، وغششت رعينك، وسمعت مقالة السفية الجاهل، وأخفت الروح النقيّة^(١).

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٢/٢٣٥ عن الإمامة والسياسة: ١/٢٨٤، والدرجات
الرفيعة: ٣٣٤، وكذلك القدير: ١٠/١٦١.

حركة الحسين عليه السلام وميعة الأمة:

بعد أن عرفنا - كما مرّ قبل قليل - الوضع الذي كانت عليه الأمة في عهد معاوية وما اتصفت به من ثقافة انهزامية وميعة متناهية، فإنه لا بد لهذه الأمة كما رأى واجتهد به الإمام الحسين عليه السلام من أمر في خلق هزة قوية، تعيد لها إرادتها وثقتها بنفسها وكرامتها بالرغم من وضوح الطريق وجلاء الأهداف، وقدرتها على التمييز المنطقي بين الحق والباطل، مع أنّ طبيعة الظرف الموضوعي في تصوّر دقيق لواقع الأمة يمكن أن يكون على عدّة أقسام منها:

أولاً: إنّ في الأمة جزءاً كبيراً - خلال عهد معاوية - فقد إرادته وقدرته على المواجهة، وهو يشعر بالذل والاستكانة، وإن خسارة مبدئية كبيرة تحيق بالأمة الإسلامية وهي تبديل الخلافة إلى كسروية وهرقلية.

وثانياً: إنّ في الأمة من استخفّ بالإسلام، ولم يعد يهتم بالرسالة بقدر اهتمامه بمصالحه الشخصية وبناء مجده واعتباره.

ثالثاً: إنّ في الأمة شريحة من المغفلين التي تنطلي عليهم حيل ومكر بني أمية، ولو سكّت صحابة الرسول ﷺ لتحولت الخلافة إلى قيسرية وكسروية، والتي لم تعد حكماً للأمة، ويقول السيد محمد باقر الصدر أنّه: (تحويل خطير في المفهوم أراد معاوية أن يلبسه ثوب الشرعية، ولو كان هذا التحويل يواجه بسكوت من قبل الصحابة لأمكن أن تنطلي حيلة معاوية على الكثير من السذج والبسطاء؛ إذ يرون في سكوت الصحابة

إمضاء له...»^(١)

وأما: إن البعض في الأمة لا يعرف حقيقة الظروف الموضوعية التي حتمت على الإمام الحسن عليه السلام بعقد الصلح مع معاوية: (فهو لم يميز أن هذا النزاع هل هو اعتراف بشرعية الأطروحة الأموية، أو هو تصرف اقتضته الضرورة والظروف الموضوعية التي كان يعيشها الإمام الحسن عليه السلام؟) أمام هكذا واقع لأمة تعيش أبعد درجات التشتت الفكري وميوعة الموقف، ماذا كان على الحسين عليه السلام أن يختار؟ مع وجود الناصحين والمشفقين أمثال: عبيد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر، والأحنف بن قيس، وأخيه محمد بن الحنفية؟

هل يبايع يزيد بن معاوية؟

هل يرفض البيعة ويبقى في مكة والمدينة والظروف الموضوعية كانت تنبئ أنه لو بقي في المدينة أو في مكة رافضاً للبيعة لقتل من قبل بني أمية ولو كان معلقاً بأستار الكعبة؟

هل يلجأ إلى بلد من بلاد العالم الإسلامي كما اقترح عليه أخوه محمد ابن الحنفية؟ وينتهي بعزلته متغلقاً عن مسرح الأحداث؟

هل يتحول ويذهب إلى الكوفة مستجيباً للرسالة التي وردته من أهلها ثم يستشهد بالطريقة التي وقعت؟

نعم، كان لابد للحسين عليه السلام أن يذهب إلى الكوفة، يقاتل ويقتل مع

(١) التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقية الهزيمة، محمد باقر الصدر، مجلة الفكر الإسلامي العدد (١٧): ٤٩.

تفعيل كافة المؤثرات العاطفية التي تحرك ضمير الأمة وتهز مشاعرها وتعيد لها أخلاقية الإرادة والتضحية، والعزيمة والكرامة، فهو لم يطلب سلطاناً قتل، ومن يطلب السلطة فعليه أن يقدم أولاده وأهله للقتل ونساءه للسبي فـ (أراد أن يجمع على نفسه كل ما يمكن أن يجتمع على إنسان من مصائب وتضحيات وآلام؛ لأن أخلاقية الهزيمة مهما شككت في مشروعية أن يخرج إنسان للقتل، فهي لا تشك في أن هذا العمل الفظيع لم يكن عملاً صحيحاً على كل المقاييس، وبكل الاعتبارات، وهو من بقية النبوة وصاحب مقام الإمامة؛ فأدخل إلى ساحة المعرفة كل الاعتبارات العاطفية والتاريخية وحتى الآثار التي تبقت من عهد الرسول ﷺ من العمامة والسيف؛ فلبس عمامة الرسول وتقلد سيف الرسول، وأغلق بذلك كل منفذ وطريق للتشكيك في حركته ﷺ، وألجم أفواه أصحاب الثقافة الانهزامية، وهز بذلك ضمائر المسلمين الذين تمتعت إرادتهم.

الدوافع الذاتية للبراهمة:

أوضحت العلوم النفسية، أن الإنسان يبحث عما ينقصه لكل ما يحصل في داخله من حالات التوازن النفسي لحصول الاستقرار والفضل الطبيعي، ولكن هناك من النواقص ما يثير الاستغراب عند أصحابها في كيفية خلق التوازن النفسي عندهم سيما ممن لم يمتلك مقومات الإيمان والتربية الروحية في تجاوز هذه النواقص من قبيل عاهة الشكل أو النسب، إضافة إلى حالات أخرى كالقفر وحب الجاه وحب المال وحب

اللذة، والطمع في الدنيا، فيحاول أصحاب هذه الحالات سدّ هذا النقص من خلال نشاط خاص أو عمل مخالف. يستطيعون من خلاله الظهور إلى المجتمع بشكل بارز، سواء كان عملاً إيجابياً أو سلباً على السواء، ونادراً ما يلجأ هؤلاء إلى العمل الإيجابي والأغلب يتجه في التعويض من خلال احتقار الآخرين أو إنزال الكوارث بهم.

فيالنسبة لأصحاب يزيد، فإن شمر بن ذي الجوشن (أبرص، كسريه المنظر، قبيح الصورة، وكان يصطنع المذهب الخارجي - ذلك أنه في ظل مثل هذا المذهب يمكن الانتقام من المجتمع بشكل أفضل - يحارب به علناً وأبناءه، ولكن لا يتخذ حجة ليحارب به معاوية وأبناءه)^(١).

وأما عن مسلم بن عقبة، فكان: (أعور أُمغر، نائر الرأس، كأنما يقطع رجله من وحل إذا مشى).

أما عبيد الله بن زياد، فكان متهماً بنسبه بين قريش، لأن أبيه زياد كان مجهول النسب؛ فكان يُسمّى زياد بن أبيه! ثم ألحقه معاوية بأبي سفيان، وأما أمه فكانت جارية مجوسية تدعى (مرجانة)، وتعرّف عليها أثناء ولايته لفارس، فكانت قريش تعيب عبيد الله بنسبه من أمه ومن أبيه، كما أنه كان أَلْكَنَ اللسان لا يستطيع نطق حروب اللغة العربية، فكان إذا عاب الحروري من الخوارج قال «هروري» فيضحك سامعوه، وأراد مزة أن يقول: اشهروا سيوفكم فقال: افتحو سيوفكم فهجاء يزيد بن مضر قائلاً:

(١) الملحمة الحسينية، الشهيد مطهري ج ٣، ١٤٠.

ويوم فتحت سيفك بمن بعيد أضعت وكل أمرك للضياع^(١)
كما قال مسلم بن عقيل عليه السلام عن ابن زياد: «ويقتل النفس التي حزم
الله قتلها، على الغضب، والعداوة، وسوء الظن، وهو يلهو، ويلعب، كأنه لم
يصنع شيئاً».

لاحظ في قول مسلم، كيف استطاع البراغماتيون، النفعيون،
المصلحيون، أن يترتبعوا على مقاليد سلطة الأمة الإسلامية ويقلبوا مفاهيم
الإسلام من الرحمة والشفقة والسلم والأمان والحكمة والموعظة
والتحابب والتآخي إلى مفاهيم بربرية عبثية لم تمت إلى الإسلام
بأي صلة.

ويذكر المؤرخون أن يزيد بن معاوية كان مستاءً من زياد وابنه، لأنَّ
زياداً كان رافضاً لأخذ البيعة من أهل البصرة ليزيد عندما كان والياً عليها،
وهو سبب آخر لسعي عبيد الله لخدمة وطاعة أوامر يزيد.
أما عمر بن سعد، فكانت تحزكه غريزة حب المال واللذة وحب
الجاه والطمع في الدنيا.

وهناك صنف آخر من البراغماتيين لم تكن دوافعهم الذاتية
ميكانيكية لتعويض النقص، ولا كانت بدافع حب الجاه والسلطة والمال،
وإنما كانت بدافع الخوف وحب البقاء سيما وأن مجتمع ما بعد معاوية
تركزت فيه سياسته حالات رهبة من الضعف والخواء والاتحلال وانعدام

(١) عشرون مقالة للقرطبي: ٣٩، الأغاني: ١٧/٥٦، الطبري: ١٩٢/٢ - ١٩٣.

الثقة والأمن؛ حتى وصل الأمر بأحد أتباع مدرسة علي عليه السلام في البصرة أن يبعث برسول الحسين عليه السلام إلى عبيد الله بن زياد - وكان وقتها والياً على البصرة - لاحقاً بعبيد الله بن زياد ولا إيماناً بخط عبيد الله بن زياد، بل حفاظاً على نفسه^(١)، وابتعاداً بنفسه عن أقل مواطن الخطر، خشية أن يطلع عبيد الله بن زياد في يوم ما على أن ابن رسول الله كتب إليه يستصرخه وهو لم يكشف هذه الورقة للسلطة الحاكمة وقتئذٍ، فتتخذ هذه نقطة ضعف عليه، ولكي يوفر له كل عوامل السلامة، وكل ضمانات البقاء الذليل أخذ رسول الإمام والرسالة وقدمهما بين يدي عبيد الله بن زياد، فأمر بالرسول قتل^(٢).

أما عمر بن الحجاج وهو ممن حارب مع علي عليه السلام في صفين، كما أنه لحق قريب من ثورة الحسين عليه السلام جاء معه أربعة آلاف من عشيرته لكي يتفقدوا أحوال هاني بن عروة، ووقفوا بباب القصر يطالبون بحياة هاني ابن عروة، وفي القصة المعروفة: أن عبيد الله بن زياد أرسل إلى شريح القاضي باعتباره قاضياً وشهادته معتبرة فأدخله إلى الغرفة التي سجن فيها هاني، ونظر إليه حياً بعد أن شاع مقتل خبره، وأبلغ عمر بن الحجاج وقومه

(١) هو المنذر بن جارود العبدي، خاف أن يكون - الرسول - دسياً من عبيد الله بن زياد (وليس ما فعل) وكانت (بحرية) بنت المنذر زوجة عبيد الله بن زياد. راجع أعيان الشيعة، محسن الأمين: ٤ - ٦/٢.

(٢) التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقية الهزيمة، محمد باقر الصدر، مجلة الفكر الإسلامي العدد (١٧): ٥٣ - ٥٤.

بأنه رأى هانياً حياً. فاطمأن عمر بن الحجاج وانسحب.

إلا أن هذا الرجل - عمر بن الحجاج - وبعد أن اشتد الأمر على الحسين عليه السلام لم يمتلك إرادته وانتهت شخصيته؛ لأنه شعر أن في نصرة الحسين ثمناً غالياً، فطلق عقيدته واشترى بدلاً عنها ما تبقى من سنين عمره، ويا ليت هذا الرجل أن ينأى بعيداً عن المساهمة في الحرب ضد الحسين عليه السلام بل هو نفسه «كلفه عمر بن سعد بأسوأ عمل يمكن أن يكلف به إنسان؛ كلفه بالحيولة من الماء دون سيد الشهداء، فقد بقي واقفاً يمتنع ابن رسول الله والبقية الباقية من ثقل النبوة عن شرب الماء» واستجاب لذلك أيضاً شيث بن ربيعي وهو الرجل الذي عاش مع جهاد أمير المؤمنين، ويقول السيد محمد باقر الصدر عليه السلام: إن هذا الرجل كان يعي مدلول حرب صفين، وكان يدرك أن الإمام علياً في حرب صفين يمثل رسول الله صلى الله عليه وآله في غزوة بدر، ولكن الدنيا والانهيال النفسي، ولكن النفس القصير خنقه في النهاية؛ فذاب وتمتع واشتد تمتعه بالتدريج إلى أن وصل إلى حد: أن عبيد الله بن زياد يبعث إليه ليقاتل الحسين ابن رسول الله، فماذا يكون العذر؟ وماذا يكون الجواب؟ لا يملك أن يعتذر بعذر من الأعذار إلا أن يقول: «أنا مريض» كلمة باردة جداً على مستوى بروده النفسي - ويستطرد السيد الصدر بذكر تفاصيل مواقف شيث بن ربيعي - أن عبيد الله بن زياد يبعث إليه الرسول مرة أخرى ليقول له: المسألة حدية، لا مرض في هذه الحالة، أما أن تكون معناً، وإما أن تكون عدونا، وبمجرد أن يتلقى هذه الرسالة - ويعرف أن المسألة حدية - يقوم شيث بن ربيعي ويلبس ما

كان يلبسه، ثم يخرج متجهاً إلى عبيد الله بن زياد وهو يقول: لييك! هذه الاستجابات من هذا الطرف، وذاك البرود، وتلك السلبية من ذلك الطرف هم أكبر دليل على هذا المرض^(١) «ثقافة الإسلام».

أما عمر بن سعد، وكما تقدّم أنه من هواة حب المال والجاه والدنيا، نفق قليلاً مع نصّ الحوار الدائر بينه وبين الإمام الحسين عليه السلام لكي تتضح دوافعه الذاتية بصورة جلية:

قال الحسين عليه السلام: «ويلك يا ابن سعد! أما تتقي الله الذي إليه معادك؟ أنقذتني وأنا ابن عمك؟ ذر هؤلاء القوم وكن معي فإنه أقرب لك إلى الله، فقال ابن سعد: أخاف أن تُهدم دارِي، فقال الحسين: أنا أنبئها لك، فقال: أخاف أن تؤخذ ضيعتي، فقال الحسين عليه السلام: أنا أخلف عليك خيراً منها من مالي بالحجاز، فقال: لي عيال وأخاف عليهم، وهنا اتضح للحسين أنه رجل ميّت القلب، ميّت الضمير. فإنسان يقيس مصير مجتمعه بهذا اللون من القياس ليس إنساناً سوى التكوين النفسي، فقال له الحسين: مالك؟ ذبحك الله على فراشك عاجلاً، ولا غفر لك يوم حشرك، فوالله إنني أرجو ألا تأكل من بر العراق إلا يسيراً. فقال مستهزئاً: في الشعر كفاية»^(٢).

(١) التخطيط الحسيني لتخيير أخلاقية الهزيمة، محمد باقر الصدر، مجلة الفكر

الإسلامي العدد (١٧): ٥٧ - ٥٨.

(٢) أعيان الشيعة ج ٤ ق ١ / ١٤٣.

البراغماتية وانتحال القدسية:

من أخطر حالات الاحتيال على المجتمع الإسلامي، هي انتحال القدسية وإضفاء الشرعية في العمل البراغماتي، والأنكى من ذلك حينما تتوفر أرضية خصبة لهذا الاحتيال تتمثل ببعض علماء ووجهاء الأئمة البسطاء الطيبين الذين يسهل خداعهم. والأشد خطورة من ذلك حينما يساهم علماء السوء بدعم البراغماتيين عندما تتلاقى المصالح والمنافع الذاتية والأهواء، فتتحصص (القيمية) في نخبة قليلة من المجتمع، وتتضاعف عليها الجهود الكبيرة لتفكيك العلاقة البراغماتية مع وعاظ السلاطين.

وبدهاء ومكر استطاع معاوية أن يجمع حوله الكثير من هؤلاء الوعاظ ويأساليب شتى من الترغيب والترهيب لطمس معالم الدين باسم الدين. وينقل ابن أبي الحديد: «أن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام تقضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلقوا ما أَرْضاه، منهم: أبو هريرة، وعمر بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير»^(١).

ومن أجل إيجاد تبرير ديني لسلطته وسلطة من قبله (عثمان) ومن

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٦١/٤.

بعده (يزيد) أو علي الأقل أن يكبح جماح الثورة في نفوس الجماهير استغلّ معاوية هؤلاء الأشخاص لجعل من الدين مبرراً لرغباته إضافة إلى ممارساته وأساليبه الأخرى من التجويع والإرهاب والانشقاق القبلي، فأولى المهمات لهؤلاء الأشخاص كانت وضع الأحاديث الطاعنة بحق علي وأهل بيته عليهم السلام ونسبتها للنبي صلى الله عليه وآله؛ ومن ذلك العام ابتداء الخطباء على المنابر يلعنون علياً ويبرأون منه، وأكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، بعد ذلك أوصى في كتابة الرواية عن الصحابة والخلفاء الأولين؛ فكتب إلى عمّاله: «أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خيراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إلي وأقر لعيني وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته».

وأما قصة سخائه في هذا المجال فهي معروفة مع الصحابي سمرة بن جندب، فقد بذل له أربعمئة ألف درهم على أن يروي هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْخَبَاءِ الدُّنْيَا وَيُنْهَى اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْإِصْبَامِ﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِدَ^(١) قد نزلت في حق علي بن أبي طالب، وأن الآية الثانية نزلت في حق ابن ملجم؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ

(١) البقرة: ٢٠٤-٢٠٥.

مَرَضَاتِ اللَّهِ^(١)

لم يكتف معاوية بهذا، بل أراد أن ينهي كلّ رموز الحالة (القيّمية) التّاريخيّة التي تثير في أذهان الأُمّة الرّفص والجهاد والثّورة والكفّاح من أجل انتصار الإسلام، وفي محاولة خبيثة وبائسة أشار عليه عمر بن العاص إلغاء اسم (الأنصار) الذي اشتهر به أهل المدينة، وهي محاولة تهدف إلى (تجريد الأنصار من قوّتهم المعنويّة التي يسبغها هذا اللقب عليهم) ولكن تبّنه الأنصار على مكّامن هذه المحاولة، (فردّوها بحزم)^(٢). ومما لا يخفى أن القرآن الكريم ورد فيه مرّتين لقب الأنصار في سورة التّوبة تضمّنّا مدح الله تعالى لهم وثناء عليهم.

والحقيقة أن أكثر ما يؤلم المرء هو التّوظيف السّلبّي للقدسيّة سواء كان للشّخص أو الواقعة، فبعد قتل الحسين عليه السلام ادّعى الأعداء أنّهم «يتقربون إلى الله بدمه» ويعتّب الشهيد مطهري: أن أكبر الوقائع إجراماً في التاريخ هي تلك الجرائم التي ترتكب باسم الأخلاق والروحانيّة والصلح والسلام^(٣).

وفي سياق هذا المعنى، نرى أنّ الإمام الحسين عليه السلام أشار إلى دور «الروحانيّة» في المجتمع الإسلامي، إلّا أنّه لم يُخفِ^(٤) ما في نفسه من

(١) البقرة: ٢٠٧.

(٢) الأغاني، أبو الفرج الاصفهاني: ٤٢/١٦، ٤٣ - ٤٨، ثورة الحسين ظلّوها الاجتماعيّة وأثارها الإنسانيّة، محمد مهدي شمس الدين: ١١١.

(٣) الملحمة الحسينيّة، الشهيد مطهري: ٦٣/٣.

حُرْقَةٍ وألم ومضاضة وهو يصف منهم علماء السوء بـ«العصابة» التي هي «أعظم الناس مصيبة»، كما قال هو عليه السلام، وهو يرى خضوعهم ليزيد على علمهم بحقارته وانحطاطه، وخضوعهم لعبيد الله بن زياد على علمهم بأصله الحقير ومنبته الوضع، وخضوعوا لغير هذا وذاك من الطغاة؛ لأن هؤلاء الطغاة يملكون الجاه والمال والنفوذ، ولأن التقرب منهم والتودد إليهم كفيلاً بأن يجعلهم ذوي نفوذ في المجتمع.

لاحظ زفراته عليه السلام وهو يبتدئ خطبته بالوعظ والإرشاد، ويذكرهم بعاقبة الأحبار من بني إسرائيل وما عاب الله عليهم من أفعالهم، فيقول: «إنما عاب الله ذلك عليهم لأنهم كانوا يرون من الظلمة الذين بين أظهرهم المنكر والفساد فلا ينهونهم عن ذلك؛ رغبة فيما كانوا ينادون منهم ورهبة مما يحذرون والله يقول: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ﴾».

ثم يصف هؤلاء «العصابة» بأحبار بني إسرائيل الذين رأوا الظلم والفساد من مقام الجور، ولم يأمرؤا بالمعروف وينهوا عن المنكر، بل كانوا واقعين تحت تأثير رغبة المال ورهبة السلطان، وتأتي هذه الخطبة أدق وثيقة تاريخية (خالدة)، تصوّر واقع علماء السوء في مجتمع إسلامي يكنّ للعلماء كلّ التقدير والتبجيل والقدسية؛ فأراد عليه السلام من الأمة أن تميز بين نوعين من العلماء، بين من يعيش للدين ويُنْفِي من أجله، وبين من يعيش على الدين، ولا هم له إلا التحجج والتذرع تبريراً لقعوده وانشغاله بهم الدنيا ومحابة السلطان، فيقول عليه السلام:

«إنّها العصابة، عصابة بالعلم مشهورة وبالخير مذكورة وبالتبصيرة معروفة وبالله

في أنفس الناس مهابة، يهابكم الشريف ويكرمكم الضعيف، ويؤثركم من لا فضل لكم عليه ولا يد لكم عنده، تشفعون في الحوائج إذا امتنعت من طلبها وتمشون في الطريق بهيبة الملوك، وكرامة الأكابر، أليس كلّ ذلك إنّما نلتموه بما يرجى عندكم من القيام بحق الله، وإن كنتم عن أكثر حقه تقصّرون فاستخففتكم بحق الأمة؟ فأما حق الضعفاء فضيعتم وأما حقكم بزعيمكم فطلبتم، فلا مال بذلتموه ولا نفساً خاطرتكم بها للذي خلقها، ولا عشيرة عاديتموها في ذات الله، أنتم تتمنون على الله جنته ومجاورة رسله وأماناً من عذابه، لقد خشيت عليكم أيها المتمنون على الله أن تحلّ بكم نقمة من مقامته لأنكم بلغت من كرامة الله منزلة فضّلتم بها ومن يعرف بالله، لا تكرمون وأنتم بالله في عبادته تكرمون، وقد ترون عهود الله منقوصة فلا تقزعون، وأنتم لبعض ذمهم آباؤكم تقزعون، وذمة رسول الله ﷺ محقورة، والعسى والبكم والزمنى في المدائن مهملة، لا ترحمون ولا في منزلتكم تعملون، ولا من عمل فيها تُعينون.

وبالأذهان والمصانعة عند الظلمة تأمنون، كلّ ذلك ممّا أمركم الله به من التهي والتناهي وأنتم عنه غافلون، وأنتم أعظم الناس مصيبة لما غلبتم عليه من منازل العلماء لو كنتم تشعرون، ذلك بأنّ مجاري الأمور والأحكام على أيدي العلماء بالله الأئمة على حلاله وحرامه، فأنتم المصلوبون تلك المنزلة، وما سلّبتكم ذلك إلّا بغرركم عن الحق واختلافكم في السنة بعد اليقظة الواضحة، ولو صيرتم على الأذى وتحلّتم المؤونة في ذات الله كانت أمور الله عليكم ترد، وعنكم تصدر، وإلّكم ترجع، ولكنكم مكنتم الظلمة من منزلتكم، واستسلمتم أمور الله في أيديهم، يعملون في الشبهات، ويسرون في الشهوات، سلّطهم على ذلك فإراكم من الموت، واعجابكم بالحياة التي هي مفارقتكم، فأسلمتم الضعفاء في أيديهم ممّن بين مستعبد مقهور وبين

مستضعف على معيشته مغلوب، يتقلبون في الملك بأرائهم، ويستشعرون الخزي بأهوائهم اقتداءً بالأشرار، وجراً على الجبار، في كل بلد منهم على منبره خطيب يصنع، فالأرض لهم شاغرة وأيديهم فيها مبسوطة، والناس لهم عوّل، لا يدمفون يد لأمير، فمن بين جبار عنيد وذو سطوة على الضعفة شديد، مطاع لا يعرف المسبدى المعبد، فيا عجباً ومالي (لا) أعجب! والأرض من غاش غشوم ومتصدّق ظلوم، وعامل على المؤمنين بهم غير رحيم، فالله الحاكم فيما فيه تنازعنا، والقاضي بحكمه فيما شَجَرَ بيننا.

اللَّهُمَّ إِنَّكَ تعلم أنه لم يكن ما كان منا تنافساً في سلطان، ولا التماساً من فضول الحطام، ولكن ثرى المعاليم من دين، ونظهر الإصلاح في بلادك، ويأمن المظلومون من عبادك، ويُعمل بفرائض وستتك وأحكامك، فإن لم تنصرونا وتنصفونا قري الظلمة عليكم، وعملوا في إطفاء نور نبيكم، وحسبنا الله وعليه توكلنا وإليه أتينا وإليه المصير»^(١).

البواعث القيمية للنهضة:

من قوله عليه السلام لأخيه محمد بن الحنفية، يلخص فيه دوافع خروجه قائلاً: «إني لم أخرج أشراً، ولا بطراً ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق،

(١) تحف العقول عن آل الرسول عليه السلام، الحسين بن شعبة الحراني: ٣٧.

وهو خير الحاكمين».

وهنا من الضرورة أن نذكر تعلية على قوله ﷺ: «فمن قبلني بقبول الحق»، لاحظ، فهو لم يدع لقبول شرفه ونسبه وحسبه ومنزلته بين المسلمين، بل دعا أن يكون قبوله بقبول الحق، وهو ما يوفر على الناس الخير والسعادة والبركة، فقبول الحق هو القبول بمستلزماته والتنعم بها.

بهذا الخطاب القيمي لن يترك فيه ثغرة فكرية قيمة تتراءى عند الآخرين أسلوباً باراعماتياً ولو نسبياً، فهو تعالى وتسامى عن التفاخر القبلي، وحتى بما حق له من أمجاد المواقف لجده ﷺ وأبيه ﷺ؛ ولكن أراد أن يضع صورة الحق موقع الفصل والميعار لنهضته. في حين أن التفاخر القبلي هو رأس مال كل زعيم سياسي وديني كان في عصره ﷺ وما بعده أيضاً، ولم يستثن حتى من عصرنا هذا، فهناك من أقام الدنيا ولم يقعدوها، وفي مناسبة وبدونها متفاخراً بأبائه ودون أن يحذو حذوهم.

وللوقوف على طبيعة الإصلاح الذي خرج من أجله الإمام الحسين ﷺ، أنه يشمل كافة المرافق الحياتية للشعب المسلم، فقد مارس الأمويون أسلوب التجويع وصرف أموال الشعب في الملذات وشراء الضمائر وفي قمع الحركات التحررية، وتمزيق وحدة المسلمين، وبث العداوة والبغضاء بينهم، والمطاردة والملاحقة لذوي العقيدة السياسية التي لا تنسجم وذوق الحكم الأموي، وقتل الكثير منهم وقطع الأرزاق ومصادرة الأموال، فضلاً عن تحريف الدين وتشجيع الحالة القبلية على حساب الكيان الاجتماعي للأمة المسلمة، والسي على قتل النزعة

التحريرية بواسطة التخدير الديني الكاذب^(١).

فكانت تلك بواعث حقيقية لنهضة الإمام الحسين عليه السلام، كما أصبحت تلك من الدوافع التي أسست لحركات التحرر والنهوض لما بعد الثورة الحسينية، ولا يمكن للمصلح والنائر الصادق أن يعيش الحالة التحليلية وهو في طور المعارضة والمواجهة مع من تسلط على الأمة بهذه الأساليب، وكأنّ المعارض ينتهج نفس أساليب السلطة المتحللة في السيطرة على السلطة والإبقاء عليها، وبذا تتسع رقعة المعارضة للمعارضة والتي تنتهي بلاشك إلى الحالة الباراغماتية، وبصورة مكشوفة بعد أن عاشت تحت غطاء القدسية وإضفاء الشرعية.

فالمعارضة القيمية لن يحصل في داخلها معارضة أو حالة من حالات النكوص والتراجع مادام القائد صادقاً ومخلصاً، ولم يكن بين أصحاب الحسين عليه السلام من خرج على الحسين عليه السلام أو تخلف عن الطف. بل حصل العكس: حينما انتقل الحر بن يزيد الرياحي مع ثلاثين من جنوده من الحالة الباراغماتية إلى الحالة القيمية، وقاتل بين يدي الحسين عليه السلام حتى قُتل.

(١) ثورة الحسين، محمد مهدي شمس الدين: ١٧٨.

القيمية في صنع المواقف:

القيَم السامية والأخلاق الجديدة التي قدّمها الثائرون الصادقون مع الحسين (عليه السلام) دفعت بالأمة إلى الحياة الحقيقية والعقلانية الإنسانية، التي ينشدها الإسلام، كما أنها أدت إلى تحطيم الإطار الديني المزيّف الذي تبرقع به الأمويون؛ وهذا من أعظم إنجازات الثورة الحسينية فيما بعد.

فبعد أن توارّد على الحسين (عليه السلام) خبر مقتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة وأخيه بالرضاعة عبدالله بن يقطر، قال (عليه السلام) لأصحابه: «... قد خذلنا شيعةنا، فمن أحبّ منكم الانصراف فليصرف ليس عليه منّا ذمام»^(١). هنا سجّل أصحاب الحسين (عليه السلام) مواقف رائعة في الذود عن إمامهم وقضيتهم العادلة، حتّى أنّه (عليه السلام) قال: «فلأني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي...»^(٢).

فخطبه زهير بن القين: «سمعنا يا ابن رسول الله مقاتلك، ولو كانت الدنيا لنا باقية، وكنا فيها مخلصين لأنثرتنا النهوض معك على الإقامة فيها»^(٣).

وقال له برير بن خضير: «يا ابن رسول الله، لقد قرّ الله بك علينا أن نقاتل بين يديك، تُقطع فيك أعضاؤنا، ثم يكون جذك شفيعة

(١) الطبري: ٣٠٠/٤.

(٢) الطبري: ٢٣٤/٤ - ٢٣٥.

(٣) الطبري: ٢٣٤/٤ - ٢٣٥.

يوم القيامة»^(١).

وقال نافع بن هلال: «سر بنا راشداً معافى، مشرقاً إن شئت أو مغرباً، فوالله ما أشفقنا من قدر الله، ولا كرهنا لقاء ربنا، وإننا على نيأتنا وبصائرنا، نوالي من والاك ونعادي من عاداك»^(٢).

أما الصحابي مسلم بن عوسجة، فقال له: «نحن نخلي عنك، ولما نعذر إلى الله في أداء حقك؟ أما والله لا أفارقك حتى أطعن في صدورهم برمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن ممي سلاح أقاتلهم به لقدفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك».

وكذلك سعد بن عبدالله الحنفي قال: «والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسول الله ﷺ وآله فيك، والله لو علمت أنني أقتل ثم أحيا ثم أحرق حياً ثم أذرى، يفعل ذلك بي سبعين مرة، ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة؟»

فالحسين عليه السلام كان متيقناً من مواقف أصحابه رضوان الله تعالى عليهما، ولكنهم أرادوا بأقوالهم تلك أن يواسوا الإمام وأن يُسمعوا أهل بيته من النساء والشبان، ولكن الإمام ورغم رسالته الاستشهادية وطموحه بالمزيد من رجالات الأمة أن تقف كموقف أصحابه، إلا أنه بين الحين والآخر ينتهز فرصة إقناع بعض من أصحابه النجاة بنفسه، فمرة قال عليه السلام لنافع بن هلال في جوف الليل: «ألا تسلك بين هذين الجبلين في جوف الليل

(١) الطبري: ٤/ ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٢) المصدر السابق.

وتجوب بنفسك؟! فوق نافع على قدميه يقبلها ويقول: ثكلتني أمي، إن سيفي بألف، وفرسي بمثله، فوالله الذي من علي بك لا فارتكك حتى يكلا عن فري وجري»^(١).

هكذا كان مستوى السلوك الذي ارتقى له الثائرون القيّميون؛ فكان في موتهم الحياة الجديدة والانبعاث الخلقي الرفيع، فأصبحوا مشاعل ورموزاً لمدرسة الحنين، ونماذج يحتذى بها في كلّ حركات التحزّر الدينية والإنسانية، ومن المشاهد المثيرة والرائعة في البطولة والشجاعة والقداء والإخلاص المبدئي المنقطع النظر ينقل السيد المقزّم في كتابه مقتل الحسين عليه السلام، صورة رائعة لأحد أصحاب الحسين عليه السلام قبل واقعة الطف عندما أرسله الإمام رسولاً له إلى الكوفة - وهو قيس بن مسهر الصيدائي - وبعد أن يقع أسيراً بيد عبيد الله بن زياد، أسرع الصيدائي في تمزيق الكتاب، فقال له ابن زياد: لماذا مزقت الكتاب؟ يقول عليه السلام: لأنّي لا أريد أن تطلع عليه، يقول له: وماذا كان فيه؟ فيقول عليه السلام: لو كنت أريد أن أخبرك لما مزقت الكتاب، يقول له: إنّي أقتلك إلا إذا صعدت على هذا المنبر وقلت بالصراحة شيئاً في سب عليّ بن أبي طالب والحسن والحسين، فالصيدائي الأمين يغتنم هذه الفرصة ويصعد على المنبر في هذه اللحظة الحاسمة، في آخر لحظة من حياته، وهنا يعقب السيد الشهيد محمد باقر الصدر وهو يصوّر هذه الحالة قائلاً: في هذا الإطار العظيم من

(١) الطبري: ٣١٥/٤، أعيان الشيعة: ٢٤٥ - ٢٤٦.

البطولة والشجاعة والتضحية أمام عبيد الله بن زياد وأمام شرطته وجيشه
يوجه خطابه إلى أهل الكوفة ويقول: أنا رسول الحسين إليكم، إنَّ الحسين
على الأبواب، فيؤدِّي هذه الرسالة بكل بطولة وبكل شجاعة، فيأمر
عبيد الله بن زياد به فيقتل، ويستطرد السيد الصدر (متسائلاً): ماذا يكون
الصدى لمثل هذه الدفعة المثيرة القويّة؛ حينما قتل الصيداوي ع أتى
شخص من أهل الكوفة فقطع رأسه، فقبل لماذا قطعت رأسه؟ يقول: لكي
أريحه بذلك هذه الأمة - والقول للسيد الصدر - لا تفكر إلا على هذا
المستوى من الشفقة في حياتها، الشفقة التي تشعر بها على هذا المستوى،
أما الشفقة على الوجود الكلّي، الشفقة على الكيان، الشفقة على العقيدة قد
أنتزعت من قلوبها؛ لأنها تكلف ثمناً غالياً، الشفقة التي لا تكلف ثمناً هي
أن تقطع رقبة هذا الشخص وأن يريحه من هذه الحياة في ظل عبيد الله بن
زياد^(١).

(١) التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقية الهزيمة، محمد باقر الصدر، مجلة الفكر
الإسلامي العدد (١٧): ٥٦.

حتمية القتل في المنهج الباراهماتي:

لم يكن للباراهماتية مانع يحدُّ من تطلّعاتها ورغباتها، ولم يكن لها أي اعتبار قيّمٍ للواسطة التي تنفّذ بها غايتها أو توصلها إلى مرامها. فهي تتماشى وتتوافق إلى حدٍّ ما مع المنهج الميكافيلي، الذي ينطلق بشعار الغاية تبرر الوسيلة. وهكذا وبعد فصول دامية من الصراع القيمي الباراهماتي من قبل بدء الرسالة إلى لحظات يوم الطف ينتهي الباراهماتيون إلى حقيقة مفزعة حينما يتعسكرون بالآلاف مع كامل عدّتهم وعددهم وهم يواجهون بضعة رجال آمنوا بربّهم وبفضيلة إمامهم، وبهذا الفارق النسبي، أعطت الباراهماتية انطباعاً آخر من قيمها اللاقيمية في المواجهة.

في كلّ حركة من حركات الباراهماتيين في ساحة الطف لها حسابات خاصة في تفسير منهجهم؛ فقتل الأطفال الرضع وسبي النساء وحرق الخيام ومنع الحسين عليه السلام وأصحابه من الماء، والتمثيل بجثث القتلى وحتى خطاباتهم وأراجيز المعركة كلّ ذلك لم تكن قيم جاهلية تعارف عليها العرب آنذاك، فهي أفعال منسلخة عن وحي البشر، فالعاطفة، الضمير، التحسس، الوجدان، الشعور، مفردات غائبة ومنعدمة في الحركة الباراهماتية وبالأخص ساعة الانتقام لساعة الطف، ساعة قتل الحسين قتل البقية من آل الرسول، والتشفي بقتلهم.

ويذكر أن رؤوس الشهداء وضعت بين يدي يزيد وفيها رأس

الحسين عليه السلام فجعل يتمثل بقول الحسين بن الحمام المري:

صبرنا وكان الصبر منا سجية بأسيا فنا تفرين هاماً ومعصما
أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت قواضب في أيماننا تقطر الدما
تفلق هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما
ثم تمثّل يزيد بأبيات ابن الزبيري، وأزاد فيها البيتين الأخيرين كما
رواه سبط بن الجوزي عن الشعبي:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
فأهلوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم وعدلناه ببدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل^(١)
وهكذا سجل الباراغماتيون في قتلهم الحسين عليه السلام وأصحابه عليه السلام أدنى
مرحلة من مراحل سقوط القيم والتسافل والانحدار، سجلت القيمة أعلى
درجة من درجات المظلومية والانتصار؛ وبات الطف صدياً واضحاً يردّد
تناقض وتخالف وتصارع المنهجين.

والحمد لله رب العالمين

(١) أعيان الشيعة: ٢/٤٤٤، طبعة خامسة، دار المعارف للطبوعات.



أحكام فقهية حول الشخصية الحسينية

عبدالمجيد نجفيان

المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام قم المقدسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى - عز من قائل - ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِتَيْبَعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ﴾^(١).

أحكام فقهية حول الشخصية الحسينية:

يُقال: - أن الأجر على قدر المشقة - ولا سيما إذا اقترن بالفضل الإلهي ﴿لَمَّا يَوْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢) فالأجر الذي منحه الله - سبحانه وتعالى - للشهداء لا يعد له شيء وكما روي عن الرسول الكريم ﷺ: «فوق كل ذي برٍّ حتى يُقتل في سبيل الله، فإذا قتل في سبيل الله فليس فوقه برٌّ»^(٣).

فالمجد والخلود للشهداء الذين ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾^(٤)

(١) سورة التوبة: ١١١.

(٢) سورة الزمر: ١٠.

(٣) وسائل الشيعة: ١١/١٠ المسألة ٢٦.

(٤) الأحزاب: ٢٣.

﴿وأخلصوا دينهم لله﴾^(١)، فصانوا كرامة البشرية بدمائهم الغالية وباعوا أنفسهم لله ثمناً لإعلاء كلمته في الأرض، فكافأهم الباري سبحانه بأن جعل درجة الشهيد في أعلى عليين ورفعته إلى أسمى مقام تقاس به درجات الفضل والأرجحية، وهذا هو منطق ومصدق الآية الشريفة التي صذرنا بها هذا البحث.

لقد منح الله الكريم الشهداء المجاهدين في سبيله كرامات وأحكام فقهية خاصة بهم، ولم تُمنح لغيرهم، فليس لكل أحد الكفاءة والجدارة على دخول باب الجهاد والذي هو كما قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «فتحته الله لخاصة أوليائه»^(٢)، وكذلك الفوز بالشهادة التي «وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم»^(٣).

وأعظم صفحة كتبت في تاريخ الشهداء والتي وقعت بدمائهم الطاهرة ما سطره الإمام الحسين بن علي عليه السلام من ملاحم الفداء والتضحية في سبيل الدعوة الإسلامية حتى استحق لقب سيد الشهداء، لأنه بذل كل ما يملك في سبيلها، فوهبه الله سبحانه وتعالى مكارم ومناقب لم تُمنح لغيره من خاصة أوليائه، فكما روى عن الإمام الصادق عليه السلام في هذا المجال: «إن الله عوض الحسين عليه السلام من قتله أن الإمامة من ذريته والشفاء في تربته، وإجابة الدعاء عند قبره»^(٤).

(١) النساء: ١٤٦.

(٢) وسائل الشيعة: (آل البيت): ج ١٠ - ١٤.

(٣) سورة فصلت: ٣٥.

(٤) وسائل الشيعة: ١٠/٣٢٩ المسألة ٣٤.

فهل اختصّ الله سيّد الشهداء عليه السلام بهذه الكرامات الثلاث وحسب؟ أم أنّ العناية الإلهية به (ثار الله) تفوق هذه؟

فالباحث في كتب الحديث والفقه يجد بعض الأحكام العاقبة التي ترتبط بكلّ الشهداء المجاهدين في سبيل الله ويجد أيضاً إستثناءات في بعض المسائل الفقهية اختصت بالإمام الحسين عليه السلام دون غيره من الشهداء.

لقد ضحّى الإمام أبو عبد الله الحسين عليه السلام بكلّ غال ونفيس من أجل إعلاء كلمة الحقّ ومقارعة الظالمين. فكان يوم الطفّ يوم الملحمة العظيم، على ما فيها من فجائع وفظائع يهتزّ لها العرش، فجزاه الله الجزاء الأوفى من مستلأ في بعض جوانبه بأحكام فقهية ومسائل شرعية تطالنا بها كتب الفقه والحديث، وقد وفقت لجمعها منقولة عن كتاب (جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام) للفقير الكبير وأستاذ الفقهاء الشيخ محمد حسن التجفّي (١٢٩٢ - ١٣٦٦ هجرية) وهذا الكتاب العظيم يستحقّ لقب (موسوعة الفقه الشيعي) لأهميته الفائقة عند الفقهاء الكرام^(١).

(١) استفدنا من الطبعة الثالثة للكتاب - انتشارات دار الكتب الإسلامية - طهران ومن كتاب (وسائل الشيعة) للحر العاملي الطبعة الرابعة - انتشارات دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٣٩١ هجري.

الرموز: ج: رقم الجزء ص: رقم الصفحة م: رقم المسألة

وقد نوه الشيخ صاحب الجواهر - أعلى الله مقامه الشريف - عن عظمة شخصية الإمام الحسين عليه السلام حيث أشار في الجزء العشرين - الصفحة ٩٧ من كتابه (إلى غير ذلك من النصوص التي لا يمكن استقصاء ما تضمنته من ثواب زيارته، فضلاً عن النصوص المتضمنة للبكاء عليه وللشعر فيه إنشاء وإنشاداً وما في تربته الشريفة من أكل أو صلاة عليها أو تسبيح بها أو غير ذلك من الأمور المتعلقة بخبره وروضته، فأن ذلك يحتاج إلى كتب متعددة، وقد كفانا مؤونة ذلك أصحابنا - رضوان الله عليهم -).

فلنستعرض الآن معالم الشخصية الحسينية في الفقه الجواهري معنونة ومرتبة على أبوابها وموضوعاتها المختلفة.

١ - فضيلة التربة الحسينية:

لعل من أبرز خصائص التربة الحسينية أنها تعيش مع الإنسان المسلم منذ تولده وحتى بعد مماته، ابتداءً من تحنيكه بها ليسري حب الحسين في الدم والعروق، وانتهاءً بوضعها في قبره. إن الاعتقاد بفضل وشرف هذه التربة ليس عند المسلمين فقط - كما سنرى - ولكن حتى عند النصارى، لأن سيد الشهداء شخصية مقدسة عالمية لدى كل إنسان حر وشريف.

أ- كتاب الطهارة - آداب التكفين - (ج ٤ ص ٢٣٠ - ٢٣١).

استحباب كتابة القرآن وسائر الأدعية على الكفن بترية الحسين عليه السلام:

(ومن ذلك كله يظهر لك وجه ما ذكره غير واحد من الأصحاب بل تُسب إليهم في - جامع المقاصد وكشف اللثام - من استحباب أن يكون ذلك - أي الكتابة على الكفن - بترية الحسين عليه السلام - جمعاً بين الوظيفتين: الكتابة والترية. وفي - الذكرى وجامع المقاصد والروض وكشف اللثام - حاكياً له في الأخير وغرية الفريد الأمر بالترية الحسينية أولاً، فإن لم توجد فبالطين والماء).

ب- كتاب الطهارة - آداب اللحد - (ج ٤ ص ٣٠٤ - ٣٠٥).

استحباب أن يجعل في قبر الميت شيء من ترية الحسين عليه السلام:

منها أن (يجعل شيء في ترية الحسين عليه السلام) على ما ذكره الأصحاب من غير خلاف يعرف فيه، قلعل شهرته بينهم والتبرك بها وكونها أماناً من كل خوف، وما في الفقه الرضوي (ويجعل في أكفانه شيء من طين القبر وترية الحسين عليه السلام كافٍ في ثبوته).

وخبر جعفر بن عيسى المرروي عن مصباح الشيخ أنه سمع أبا الحسن عليه السلام يقول: «ما على أحدكم إذا دفن الميت وودعه في التراب أن يضع مقابل وجهه لونه من الطين، ولا يضعها تحت خذه وأمه»^(١).

بناءً على أن المراد بالطين فيه طين قبر الحسين عليه السلام ولذلك لم يذكر أحد استحباب ذلك بدونه، ولعل إجمال العبارة للتقية أو شيوع هذا

(١) وسائل الشريعة: ٢/٧٤٢ المسألة ٣.

الإطلاق يومئذ فيه.

وربما يستأنس له زيادة على ذلك بما رواه في المنتهى وغيره: (إن امرأة كانت تزني فتضع أولادها فتحرقهم خوفاً من أهلها، ولم يعلم بها غير أمها، فلما ماتت دفنت فانكشف التراب عنها ولم تقبلها الأرض، فنقلت من ذلك المكان إلى غيره، فجرى لها ذلك، فجاء أهلها إلى الصادق عليه السلام وحكوا له القصة، فقال لأمتها ما كانت تصنع هذه في حياتها من المعاصي؟ فاخبرته بباطن أمرها، فقال الصادق عليه السلام: إن الأرض لا تقبل هذه، لأنها كانت تعذب خلق الله بعذاب الله، إجعلوا في قبرها شيئاً من تربة الحسين عليه السلام ففعل ذلك فسترها الله تعالى) (١).

ج. كتاب الطهارة - الأغسال المستحبة - (ج ٥ ص ٥٧).

إستحباب الغسل لأخذ التربة الحسينية:

وقد يدخل في طلب الحوائج أيضاً ما ورد في الغسل لأخذ التربة الحسينية، للمرسل عن ابن طاووس في مصباح الزائر ونحوه عن البحار عن المزار الكبير عن جابر الجعفي عن الباقر عليه السلام قال: «كان بي وجع الظهر ووجع الخوف، فقال لي عليك بتربة الحسين بن علي عليه السلام، إنك إذا أردت أخذها فقم آخر الليل واغتسل وألبس أظھر ثيابك، وتطيّب بشعد وادخل وقف عند الرأس وصل أربع ركعات...» إلى آخر الحديث (٢).

(١) وسائل الشيعة: ٧٤٧/٢ المسألة ٢.

(٢) نقلاً عن كتاب (مستدرک وسائل الشيعة) للمحدث النوري: ٢/٢٢٠ الباب ٥٦ كتاب الحج.

د- كتاب الصلاة - أحكام السجدة - (ج ٨ ص ٤٣٧).

استجاب السجود على التربة الحسينية:

وأفضل الأرض تربة سيد الشهداء عليه السلام قطعاً ومسيرةً، ولذا كان الصادق عليه السلام لا يسجد إلا عليها تذلاً لله وإستكانة كما عن إرشاد الديلمي وعن مصباح الشريعة بسنده إلى معاوية بن عمار: (إنه كان لأبي عبد الله عليه السلام خريطة ديباج صفراء فيها تربة أبي عبد الله عليه السلام فكان إذا حضرته الصلاة صبه على سجّادته وسجد عليها، ثم قال عليه السلام: إن السجود على تربة أبي عبد الله عليه السلام يخرق الحجب الشيعي^(١).

وفي مرسل الفقيه عنه عليه السلام أيضاً: «السجود على طين قبر الحسين عليه السلام ينور إلى الأرضين السبعة»^(٢).

وفي توقيع الحميري المروي في الإحتجاج (لما كتب إلى صاحب الزمان عليه السلام يسأله عن السجود على لوح طين القبر هل فيه فضل؟ فأجاب: «يجوز ذلك وفي الفضل»^(٣).

(١) وسائل الشيعية: ٦٠٨/٣ المسألة ٣.

(٢) وسائل الشيعية: ٦٠٧/٣ المسألة ١.

(٣) وسائل الشيعية: ٦٠٨/٣ المسألة ٢.

٥- كتاب الصلاة - استحباب التعقيب في الصلاة - (ج ١٠ ص ٤٠٥).

استحباب كون التسيب بطين قبر الحسين:

قال الطبرسي فيما حكي عنه من مكارم الأخلاق عن كتاب الحسن بن محبوب: (إن أبا عبد الله عليه السلام شغل عن استعمال التريتين من طين قبر حمزة والحسين عليهما السلام والتفاضل بينهما، فقال عليه السلام: «السبعة التي من طين قبر الحسين عليه السلام تسبح بيد الرجل من غير أن يسبح»^(١)، ثم قال: وروى: «إن الحور العين إذا أبصرن واحداً من الأملاك يهبط إلى الأرض لأمر ما يستهدين منه المسبح والتراب من قبر الحسين عليه السلام»^(٢).

وعن الصادق عليه السلام: «من أدار سبعة من تربة الحسين مرة واحدة بالإستغفار أو غيره كتب الله له سبعين مرة»^(٣).

و- كتاب الحج - فيما يستحب استصحابه في السفر - (ج ١٨ ص ١٦٢).

استحباب استصحاب شيء من تربة الحسين عليه السلام للمسافر:

وينبغي للمسافر وغيره إستصحاب شيء من تربة الحسين عليه السلام التي هي أمان في كل خوف وشقاء من كل داء»^(٤) وخصوصاً إذا أخذ السبعة من تربته ودعا بها الميت على الفراش ثلاث مرات، ثم قبلها ووضعها على عينه، وقال:

(١) وسائل الشيعة: ١٠٣٣/٤ المسألة ٢.

(٢) وسائل الشيعة: ١٠٣٣/٤ المسألة ٣.

(٣) وسائل الشيعة: ١٠٣٣/١ المسألة ٤.

(٤) وسائل الشيعة: ٤٠٩/١٠ المسألة ٥.

(اللهم إني أسألك بحق هذه التربة وبحق صاحبها وبحق جدّه وأبيه وأمه وأخيه وبحق ولده الطاهرين إجماعاً شفاء من كلّ داء وأماناً من كلّ خوف وحفظاً من كلّ سوء، ثمّ وضعها في جيبه، فإنّ من فعل ذلك في الغداة فإنّه لا يزال في أمان الله حتّى العشاء، وإنّ فعل ذلك في العشاء فلا يزال في أمان الله حتّى الغداة، وإنّ خاف من سلطان أو غيره وخرج من منزله واستعمل ذلك كان حرّاً له^(١)).

ز - كتاب التجارة - شرايط البيع - (ج ٢٢ ص ٣٣٩ و ٣٤٠).

التبرك والتوسل بتربة الحسين (ع) عند النصارى زمان الطوفان:

يشترط الشيخ صاحب الجواهر - أعلى الله مقامه الشريف في شروط بيع كتب الحديث والتفسير والتربة الحسينية على الكفار وأهل الكتاب والمخالفين: التعظيم وعدم إقتضاء الإهانة (لإمكان منع منافاة ملكية الكافر للإحترام، خصوصاً إذا اتخذّه هو على جهة التبرّك والتبرك والإحترام، كما يصنعه النصارى في تراب الحسين (ع) عند الطوفان).

ح - كتاب النكاح - سنن الولادة - (ج ٣١ ص ٢٥٣).

من سنن الولادة تحنيك المولود بتربة الحسين (ع):

من آداب الولادة المستحبة تحنيك المولود بماء الفرات الذي هو النهر المعروف بتربة الحسين (ع)، وكما في رواية الكليني عن الإمام الباقر (ع): «حنكوا أولادكم بماء الفرات وتربة قبر الحسين (ع)»^(٢).

(١) وسائل الشيعة: ٣١٣/٨ المسألة ١ و ٢ الروايتان عن الصادق (ع).

(٢) وسائل الشيعة: ١٣٨/١٥ المسألة ٣.

ط - كتاب الأطعمة والأشربة - حرمة أكل الطين - (ج ٣٦ ص ٣٥٧ - ٣٦٨).

جواز الاستشفاء بترية الحسين عليه السلام:

وفي خبر سماعة بن مهران عن أبي عبد الله عليه السلام: «أكل الطين حرام على بني آدم ما خلا طين قبر الحسين عليه السلام من أكله من وجع شفاه الله»^(١).
وفي مرسله المصباح (مصباح المتهجد) أن رجلاً سأل الصادق عليه السلام فقال: إني سمعتك تقول: إن تربة الحسين عليه السلام من الأدوية المفردة وأنها لا ترمز بداء إلا هضمته. فقال: «قد قلت ذلك فما بالك؟ قلت: إني تناولتها فما انتفعت بها، قال عليه السلام: أما أن لها دعاء فمن تناولها ولم يدع به واستعملها لم يكدر يتفع بها. قال: فقال له: ما أقول إذا تناولتها؟ قال: تُقبلها قبل كل شيء وتضعها على عينيك ولا تناول منها أكثر من حصّة، فإن من تناول منها أكثر من ذلك فكأنما أكل لحومنا ودمائنا، فإذا تناولت فقل: اللهم إني أسألك بحق الملك الذي قبضها وأسألك بحق النبي وآل محمد الذي خزنها وأسألك بحق الوصي الذي حل فيها أن تصلي على محمد وآل محمد وأن تجعلها لي شفاء من كل داء وأماناً من كل خوف وحفظاً من كل سوء، فإذا قلت ذلك فاشدها في شيء وأقرأ عليها ﴿إنا أنزلنا في ليلة القدر﴾ فإن الدعاء الذي تقدّم لأخذها هو الاستبذان عليها وقراءة إنا أنزلناه ختمها»^(٢).

وعلى كل حال فظاهر الفتاوى الإقتصار على استثناء قبر الحسين عليه السلام

(١) وسائل الشيعة: ٣٩٧/١٦ المسألة ٤.

(٢) وسائل الشيعة: ٣٩٧/١٦ المسألة ٧.

من بين قبور سائر المعصومين عليهم السلام حتى النبي صلى الله عليه وآله بل المعروف كون ذلك من خواصه، كما ورد به بعض النصوص، فإنما يجوز أكل طين القبر للإستشفاء دون غيره ولو للتبرك في عصر يوم عاشوراء ويومي عيدي الفطر والأضحى.

٢- أحكام الصلاة والمساجد:

الصلاة هي أعظم عبادة على الإطلاق، والتي إن قُبِلَتْ قُبِلَ ما سواها وما بين الإيمان والكفر: ترك الصلاة كما ورد في الأحاديث الشريفة عن المعصومين عليهم السلام، ونظراً لأهميتها فقد استأثرت أحكام الصلاة بأضخم كتاب في الفقه.

وفي أبواب مبطلات الصلاة، البكاء من أجل الأمور والمشاكل الدنيوية كالבكاء على الموتى، واستثنت تلك الأحكام البكاء على الحسين عليه السلام والذي استشهد من أجل أن تقام الصلاة.

أما المساجد فكفاها فضلاً أنها بيوت الله في أرضه، والمستفاد من الأحاديث المروية عن المعصومين عليهم السلام: إن أشرف بقاع الأرض هي المساجد الثلاثة في مكة والمدينة والكوفة مضافاً لها الحرم الحسيني في كربلاء المقدسة، فلها أحكام فقهية اختصت بها دون سائر المساجد، كل ذلك إظهاراً لفضل التربة المطهرة التي ضمت شهيد كربلاء وأصحابه الميامين.

أ. كتاب الصلاة - قواطع الصلاة - (ج ١١ ص ٧٣).

البكاء على الحسين عليه السلام أمر أخروي ولا يُبطل الصلاة:

من مبطلات الصلاة: البكاء لشيء من أمور الدنيا، وقد يمنع كون البكاء لفقد الميت من الأمور الدنيوية مطلقاً، فإن البكاء على الحسين عليه السلام وغيره من الأئمة الهادين عليهم السلام بل والعلماء والمرضىين ونحوهم ممن كانت العُلقة بينهم وبين الباكي أخروية ليس لها من الدنيا في شيء.

ب. كتاب الصلاة - صلاة المسافر - (ج ١٤ ص ٣٣١).

التخيير بين القصر والإتمام في الحرم الحسيني واستحباب الإتمام:

خبر أبي شبل المروي في الكافي والتهذيب: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «أزور قبر الحسين عليه السلام؟» قال: نعم زر الطيب وأتم الصلاة، فقلت: فإن بعض أصحابنا يرون التقصير، قال: إنما يفعل ذلك الضعفة»^(١).

وفي خبر زياد القندي قال أبو الحسن عليه السلام: «يا زياد: أحب لك ما أحب نفسي وأكره لك ما أكره نفسي، أتم الصلاة في الحرمين وبالكوفة وعند قبر الحسين عليه السلام»^(٢).

ج. كتاب الصلاة - أحكام المساجد - (ج ١٤ ص ١٣).

النهي عن الصلاة في المساجد التي جددت فرحاً بقتل الحسين عليه السلام:

يُستثنى من فضل الصلاة في المسجد بعض المساجد التي وردت

(١) وسائل الشيعة: ٥٤٥/٥ المسألة ١٢.

(٢) وسائل الشيعة: ٥٤٦/٥ المسألة ١٣.

النصوص بالنهي عن الصلاة فيها ولعنها وبأن بعضها جُذِّد لقتل الحسين عليه السلام كمسجد ثقيف ومسجد الأشعث ومسجد سناك بن مخزومة ومسجد شيث بن ربيعي ومسجد حريز بن عبدالله البجلي ومسجد التميم، وعن سالم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «جُذِّدَتْ أَرْبَعَةُ مَسَاجِدَ بِالْكُوفَةِ فَرَحاً لِقَتْلِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، مَسْجِدَ الْأَشْعَثِ وَمَسْجِدَ جَرِيرٍ وَمَسْجِدَ سَنَّاكَ وَمَسْجِدَ شَيْثِ بْنِ رَبِيعٍ» (١).

د- كتاب الصلاة - أحكام المساجد - (ج ١٤ ص ١٢٠).

عدم كراهة قراءة مرثي الحسين عليه السلام في المسجد:

لا يُعَدُّ عدم الكراهية في إنشاد الشعر - فيما قَلَّ منه ويكثر نفعه - كبيت حكمة أو شاهد على لغة مثلاً في كتاب الله أو سنة نبيه عليه السلام ومرثي الحسين عليه السلام ومدح الأئمة عليهم السلام وهجاء أعدائهم، بل سائر ما كان حقاً وإرشاداً ويعدُّ عبادة.

٣- حرمة صوم يوم عاشوراء:

من العبادات التي فرضها الله على المسلمين صيام شهر رمضان المبارك شكراً له على نعمه التي لا تعدّ ولا تحصى، ولهذا فقد اختصت أكثر أيام السنة بالصيام المندوب، إلا أياماً معدودة حُرِّمَ فيها الصوم لبعض المناسبات التي حدثت فيها، ومنها يوم عاشوراء فهو يوم مصيبة وإنَّ

(١) وسائل الشريعة: ٥١٩/٣ المسألة ٢.

الصوم لا يكون شكراً على المصيبة كما يفعله الأمويون وأعداء أهل البيت النبوي الطاهر، وذلك نكاية بالآثمة الهداة وشيعتهم الذين اتخذوا هذا اليوم يوم حزن وعزاء بكّت له السموات والأرض.

كتاب الصوم - (ج ١٧ ص ١٠٥):

خبر يزيد الثرسي قال: سمعت عبيد بن زرارة يسأل الصادق عليه السلام عن صوم يوم عاشوراء، فقال: «مَن صامه كان حَقَّهُ من صيام ذلك اليوم حَقَّ ابنِ مرجانة وآلِ زياد، قال: قلت: وما كان حَقُّهم من ذلك اليوم؟ قال: «النار، أعدانا الله من النار ومن عمل يقرب من النار»^(١).

عن الحسين بن أبي غندر عن أبيه عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: سألتَه عن صوم يوم عاشوراء، قال: «ذلك يوم قُتل فيه الحسين عليه السلام، فإن كنت شامتاً فصم، ثم قال: إن آل أمية نذروا نذراً إن قُتل الحسين عليه السلام أن يتخذوا ذلك اليوم عيداً لهم يصومون فيه شكراً ويفرحون أولادهم، فصارت في آل أبي سفيان سنة إلى اليوم، فلذلك يصومونه ويدخلون على أهلهم وعيالاتهم الفرح ذلك اليوم، ثم قال: إن الصوم لا يكون للمصيبة ولا يكون إلا شكراً للسلامة، وإن الحسين عليه السلام أصيب يوم عاشوراء، فإن كنتَ فيمن أصيب به فلا تصم، وإن كنتَ شامتاً ممن سرّه سلامة بني أمية فصم شكراً لله تعالى»^(٢).

(١) وسائل الشيعة: ٣٤٠/٧، المسألة ٤.

(٢) وسائل الشيعة: ٣٤١/٧، المسألة ٧.

٤ - فضيلة زيارة الإمام الحسين عليه السلام :

من النوافل والمستحبات المؤكدة زيارة المراقد المطهرة للمعصومين الهداة - سلام الله عليهم أجمعين - عرفاناً لحقهم وإمتداداً لبيعتهم وإظهاراً لولائهم ومحبتهم، فهم أئمة الدعوة الإلهية الذين فرض الله سبحانه وتعالى طاعتهم وولائهم.

ويدرك المتتبع في كتب الأدعية والزيارات إنّ لسيد الشهداء عليه السلام زيارات عامة وخاصة كثيرة وعلى امتداد أيام السنة لا سيما في الأيام الشهيرة في التاريخ الإسلامي، كلّ ذلك لفتناً لأنظار الأمة وشذاً أكثر فأكثر إلى الأهداف التي استشهد من أجلها حتى تسعى في إحيائها والسير على نهجها القويم، مستلهمة من صاحب القبر دروس التضحية والفداء في سبيل العقيدة.

أ - كتاب الطهارة - الأغسال المستحبة - (ج ٥ ص ٥٩).

استحباب الغسل لزيارة الإمام الحسين عليه السلام :

ومن الأغسال المستحبة: الغسل للتوجه إلى السفر خصوصاً سفر زيارة الحسين عليه السلام عن يوسف الكناسي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا أتيت قبر الحسين عليه السلام فأنت القرات واغتسل»^(١).

(١) وسائل الشريعة: ٩٦٢/٢ الباب ٢٩ المسألة ١.

ب - استحباب زيارة المعصومين - (ج ٢ ص ٩٥).

استحباب زيارة الحسين عليه السلام:

إن تأكد استحباب زيارة الإمام الحسين عليه السلام من ضروريات المذهب والدين حتى ورد في أبواب المزار من كتاب وسائل الشيعة: «أن زيارته فرض على كل مؤمن» الباب ٤٤ - الحديث ١ و ٤ عن الإمام الباقر عليه السلام: «وأنها تطيل العمر» الباب ٣٧ الحديث ٨ عن الإمام الباقر عليه السلام: «وتفرج الغم»^(١) عن الإمام الرضا عليه السلام: «وتمنح الذنوب، ولكل خطوة حجة مبرورة» الباب ٤٥ الحديث ٢ عن الإمام الصادق عليه السلام .

٥ - مقام الإمام الحسين عليه السلام في النسب النبوي الشريف:

لم يكتف طواغيت بني أمية وبنو العباس بإقصاء الأئمة الهداة من آل البيت عليه السلام عن مواضعهم التي بؤأهم الله بها في الحكم والسياسة، بل شنوا حرباً إعلامية شعواء لتحطيم الكيان المعنوي للعلويين وتشويه سمعتهم. ومن عناوين ومظاهر هذا العداء الظالم والذي استشرى أبان الحكم العباسي: هو ذلك الإذعاء الواهي والباطل بأن النسب والإرث النبوي ينحصران بالعباسيين فقط دون غيرهم من الهاشميين أو من بني عبدالمطلب، حتى قال أحد شعرائهم:

أعظم رسول الله أقرب زلفاً لديه أم ابن العم في رتبة النسب
فأبناء عباس هم يرثونه كما العم لابن العم في الإرث قد حجب

(١) الباب ٢٥ الحديث ٢ .

فلنشاهد كيف رد الإمام موسى الكاظم عليه السلام بالبراهين القاطعة على هذه الشبهة.

كتاب الخمس - مستحق الخمس - (ج ١٦ ص ٩٥).

الحسن والحسين عليه السلام ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله:

المروى عن كتاب الاختصاص للمفيد في حديث طويل عن الكاظم عليه السلام مع الرشيد أيضاً قال فيه: «وإني أريد أن أسألك عن مسألة فإن أجبتني أعلم إنك قد صدقتني وخليت عنك ووصلتك ولم أصدق ما قيل فيك. فقلت: ما كان علمه عندي أجبتك فيه. فقال: لم لا تنهون شيعتكم عن قولهم لكم: يا ابن رسول الله وأنتم ولد علي، وفاطمة إنما هي وعاء، والولد ينسب إلى الأب لا الأم. فقلت: إن رأي أمير المؤمنين أن يعفني عن هذه المسألة فعل. فقال: لست أفعل أو تجيب، فقلت: فأتا في أمانك أن لا يصيبني من آفة السلطان شيء؟ فقال: لك الأمان، فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: «ووهبنا له إسحق إلى أن قال: وعيسى»^(١) فمن هو أبو عيسى؟ فقال: ليس له أب، إنما خلق من كلام الله عز وجل وروح القدس، فقلت: إنما الحق عيسى بذراري الأنبياء من قبل مريم، والحقنا بذراري الأنبياء من قبل فاطمة عليه السلام لا من قبل علي عليه السلام فقال: أحسنت أحسنت، يا موسى زدني من مثله، فقلت: أجمعت الأمة برّها وفاجرها أن حديث التجرائي حين دعاه النبي صلى الله عليه وآله إلى المباهلة لم يكن في الكساء إلا النبي صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليه السلام فقال الله تبارك وتعالى: «فمن حاجتك فيه من بعد ما جاءك من العلم قل: تعالوا ندع أبناءنا وأبناتكم

ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم»^(١) فكان تأويل ابنائنا الحسن والحسين عليه السلام ونساءنا فاطمة وأنفسنا علي عليه السلام فقال: أحسنت»

٦- تأثير الإمام الحسين عليه السلام في التراث الشعبي والعادات الاجتماعية:

ستبقى ثورة أبي الضمير الإمام الحسين عليه السلام ضاربة الجذور في أعماق الأمة الإسلامية وشعلة وهاجة في ضمير كل إنسان حر وشريف، متجاوزة حدود الزمان والمكان لأنها قامت من أجل إنقاذ البشرية من برائث الظلم والعبودية، فانطبعت آثار العطاء الحسيني المقدس على كثير من الأداب والأعراف الاجتماعية وعلى الأخص مراسم إقامة مجالس العزاء كجزء من التراث الشعبي الأصيل في العالم الإسلامي.

أ- كتاب التجارة - في حرمة النوح الباطل - (ج ٢٢ ص ٥٥).

كراهة النوح إلا على الحسين عليه السلام والشهداء معه:

لا يبعد كراهة أصل النوح خصوصاً في الليل، إلا على الحسين - صلوات الله وسلامه عليه - والشهداء معه وغيره من النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام بل يمكن إلحاق العلماء بهم.

ب - كتاب الأطعمة والأشربة - (ج ٣٩ ص ٥٠٧).

استحباب ذكر عطش الحسين عليه السلام عند شرب الماء:

روى داود الرقي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام

(١) سورة آل عمران: ٦١.

إذا استسقى الماء فلماً شربه رأيته قد استعبر واغرو رقت عيناه بدموعه، ثم قال: «يا داود لعن الله قاتل الحسين عليه السلام فما انقص ذكر الحسين عليه السلام للعيش، إني ما شربت ماءً بارداً إلا ذكرت الحسين عليه السلام، وما من عبد شرب الماء فذكر الحسين عليه السلام وأهل بيته ولعن قاتله إلا وكتب الله عز وجل له مائة ألف حسنة وخط عنه مائة ألف سيئة ورفع له مائة ألف درجة، وكأنما اعتق مائة ألف نسمة، وصيره الله يوم القيامة ثلج الفؤاد»^(١).

ج - كتاب النكاح - وسائل الشيعة - (ج ١٥ ص ١٢٨).

أحكام الأولاد - الباب ٢٦ م ١ - استحباب التسمية بالحسين عليه السلام:

عن سليمان الجعفري قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: «لا يدخل الفقر بيتاً فيه اسم معتمد أو أحمد أو علي أو الحسن أو الحسين أو جعفر أو طالب أو عبدالله أو فاطمة من النساء»

حصاد البحث:

لقد كان الإمام أبو عبدالله الحسين بن علي عليه السلام مثلاً أعلى للمصنفات الحميدة ومكارم الأخلاق والتي فاضت بها كتب الحديث والتأريخ، حتى ختم حياته المليئة بالخير والمطاء بثورته الخالدة لمقارعة الظالمين وكما قال هو عليه السلام لطلب الإصلاح في أمة جدي محمد عليه السلام .
فمثلما كان محط الأنظار في حياته، فقد أنعم الله عز وجل عليه بـ

(١) وسائل الشيعة، ٢١٦/١٧، الباب ٢٧ المسألة ١.

﴿نعم عقى الدار﴾^(١)، حتى تسركت شخصيته الفذة آثارها على بعض الأحكام الفقهية والقيم الإسلامية التي ترافق الإنسان من يوم مولده إلى حين موته. كل هذا من أجل أن يبقى الحسين عليه السلام علماً للهداية في الدنيا والآخرة وفي حياته وبعد شهادته.

فسلام عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يُبعث يوم القيامة شافعاً.. وعلى أصحابه الذين بذلوا مهجهم دونه..

خلاصة البحث:

(أحكام فقهية حول الشخصية الحسينية)

إن الباحث في كتب الحديث والفقه يجد بعض الأحكام العامة التي ترتبط بكل الشهداء المجاهدين في سبيل الله ويجد أيضاً استثناءات في بعض المسائل الفقهية اختصت بالإمام الحسين عليه السلام دون غيره من الشهداء، وقد وفقت لجمع هذه المسائل وثبوتها نقلاً عن كتاب (جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام) للفتية الكبير وأستاذ الفقهاء المرحوم الشيخ محمد حسن النجفي - أعلى الله مقامه الشريف -.

- ١- فضيلة التربة الحسينية تشمل على ٩ مواضع.
- ٢- أحكام الصلاة والمساجد تشمل على ٤ مواضع.
- ٣- حرمة صوم يوم عاشوراء.
- ٤- فضيلة زيارة الإمام الحسين عليه السلام تشمل على موضوعين.
- ٥- مقام الإمام الحسين عليه السلام في النسب النبوي الشريف.

(١) سورة الرعد: الآية ٢٤.

٦ - تأثير الإمام الحسين عليه السلام في التراث الشعبي - يشتمل على ٣ مواضع.

لقد أنعم الله - عز وجل - على الإمام الحسين عليه السلام بـ ﴿نعم عيني الدار﴾^(١) حتى تركب شخصيته الفذة آثارها على بعض الأحكام الفقهية والقيم الإسلامية التي ترافق الإنسان من يوم مولده إلى حين موته. كل هذا من أجل أن يبقى الحسين عليه السلام علماً للهداية في الدنيا والآخرة وفي حياته وبعد شهادته.

فعلى سبيل المثال: نجد أن الاعتقاد بفضل وشرف البشرية الحسينية المقدسة ليس لدى المسلمين فحسب، بل حتى عند المسيحيين كما ورد في كتاب (الجواهر)، لأن سيد الشهداء عليه السلام شخصية مقدسة عالمية تعيش في ضمير كل إنسان حر وشريف، متجاوزة حدود الزمان والمكان.

(١) سورة الرعد: ٢٤.



التربة الحسينية

عبدالرضا الزبيدي

المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام قم المقدسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الخلاصة:

كانت البشرية في كل زمانٍ ومكانٍ تقُدّس المواطن التي تسكنها، وتدافع عنها، وتعتبر التراب الذي تضحي من أجله مقدّساً، وقد كتّن رسول الله ﷺ علياً بأبي تراب؛ لقداسة التراب وشرفه وعظيم خيراته.

واتخذ قداسة التراب منحى آخر بسقوط الحسين عليه السلام شهيداً مضرّجاً بدمه على أرض كربلاء، فأصبح هذا التراب الطاهر رمزاً للحياة الحرة الكريمة، ومحرّكاً قوياً لدماء أبناء الإسلام من أجل الدفاع عن دينهم، ثم صار شفاءً للمؤمنين وأمناً ونجاةً لهم من أيّ مكروه، وفي ذلك روايات عديدة تعرضها لاحقاً.

وصارت التربة الحسينية مركز سجود جبهة المؤمنين من أتباع أهل البيت عليه السلام بدل التراب العادي أو بدائله منّا سمح به الشارع المقدّس؛ لتبقى ذكرى شهادة الإمام الحسين عليه السلام باقية في كلّ وقتٍ تهيج المشاعر إن اعتدى على الدين أحد، أو حاول من حاول إفراغ الإسلام من محتواه الحقيقي.

المقدمة:

كانت الأرض ولا زالت مركز الحياة البشرية منذ أن هبط آدم عليه السلام وحزاء عليها، وتكاثرت نسلهما، فأصبحوا شعوباً وقبائل بعد ذلك، فاستعمرت ونمت على سطحها الحضارات والمدنيات على مرّ التاريخ البشري.

إن لذرات التراب المكوّن لهذه الأرض قداسة خاصة، فأدم عليه السلام خُلِق من طينه، ونُفخ فيه بإذن الله تعالى، فكان البشر بآدميته التي نراها. إن الأرض التي دحاها الله تعالى هي أم الخير والرزق والطعام، وقد وهبها الله تعالى طبيعة الحياة في هذا الكون الرحب، وحدد السنن الكونية التي تجري على كل من جلس وجري، فمن استنصح وعقل فقد فاز باستثمار مواردها، وهتء العيش له بأمن وأطمئنان، وعكس ذلك كان خراب الديار.

فأرسل الله تعالى الرسل والأنبياء عليهم السلام مبشرين ومنذرين، وخاتمهم نبينا محمد ﷺ الذي قال: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً».

فالحديث عن الأرض طويل ومتشعب؛ ولا أريد أن أخوض فيه الآن بهذه المجالة، وهذه مقدمة متواضعة لموضوع بحثنا حول التربة الحسينية وقديستها وخاصيتها الشفائية، والتي هي جزء من هذه الأرض التي تحدثنا عنها آنفاً.

أَوَّلُ مَنْ كُنِّيَ بِأَبِي تَرَاب:

نعود إلى التراب ولكن بحالٍ آخر، فلقد كُنِّيَ عليٌّ بأبي تراب نسبةً إلى قول رسول الله ﷺ له.

ففي غزوة العشيرة في السنة الثانية للهجرة المباركة وجد النبي ﷺ علياً نائماً على الأرض والتراب يعلو بدنه الطاهر، فأيقظه قائلاً له: «قم يا أبا تراب». «ولعل من أجل شرف التراب وقداسته وعظيم خيراته وبركاته ما كنِّيَ به رسول الله ﷺ وصيّه وأحب الخلق إليه علياً ﷺ بأبي تراب، وكانت هذه أحب الكنى إلى أمير المؤمنين ﷺ»^(١).

وذكر صاحب الفدير في الجزء السادس قائلاً: «وأخرج الطبراني في الأوسط والكبير بإسناده عن أبي الطفيل قال: جاء النبي ﷺ وعلي ﷺ نائم في التراب فقال: إِنَّ أَحَقَّ أَسْمَاكَ أَبُو تَرَاب، أَنْتَ أَبُو تَرَاب، وَذَكَرَهُ الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٠/٩) فقال: رجاله ثقات.

أئمة أهل البيت ﷺ والتربة الطاهرة:

بأمر الأئمة الأطهار ﷺ توجيه شيعتهم إلى التربة الحسينية بعد استشهاد سيد الشهداء ﷺ حيث أخذ الإمام زين العابدين ﷺ قبضة من تراب مقتل أبيه ﷺ وصرها في قطعة قميص وأخذها معه. ولَفَّتَ النظر إلى شرف هذه التربة وميزتها الإمام الباقر ﷺ من بعده.

(١) الأرض والتربة الحسينية - الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء.

وباتساع دائرة مدرسة الإمام الصادق عليه السلام وانتشار طلبته أكد الإمام عليه السلام على أهمية هذه التربة وقديستها، «وإذا كان من حق الأرض السجود عليها وعدم السجود على غيرها، أفليس من الأفضل والأحرى أن يكون السجود على أفضل وأطهر تربة من الأرض وهي التربة الحسينية»^(١) قال الصادق عليه السلام: «السجود على طين قبر الحسين عليه السلام ينور إلى الأرض السابعة»^(٢).

وعن الحسن بن محمد الديلمي في الإرشاد قال: «كان الصادق عليه السلام لا يسجد إلا على تربة الحسين تذكلاً لله واستكانة إليه»^(٣).
وعن محمد بن الحسن في (المصباح)^(٤) بإسناده عن معاوية بن عمار قال: «كان لأبي عبد الله عليه السلام خريطة ديباج صفراء فيها تربة أبي عبد الله عليه السلام، فكان إذا حضرته الصلاة صبه على سجادته وسجد عليها، ثم قال عليه السلام: «إن السجود على تربة أبي عبد الله عليه السلام يخرق الحجب السبعة»^(٥).
أما الإمام الرضا عليه السلام فكان يعرف تربة جده الحسين عليه السلام بسمها فقط، وهي تحرك فيه الأشجان والأحزان، وتذكره بمصابه وأهل بيته، وهتك حرمة، وحرقت خيام عماته، وفرارهن في البراري ثم ما جرى عليهم من ذلك وسبي موجه.

(١) الأرض والتربة الحسينية، آل كاظم الطباطبائي.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ١/٨٢٤.

(٣) وسائل الشيعة: ٥/٣٦٦، بحار الأنوار: ٨٢/٦٥٨.

(٤) مصباح المتعبد: ٥١٠.

(٥) وسائل الشيعة: ٥/٣٦٦ رقم ٦٨٠٨.

عن حكيم بن داود، عن سلمة، عن أحمد بن إسحاق القزويني عن أبي بكار قال: «أخذتُ من التربة التي عند رأس قبر الحسين بن علي عليه السلام فأتيتها طينة حمراء، فدخلت على الرضا عليه السلام فعرضتها عليه، فأخذها في كفه ثم شتمها ثم بكى حتى جرت دموعه، ثم قال: «هذه تربة جدِّي»^(١).

بصريح العبارة قال الإمام الرضا عليه السلام: «هذه تربة جدِّي»، أي أنَّ لها خاصيتها الفريدة، وأنها للحسين عليه السلام فقط، وأنها تراب كربلاء الشهادة والإيثار، وأنها رمز لانتصار الحق على الظلم والعبودية.

إنَّ هذه التربة لها أسرار إلهية، وكرامات ربانية، فهي تجعل الساجد عليها في صلاته يتذكر عظمة فداء الحسين عليه السلام ودمه الطاهر الذي سال عليها.

فأية قدسية عظيمة تحملها تلك الطينة الطبيعية والتي يقول الصادق عليه السلام بحقتها: «السجود على طين قبر الحسين عليه السلام ينور إلى الأرضين السبع، ومن كانت معه سبعة من طين قبر الحسين عليه السلام كتب مسجداً وإن لم يستح بها»^(٢).

الاعتقاد:

هناك ملاحظة لابد من الإشارة إليها بشأن مسألة الشفاء بالتربة الحسينية، فكل شيء حاصل في ذلك مع الاعتقاد أولاً، وإلا فلا يكون هناك أمر ما إلا خلافه.

(١) المصدرك: ٣٣٤/١٠، رقم ١٢١٢٥، كامل الزيارات: ٤٧٤.

(٢) وسائل الشيعة: ٣٦٥/٥.

فهذه التربة الشافية هي كرامة من الله جل شأنه للإمام الحسين عليه السلام، وكذلك موضع قدسيته، فقد روي عن ابن أبي يعفور قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: يأخذ الإنسان من طين قبر الحسين عليه السلام فينتفع به ويأخذ غيره فلا ينتفع به! فقال: «والله الذي لا إله إلا هو ما يأخذه أحد وهو يرى أن الله ينفعه به إلا نفعه الله به»^(١).

إذن فلا انتفاع بها لا يكون إلا مع الإيمان بأن الله جل شأنه سوف يشفيه ببركة الحسين عليه السلام ودمائه الزكية.

تراب القارورة والدم العبيط:

ذكرت الروايات الواردة في كتبنا المعتبرة وغيرها «أن جبرئيل جاء إلى النبي ﷺ بالترية التي يقتل عليها الحسين عليه السلام، قال أبو جعفر عليه السلام: فهي عندنا»^(٢). وحسب ما وصلنا أن هذه التربة وضعها رسول الله ﷺ في قارورة خاصة وأودعها عند أم سلمة رضي الله عنها، فقد ورد عن ابن عباس قوله: «بيننا أنا راقد في منزلي إذ سمعت صراخاً عظيماً عالياً من بيت أم سلمة زوج النبي ﷺ فخرجت يتوجه بي قاندي إلى منزلها، وأقبل أهل المدينة إليها من الرجال والنساء.

فلما انتهيت إليها قلت: يا أم المؤمنين، مالكِ تصرخين وتستغيثين؟ فلم تجبني، وأقبلت على النسوة الهاشميات وقالت: يا بنات عبد المطلب،

(١) كامل الزيارات: ٤٦٦، وسائل الشيعة: ٥٢٢/١٤، رقم ١٩٧٣٧، المستدرک: ٢٢٩/١٠.

(٢) بحار الأنوار: ٤٥/٢٣٦.

اسعدين وابكين معي؛ فقد قُتل والله سيّدُ كُنٍّ وسيد شباب أهل الجنة، قد والله قتل سبط رسول الله وريحانته الحسين، فقلت: يا أُمّ المؤمنين، ومن أين علمت ذلك؟ قالت: رأيت رسول الله ﷺ في المنام الساعة شعاً مذعوراً فسأته عن شأنه ذلك؟ فقال: قتل ابني الحسين ﷺ وأهل بيته اليوم، فدفنتهم، والساعة فرغت من دقتهم.

قالت: فصمت حتى دخلت البيت وأنا لا أكاد أن أغفل، فنظرت فإذا بتربة الحسين التي أتى بها جبرئيل من كربلاء فقال: إذا صارت هذه التربة دماً فقد قتل ابنك وأعطانيها النبيُّ فقال: اجعلي هذه التربة في زجاجة، أو قال في قارورة ولتكن عندك، فإذا صارت دماً عبيطاً فقد قتل الحسين، فرأيت القارورة الآن وقد صارت دماً عبيطاً تفور.

قال: فأخذت أُمّ سلمة من ذلك الدّم فلطخت به وجهها، وجعلت ذلك اليوم مأتماً ومناحةً على الحسين ﷺ، فجاءت الركبان بخبره وأنه قتل في ذلك اليوم^(١).

وفي أسد الغابة جاءت الرواية بصورةٍ مختلفةٍ عن الأولى، حيث ورد عن ابن عباس قوله: «رأيت رسول الله فيما يرى النائم نصف النهار وهو قائم أشعث أغبر بيده قارورة فيها دم، فقلت: بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله، ما هذا الدم؟ قال: هذا دم الحسين، لم أزل ألتقطه منذ اليوم، فوجد قد قتل في ذلك اليوم^(٢).

(١) بحار الأنوار: ٤٥ / ٢٢٠.

(٢) أسد الغابة: ٢ / ٣٠.

على أي حالٍ كيفما كانت الرواية - رغم اعتقادنا بصحة الأولى - حيث جاء في الأدعية الواردة عن الأئمة الأطهار عليهم السلام التي ذكروا أنها تُقرأ مع طلب الاستشفاء بالتربة الطاهرة، عبارة [وبحقّ الملك الذي أخذها] أو في عبارة أخرى [بحقّ الملك الذي قبضها]، والملك المقصود هو جبرائيل.

فالثابت هنا أنّ هناك قارورة أودعها النبي صلى الله عليه وآله عند أم سلمة، فيها تراب من كربلاء، والحقيقة أنّ التراب هو جزء من التراب الذي ذبح عليه الحسين الشهيد عليه السلام، وقد جلبه جبرائيل للرسول الكريم صلى الله عليه وآله، وأخبره عن الله سبحانه وتعالى بما هيته ومقتل الإمام الحسين عليه السلام عليه. والشيء الملفت للنظر والمثير للعقل هو الارتباط بين تراب كربلاء والدم.

والمثير هنا لماذا تحوّل ما في القارورة إلى دم يفور بعد أن كان تراباً بخصائصه الطبيعية؟

الحقيقة أنّ الأرض هي مصدر الحياة الأساسية؛ حيث أودع الله تعالى فيها من خزائنه المتنوّعة ما لا يُعدّ ولا يُحصى.

أما الدم فهو الأصل الذي يُديم حياة الإنسان، فالإنسان يرتبطان فيما بينهما بخصوصية إدامة الحياة، إن لم يُصنّبهما شيء ما يغير من تكوينتهما الخاصة.

فكثيراً ما سالت الدماء على الأرض دفاعاً عنها ضد معتدٍ أثيم يريد أن يعيث بها، أو يستثمرها بطريق غير مشروع، أو

يستعيد ساكنيها.

فالحرية والكرامة والمبادئ لا تصان إلا بالتضحية، وهذه التضحية مهما كُنت صورتها فهي لا تصل إلى الجود بالنفس، وما أكثر الأرواح التي أزهقت من أجل الحفاظ على الأرض وما عليها!

فاكتسبت الأرض بذلك قدسية متميزة في نفوس الكثير، فأصبح

الإنسان

يجاهد وتسيل دماؤه ويموت وهو مرتاح الضمير، لكي تبقى أرضه منيعةً بوجه المعتدي الغادر، ولا يسمح لأيٍّ معتدٍ أن يُسيء إلى قدسية أرضه في نظره.

فهو يشتم رائحتها، ويروىها إن ظمئت، ويقَلِّبُ ترابها لزيادة خصوبتها، وتهيتها للزراع، ويجني ثمارها ويتنفع به فينفع به.

وتفتخر التربة التي تروى بالدماء على غيرها؛ بأنها اكتسبت شرفاً رفيعاً وقيمةً معنويةً لا تقدر بثمن، فما بالك بالتربة التي تروى بدم الحسين بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت محمد رسول الله صلوات الله عليهم، وهو «أبو عبد الله ريحانة النبي ﷺ، وشبهه من الصدر إلى ما أسفل منه؟ فإنه ولما ولد أذن النبي في أذنه، وهو سيد شباب أهل الجنة، وخامس أهل الكساء»^(١)، ورافع راية الإسلام الحقيقي، والمضحي بكل شيء حتى طفله الرضيع من أجل أن تبقى كلمة الله هي العليا، والإسلام محفوظاً من التحريف الأموي البغيض، مستقيماً في نهجه.

(١) أسد الغابة: ٢٥٢، كما ورد خبر أهل الكساء في الكتاب نفسه في الجزء الثاني: ص ١٨.

لكل هذا وغيره جعل الله لتربة كربلاء المروية بدم الحسين عليه السلام وأهل بيته كرامة عظيمة، وقديسة كريمة، ولتبقى هذه التربة الطاهرة رمزاً حياً لقوى الحق والعدل من المسلمين وغيرهم أمام قوى الظلم والشر والانحراف، ولتكون أيضاً محرّكاً عملاقاً لدماء أبناء الإسلام عامة، وأتباع أهل البيت عليه السلام خاصة، ورموز الخير في العالم ضد كل بني واستعباد، ومن يحاول دزّس هذا الدين على مدى التاريخ.

الشفاء والتبرك عند المسلمين:

كان المسلمون ولا يزالون يتبركون بتراب قبور الأنبياء والأئمة والأولياء الصالحين والشهداء، وهذا الأمر ليس محصوراً لدى المسلمين دون غيرهم.

فلا يزال محل قدم إبراهيم الخليل النبي عليه السلام في مقامه ببيت الله الحرام موضع تقديس المسلمين كافة.

والحجر الأسود في ركن الكعبة المشرفة يتزاحم عليه الحجاج لتقبيله وشتمه، بل وتعلق أيادي الحجاج بأستار الكعبة ويتمسح الآخرون بحجر البيت الحرام رغبة بالرحمة الإلهية والاستشفاء، وكيف لا وهو بيت الله الحرام، وبما خصه الله بالكرامة والقدسية؟

أما ماء زمزم فليس هناك من زائر للبيت العتيق إلا ويأخذ منه شيئاً يشربه أو يفتسل ليستشفى ويتبرك به رغم أنه ماء لا يختلف في خواصه الكيمياوية عن المياه الأخرى، إلا أن الله جل شأنه أودع فيه البركة والخير

والاستشفاء.

ولا يغرب عن بالنا البصاق الظاهر لرسول الله ﷺ، وكيف أن الله - عظمت قدرته - قد جعل فيه الشفاء والبركة، فبصاقه ﷺ عولج فيه كثير من المسلمين، وأولهم إمام المتقين علي بن أبي طالب ﷺ حينما كان أرمد في معركة فتح خيبر، وأمر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم ﷺ بأن يعطي الراية في اليوم التالي لعلي ﷺ بعد أن نكس بعض الصحابة عن تقدمهم، وأدركوا أنهم غير قادرين على الفتح.

فاستدعى علياً ﷺ فجاءه أرمد العينين، فبصق في عينيه فشفي بإذن الله سبحانه وتعالى كأن لم يكن فيهما شيء، وسلمه الراية وفتح الله - جل شأنه - على يديه، وهذه الحادثة مثبتة في أغلب كتب الحديث والسيرة والتاريخ؛ فقد ورد في صحيح البخاري في باب مناقب علي ﷺ عدة أحاديث بشأنها وبأسانيد مختلفة، مع اختلاف يسير بالألفاظ نقتطف بعضاً منها:

سأل رسول الله ﷺ قائلاً: «أين علي؟ فقبل: يشتكي عينيه، فبصق في عينيه، ودعاه فبرأ كأن لم يكن به وجع»^(١).

وحدِيث آخر: «... فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: يشتكي عينيه يا رسول الله، قال: (فأرسلوا إليه فاتوني به) فلَمَّا جاء بصق في عينيه ودعاه فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية...»^(٢).

(١) صحيح البخاري، باب فضل من أسلم على يديه.

(٢) المصدر نفسه: باب مناقب علي ﷺ ص ٦٧٥، جاء برقم ٣٧٠١ و ٣٧٠٢، وكذلك في باب آخر برقم ٤٢١٠.

«وعن علي عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد فتح خيبر: لولا أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلّت اليوم فيك مقالاً لا تمز على ملأ من المسلمين إلا أخذوا من تراب رجليك وفضل طهورك يستشفون به، ولكن حسبك أنك مني وأنا منك»^(١).

وعن إسماعيل: أن ابن المنكدر^(٢) يصبه الصمّات، فكان يقوم ويضع خدّه على قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعُوتِبَ في ذلك، فقال: يستشفى بقبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم والاستشفاء أعظم من التبرك^(٣).

ناهيك عما يقوم به المسلمون من التبرك والاستشفاء بما يفضل من وضوء النبي المتساقط من وجهه الكريم ويديه المباركتين.

بل الأقوى من هذا وذلك فإن لباس النبي وجسده الشريف يحفظان من الآفات والأهوال، فقد لف جسد فاطمة بنت أسد (أم الإمام علي عليه السلام) حينما توفيت بقميصه حماية لها من أهوال ما بعد الموت، ووفاء لها لما قامت به من تربيته في طفولته، بل أكثر من ذلك نزل في قبرها حتى يؤسّع عليها ولا تضغط في لحدها.

وتبرّك المسلمون بتراب قبر حمزة سيد الشهداء عليه السلام عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد قال ابن جببر في رحلته (ص ١٥٣): «وحول الشهداء بجبل أحد تربة حمراء، وهي التربة التي تنسب إلى حمزة، ويتبرّك الناس بها»^(٤).

(١) منهج الرشاد لمن أراد السداد: ص ١٠٥.

(٢) محمد بن المنكدر القرشي النخعي، أحد الأئمة الثمانية، توفي سنة ١٣٠هـ - ٧٤٨م.

(٣) منهج الرشاد لمن أراد السداد: ص ١٠٣.

(٤) التدير: ٢٣٥/٥، طبعة مركز التدير المحققة، الطبعة القديمة: ١٦٦/٥.

أردت من هذا العرض المختصر أن أوضح منزلة وعظمة النبي وآله الأظهر صلوات الله عليهم، وحجم الكرامات التي خصهم الله سبحانه وتعالى بها كمقدمة بسيطة للحديث عن التربة الحسينية وقُدسيتها وأهميتها في شفاء المؤمنين.

التربة الطاهرة بين الشفاء والأمان:

ورد عن أئمتنا عليهم السلام: أن تربة سيد الشهداء الحسين عليه السلام هي شفاء من كل داء وأمان من كل خوف.

لقد شاع بين أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام وغيرهم: أن لهذه التربة مفعولاً عظيماً في علاج الأمراض والأسقام، وكذلك فهي تُضفي الأمان والأمان من كل رعب بإذن الله سبحانه وتعالى.

لقد حثَّ الإمام الصادق عليه السلام تلاميذه وأتباعه من شيعته على أهمية التداوي بهذه التربة، ففي رواية ابن قولويه قال: حدثني محمد بن عبد الله، عن أبيه، عن عبد الله البرقي، عن بعض أصحابنا، قال: «دفعني إليَّ امرأة غزلاً وقالت: إدفعه إلى حَجَبَةِ مَكَّة ليخاط به كسوة للكعبة، قال: فكرهت أن ادفعه إلى الحَجَبَةِ وأنا أعرفهم، فلما أن صرنا إلى المدينة دخلت على أبي جعفر عليه السلام وقلت له: جعلت فداك، إن امرأة أعطتني غزلاً فقالت: إدفعه إلى حَجَبَةِ مَكَّة ليخاط به كسوة للكعبة، فقال: «اشتر به عللاً وزعفراناً، وخُذْ من طين قبر الحسين عليه السلام واعجنه بماء السماء، واجعل فيه شيئاً من العسل والزعفران وفَرِّقْه

علي الشيعة ليدأوا به مرضاهم»^(١).

وعن محمد بن مسلم - في حديث - أنه كان مريضاً فبعث إليه أبو عبد الله عليه السلام بشراب فشربه فكأنما نشط من عقال، فدخل عليه فقال: كيف وجدت الشراب؟ فقال: كنت آيساً من نفسي فشربته فأقبلت إليك كأنما نشطت من عقال، فقال: يا محمّد، إن الشراب الذي شربته كان فيه من طين قبور آبائي، وهو أفضل ما نستشفى به، فلا تعدل به فإننا نسقيه صبياننا ونساءنا فترى منه كلّ خير»^(٢).

وفي رواية أبي بكر الحضرمي عن الصادق عليه السلام قال: «لو أن مريضاً من المؤمنين يعرف حقّ أبي عبد الله عليه السلام وحرمة، أخذ له من طين قبر الحسين عليه السلام مثل رأس الأتملة كان له دواء وشفاء»^(٣).

وقال الصادق عليه السلام: «في قبر الحسين عليه السلام شفاء من كلّ داء، وهو الدّواء الأكبر»^(٤).

وعنه عليه السلام قال: «من أصابته علّة فبدأ بطين قبر الحسين عليه السلام أشفاه الله من تلك العلّة، إلّا أن تكون علّة السام»^(٥)»^(٦).

(١) كامل الزيارات: ٤٦١، وسائل الشيعة: ٥٢٤/١٤، المستدرک: ٣٢٠/١٠، رقم ١٢١١٥.

(٢) الوسائل: ٥٢٦/١٤، رقم ١٩٧٤٩، كامل الزيارات: ٢٧٥ باختصار.

(٣) مصابح المتجهّد: ٧٣٢.

(٤) من لا يحضره الفقيه: ٥٩٩/٢.

(٥) السام: الموت.

(٦) وسائل الشيعة: ٥٢٦/١٤، رقم ١٩٧٤٨.

تربة الإمام الحسين عليه السلام والأمن من الخوف:

إن أغلب الروايات التي طالعناها في كتبنا المعتبرة ربطت ظاهرة الشفائية مع الأمان في أحاديث الأئمة عليهم السلام، وقد ازدادت اعتقادات المسلمين بتربة الحسين عليه السلام؛ حتى أصبح أتباع أهل البيت عليهم السلام يوصون قبل موتهم بأن يدفن معهم عند الموت تربة الإمام الحسين عليه السلام، اعتقاداً منهم بالأمن من أهوال تلك الحفرة الضيقة وضغطة القبر، فالرجل الذي يسأل الإمام الصادق عليه السلام عن دواء، وأشار عليه بالتربة الحسينية، قال: «قلت: قد عرفت الشفاء من كل داء، فكيف الأمان من كل خوف؟

قال: إذا خفت سلطاناً أو غير ذلك فلا تخرج من منزلك إلا ومعك من طين قبر الحسين عليه السلام، وقل إذا أخذته: (اللهم إن هذه طينة قبر الحسين وليك وابن وليك، اتخذتها حرزاً لِمَا أَخَافُ وَلِمَا لَا أَخَافُ) فإنه يرد عليك ما لا تخاف.

قال الرجل: فأخذتها كما قال لي فأصح الله بدني، وكانت لي أماناً من كل ما خفت وما لم أخف كما قال، فما رأيت بحمد الله بعدها مكروهاً»^(١).

وورد في نصوص بعض الأدعية عن الإمام الصادق عليه السلام التي تُقرأ مع التربة حيث قال: «..ونجاة من كل آفة، وحرزاً ممّا أخاف وأحذر»^(٢).

(١) الأمالي القلوسية: ٣٢٥/١، والتهذيب: ٦٦/٦.

(٢) وسائل الشيعة: ٥٢٢/١٤، رقم ١٩٧٤٠.

وعن الحسين ابن أبي العلاء قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «حُكِّمُوا أولادكم بتربة الحسين عليه السلام فإنها أمان»^(١).

آداب الاستشفاء:

إنَّ التداوي بتراب قبر الإمام الحسين عليه السلام يتلزم مع أدعية خاصة بها، وقد أُرشدنا الأئمة الأطهار عليهم السلام إلى الدعاء واليك بعضاً من هذه الأدعية: جاء رجل إلى الإمام الصادق عليه السلام وقال له: «إنني رجلٌ كثير العلل والأمراض، وما تركت دواءً إلَّا وتداويت به، فقال لي: فأين أنت تربة الحسين عليه السلام؟ فإن فيها الشفاء من كلِّ داء، والأمن من كلِّ خوف وقل إذا أخذته:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ هَذِهِ الطِّينَةِ، وَبِحَقِّ الْمَلِكِ الَّذِي أَخَذَهَا، وَبِحَقِّ بَيْتِهِ، اجْعَلْ لِي فِيهَا شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ، وَأَمَاناً مِنْ كُلِّ خَوْفٍ. قال: ثم قال: إِنَّ الْمَلِكَ الَّذِي أَخَذَهَا جِبْرِئِيلُ، وَأَرَاهَا النَّبِيُّ ﷺ فقال: هذه تربة ابنك - هذا - تَقْتُلُهُ أُمْتُكَ مِنْ بَعْدِكَ، وَالنَّبِيُّ الَّذِي قَبِضَهَا فَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَنَا الْوَصِيُّ الَّذِي حَلَّ بِهَا فَهُوَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ سَيِّدُ الشَّهَدَاءِ»^(٢).

وقال الصادق عليه السلام: «إِذَا أَكَلْتَهُ - أَيِ طِينِ قَبْرِ الْحُسَيْنِ عليه السلام - قُتِلَ: «اللَّهُمَّ رَبِّ التُّرْبَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَرَبِّ الْوَصِيِّ الَّذِي وَارَثَهُ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَاجْعَلْهُ

(١) وسائل الشيعة: ٥٢٤/١٤، رقم ١٩٧٤٢، رواه الشيخ في التهذيب: ٧٤/٦، البحار: ١١٥/١٠٦.

كامل الزيارات: ٤٦٦.

(٢) أمالي الطوسي: ٣١٨، التهذيب: ٦١/٦، وسائل الشيعة: ٥٢٤/١٤ مع إضافة قليلة في الدعاء

ح ١٤٦.

عاماً نافعاً ورزقاً واسعاً وشفاء من كلِّ داء»^(١).

«وعن الحسن بن محمد الطوسي في الأمالي، عن أبيه، عن خُتَيْسَن، عن محمد بن عبد الله، عن محمد بن محمد بن مفضل، عن إبراهيم بن إسحاق الأحمري، عن عبد الله بن حماد، عن زيد الشحام، عن الصادق عليه السلام قال: «إنَّ الله جعل تربة الحسين شفاءً من كلِّ داء، وأماناً من كلِّ خوف، فإذا أخذها أحدكم فليقبلها وليضعها على عينه، وليمرّها على سائر جسده، وليقل: اللَّهُمَّ بحقِّ هذه التربة، وبحقِّ من حلَّ بها وثوى فيها، وبحقِّ أبيه وأمه وأخيه والأئمة من ولده، وبحقِّ الملائكة الحافين به إلّا جعلتها شفاءً من كلِّ داء، وبرءاً من كلِّ مرض، ونجاةً من كلِّ آفة، وحرزاً ممّا أخاف وأحذر، ثم يستعملها، قال أبو أسامة: فإني استعملها من دهري الأطول كما قال ووصف أبو عبد الله عليه السلام فما رأيت بحمد الله مكرهاً»^(٢).

وروي: أنَّ رجلاً سأل الصادق عليه السلام فقال: إني سمعتك تقول: إنَّ تربة الحسين عليه السلام من الأدوية المفردة، وإنها لا تمزّ بداءٍ إلّا هضمته، فقال: قد كان (أو قد قلت ذلك) فما بالك؟ فقال: إني تناولتها فما انتفعت بها، قال: أما إنَّ لها دعاءً فمن تناولها ولم يدعُ به واستعملها لم يكد ينتفع بها، قال: فقال له: ما يقول إذا تناولها؟ قال: تُقْبَلُها قبل كل شيء وتضعها على عينيك، ولا تناول منها أكثر من حُمصة، فإنَّ من تناول منها أكثر فكأنما أكل من لحومنا ودمائنا. فإذا تناولت، فقل: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ الْمَلِكِ

(١) من لا يحضره الفقيه: ٢/٦٠٠.

(٢) الوسائل: ١٤/٥٢٢ رقم ١٩٧٤٠.

الَّذِي قَبَضَهَا وَبَحَثَ الْمَلِكَ الَّذِي تَحَوَّنَهَا، وَأَسْأَلَكَ بِحَقِّ الْوَصِيِّ الَّذِي حَلَّ فِيهَا أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَنْ تَجْعَلَهَا شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ، وَأَمَانًا مِنْ كُلِّ خَوْفٍ، وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ سُوءٍ. فَإِذَا قُلْتَ ذَلِكَ فَاشْدُدْهَا فِي شَيْءٍ وَاقْرَأْ عَلَيْهَا إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَإِنَّ الدَّعَاءَ الَّذِي تَقْدُمُ لِأَخْذِهَا هُوَ الْإِسْتِثْنَانُ عَلَيْهَا، وَاقْرَأْ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ خَتَمًا^(١).

حرمة أكل الطين والآطينة الإمام الحسين عليه السلام:

وقد وصلتنا روايات عديدة من طريق أهل البيت عليه السلام تؤكد حرمة أكل الطين ما عدا تربة سيد الشهداء الحسين عليه السلام، وقد أوردنا الروايات التي تؤكد ذلك.

أما الروايات التي تحزم أكل الطين: فمنها: ما ذكره الشيخ الطوسي، عن حنان بن سدير، عن الصادق قال: «من أكل من طين قبر الحسين عليه السلام، غير مستشف به فكأنما أكل من لحومنا، فإذا احتاج أحدكم للأكل منه ليستشفى به، فليقل: بِسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ، اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ التُّرْبَةِ الْمُبَارَكَةِ الطَّاهِرَةِ، وَرَبِّ الثُّورِ الَّذِي أُثْرِلَ فِيهِ وَرَبِّ الْجَسَدِ الَّذِي سَكَنَ فِيهِ وَرَبِّ الصَّلَاحَةِ الْمُؤَكَّلِينَ به أجعله لي شفاءً من داء كذا وكذا، واجزغ من الماء جرعته خلفه، وقل: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ رِزْقًا وَاسِعًا وَعِلْمًا نَافِعًا وَشِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ وَسُقْمٍ. فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدْفَعُ عَنْكَ بِهَا كُلَّ مَا تَجِدُ مِنَ السَّقَمِ وَالْهَمِّ وَالْغَمِّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى»^(٢).

(١) مصباح المنجد: ٥٦١.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٥٦٠.

وبسنده أيضاً عن الرضا عليه السلام قال: «كُلَّ طِينٍ كَالْمَيْتَةِ وَمَا أَهْلٌ لغير الله به، ما خلا طِينَ قَبْرِ الْحُسَيْنِ عليه السلام فَإِنَّهُ شَفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ»^(١).

حدود حريم قبر الحسين عليه السلام:

اختلفت الروايات في تحديد حريم القبر الطاهر، فقد وردت أبعاد متباينة بعض الشيء، كما جاء ذلك في مستدرک الوسائل: ٣٢٠/١٠، وقد ورد في كتاب من لا يحضره الفقيه: أَنَّ الصَّادِق عليه السلام قال: «حريم قبر الحسين عليه السلام خمسة فراسخ من أربعة جوانب القبر»^(٢).

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أَنَّهُ قال: «يُؤْخَذُ طِينُ قَبْرِ الْحُسَيْنِ عليه السلام عَلَى سَبْعِينَ ذِرَاعاً مِنْ عِنْدِ الْقَبْرِ»^(٣).

وهناك من قال أكثر أو أقل من ذلك حسب الروايات الواردة إلينا، بل إن بعض علمائنا - أعلی الله مقامهم - أكدوا على أَنَّ طِينَ التداوي يجب أن يؤخذ من عند الرأس الشريف، نقل ابن قولويه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إِنَّ عِنْدَ الرَّأْسِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ تَرْتِبَةً حَمْرَاءَ فِيهَا شَفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ»^(٤).

(١) أمالي الطوسي: ٣٢٦/١.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٦٠٠/٢.

(٣) مصابح المتجهدين: ٥٠٩، كامل الزيارات: ٤٦٨، الوسائل: ٥١١/١٤، المستدرک: ٣٣٢/١٠، البحار: ١٣٠/١٠١.

(٤) كامل الزيارات: ٤٦٨، المستدرک: ٣٣٦/١٠.

مصادر البحث

- ١- الأرض والتربة الحسينية، للمجتهد الأكبر الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، قم، إيران.
- ٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.
- ٣- أمالي الشيخ الطوسي - مؤسسة البعثة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، قم - إيران.
- ٤- بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، الطبعة الثانية المصححة، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
- ٥- بحار الأنوار الشيخ محمد باقر المجلسي الطبعة الثالثة المصححة - دار إحياء التراث العربي - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ - بيروت لبنان.
- ٦- تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم المشرفة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
- ٧- تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي، دار التعارف، بيروت، لبنان، ١٤١٢-١٩٩٢م.
- ٨- تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي، تحقيق الشيخ محمد جواد الفقيه، فهرسة وتصحيح د. يوسف البقاعي، دار الأضواء، ط ٢، بيروت

لبنان، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

٩- صحيح البخاري، الإمام البخاري، تحقيق محمود محمد محمود حسن نصار، منشورات محمد علي بيضون ودار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

١٠- الغدير في الكتاب والسنّة والأدب، الشيخ عبدالحسين الأميني النجفي، الطبعة الأولى المحققة، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، قم، إيران، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

١١- كامل الزيارات، للشيخ الجليل جعفر بن محمد بن قولويه القمي، تحقيق الشيخ جواد القيتومي، مؤسسة نشر الفقاهة.

١٢- مصباح المتهجد، لشيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تصحيح الشيخ حسين الأعلمي، الطبعة الأولى المصححة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

١٣- من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق، تحقيق العلامة الشيخ محمد جواد الفقيه، فهرست وتصحيح الدكتور يوسف البقاعي، دار الأضواء، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

١٤- من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين التابعة للحوزة العلمية في قم المقدسة.

١٥- منهج الرشاد لمن أراد السداد، للشيخ جعفر كاشف الغطاء، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، قم - إيران، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.



كيف لا افتخر بالحسين عليه السلام ؟

عصام المهاجر

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام قم المقدسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة:

إنّ اعتزازنا وافتخارنا بالإمام الحسين عليه السلام، ليس من باب الرغبة في إضافة شيء جديد إلى عظّمته، فالحسين عظمه ويعظمه الله عزّ وجلّ ورسوله صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام في الدنيا والآخرة.

وإنّما اعتزازنا وافتخارنا بالإمام الحسين عليه السلام، هو من باب رعاية الأمانة، لأنّ الإمام هو الأمانة الإلهية وأمانة النبوة المستودعة لدى المؤمنين في الأرض.

فقد ورد في زيارة الجامعة: «أنتم السيل الأعظم، والصراط الأقوم، وشهداء دار الفناء، وشفعاء دار البقاء، والرحمة الموصولة، والآية المخزونة، والأمانة المحفوظة...»^(١).

وفي تفسير فرات الكوفي: عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «نحن الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال»^(٢).

والمهم هو معرفة كيفية رعاية وحفظ هذه الأمانة عن الاندساس والانطماس، وذلك ببيان حقيقة الإمام وفضله وعظمته بالأرقام

(١) بحار الأنوار: ١٠٢/١٢٩، مفاتيح الجنان: ٥٤٦.

(٢) تفسير فرات الكوفي: ١٤٧.

والدلالات التي لا تشوبها شائبة.

ونحن نقدم هذا البحث الموجز في ثمانية مقاصد الى السائرين في طريق البحث عن الحقيقة تحت عنوان: (كيف لا أفتخر بالحسين عليه السلام؟)، ونأمل أن يتحقق هذا الغرض بعون الله وتوفيقه.

المقصد الأول

كيف لا افتخر بالحسين عليه السلام؟

كيف لا افتخر بالحسين، وقد عظمه الله في الدنيا والآخرة؟ وتجلّى هذا التعظيم الرباني للحسين قبل ولادته، وبعد ولادته، وقبل استشهاده، وبعد استشهاده، ونقدم هذا بياقة من مصاديق هذا التعظيم لأن المجال لا يسعنا لذكر جميعها:

١- إن الله عز وجل هو الذي ستنى الحسين عليه السلام حسينا، واشتقه من اسمه المبارك: «ذو الإحسان» وهناك روايات متعددة تبين هذه الحقيقة، وحسبنا هنا رواية واحدة:

عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب عليه السلام: «لما خلق الله عز وجل آدم ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، وزوجه حواء أمته، ورفع طرفه نحو العرش فإذا هو بخمسة مطور مكتوبات، قال آدم: يارب من هؤلاء؟ قال الله عز وجل له: هؤلاء الذين إذا تشفع بهم إليّ خلقي شفّعهم، فقال آدم: يارب بقدرهم عندك ما اسمهم؟ قال تعالى: أما الأول: فأنا المحمود وهو محمد، والثاني: فأنا العالي وهو علي، والثالث: فأنا الفاطر وهي فاطمة، والرابع: فأنا المحسن وهو الحسن، والخامس: فأنا ذو الإحسان وهو الحسين، كلٌ يحمده الله عز وجل»^(١).

٢- أخبر الله عز وجل بقتل الحسين عليه السلام قبل ولادته: فعن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «لما حملت فاطمة عليها السلام بالحسين جاء جبرائيل إلى رسول الله ﷺ

(١) معاني الأخبار: ٥٦ - ٥٧.

فقال: إن فاطمة ستلد غلاماً تقتله أمك من بعدك...»^(١).

وجدير بالذكر أن الحسين عليه السلام كان يحدث بذلك منذ طفولته، فعن حذيفة بن اليمان قال: سمعت الحسين بن علي عليه السلام يقول: «والله ليجتمعن على قتلي طغاة بني أمية، ويقدمهم عمر بن سعد» وكان ذلك في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم^(٢).

٣- ومن تعظيم الله تعالى للحسين عليه السلام بعد ولادته: أن جبرائيل عليه السلام كان ينأغيه في مهده ويسليه، فمن طاووس اليماني: إن جبرائيل عليه السلام نزل يوماً فوجد الزهراء عليها السلام نائمة، والحسين في مهده يبكي، فجعل ينأغيه ويسليه حتى استيقظت، فسمعت من ينأغيه فالتفتت فلم تر أحداً فأخبرها النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان جبرائيل عليه السلام^(٣).

٤- ومن شواهد تعظيم الله عز وجل للحسين عليه السلام قبل استشهاده، أن القتل كُتب عليه وعلى أصحابه معاً، وأن أصحابه معروفون قبل واقعة كربلاء بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزيدون رجلاً ولا ينقصون رجلاً. وإلى ذلك فقد عُنّف ابن عباس على تركه الحسين عليه السلام وعدم اشتراكه معه في مواجهة الأعداء فقال: (إن أصحاب الحسين لم ينقصوا رجلاً ولم يزيدوا رجلاً، نعرفهم بأسمائهم من قبل شهودهم)^(٤).

(١) أصول الكافي: ٤٦٤/١، بحار الأنوار: ٢٣١/٤٤ ح ١٦.

(٢) بحار الأنوار: ١٨٦/٤٤ ح ١٤، نقلاً عن دلائل الإمامة: ١٨٣ - ١٨٤، وفي إثبات الهداة: ٢٠٧/٥ ح ٧١.

(٣) بحار الأنوار: ١٨٧/٤٤ - ١٨٨.

(٤) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب: ٥٢/٤ - ٥٣، عنه في بحار الأنوار.

وقال محمد بن الحنفية: (وإن أصحابه عندنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم)^(١).

٥ - وكانت الخطوة اللاحقة للتعظيم الإلهي للحسين عليه السلام، هي جعل الإمامة في ولده تعويضاً له عن القتل. وفي هذا المعنى جملة روايات نذكر منها ما يلي:

عن محمد بن مسلم، قال: سمعت أبا جعفر وجعفر بن محمد عليه السلام يقولان: إن الله تعالى عوّض الحسين عليه السلام عن قتله أن جعل الإمامة في ذريته، والشفاء في تربته، وإجابة الدعاء عند قبره، ولا تعد أيام زائره جائياً وراجعاً من عمره...^(٢).

٦ - لم يقتصر تعظيم الله تعالى للحسين عليه السلام في الدنيا بإعلاء ذكره، بل عظمه في الآخرة أيضاً، بجعله سيد شباب أهل الجنة، وقرط عرشه.

فعن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الحسن

والحسين سيدا شباب أهل الجنة»^(٣).

عن عتبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وآله، قال: «الحسن والحسين شفا العرش وليسا بمعلقين»، قال الديلمي: يعني بمنزلة الشنقين من الوجه، والشنف

١ - ١٨٥/٤٤ ح ١٢.

(١) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب: ٥٢/٤ - ٥٣، عنه في بحار الأنوار:

١٨٥/٤٤ ح ١٢.

(٢) بحار الأنوار: ٢٢١/٤٤ ح ١.

(٣) فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ٢١٢/٣.

القرط المعلق في الوجه أي الأذن، قال: والمراد أحدهما عن يمين العرش والآخر عن يساره^(١).

هذه المعاني والحقائق التي حصرناها في هذه المجالة، تكفي للوقوف على ما كانت السماء توليه من عناية ورعاية واهتمام بالسيط الشهيد، وعليه من البديهي أن الافتخار بالحسين عليه السلام وحبّه يملأ قلب الزمن.

(١) المصدر السابق: ٢١٩/٣.

المقصد الثاني

كيف لا افتخر بالحسين ؟

كيف لا افتخر بالحسين وقد افتخر به وأحبه وعظمه أنبياء الله تعالى؟ ولكن مع كل ذلك يبقى حب نبيتنا محمد ﷺ وتعظيمه فريداً من نوعه، وللأسف إننا لا نستطيع في هذا البحث الموجز جداً بيان القصة الكاملة لهذا الحب، والتعظيم النبوي للحسين ﷺ؛ لأن الروايات الواردة بهذا الصدد كثيرة جداً، ومتوفرة في المصادر العامة والخاصة معاً، بعضها مختصر العبارة، وبعضها مسهب، وهذه الروايات بمجموعها تحكي لنا هذه القصة، ونحن نتوكل هنا بحديث واحد ليقظنا من هذه المسؤولية.

عن يعلى العامري أنه خرج مع رسول الله ﷺ - يعني إلى طعام دعوا إليه - قال: فاستقبل^(١) رسول الله ﷺ أمام القوم وحسين مع غلمان يلعب، فأراد رسول الله ﷺ أن يأخذه فطفق الصبي يفر هاهنا مرة وهاهنا مرة، فجعل النبي ﷺ يضاحكه حتى أخذه.

قال: فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه ووضع فاه على فيه وقتله وقال: «حسين مني وأنا من حسين، اللهم أحب من أحب حسيناً، حسين سبط من الأباط»^(٢).

هذا الحديث يكشف لكل مطلع عن السيرة النبوية الشريفة، أن

(١) فاستقبل: تقدم.

(٢) فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ٢٦٢/٣ - ٢٦٤.

رسول الله ﷺ كشف ما في قلبه من حب وتعظيم للحسين عليه السلام، في صورة رائعة في الجمال والدقة، تحكي للإنسانية إلى يوم القيامة بأن الحسين عليه السلام رمز للذات المحمدية.

حيث إن قول النبي ﷺ: «حسين مني وأنا من حسين»، يعني أن الحسين جزء منه، وهو جزء من الحسين، ولا انفكاك بينهما من الناحية المادية والمعنوية.

فالمراد من قوله ﷺ: «حسين مني...»، هو أن الحسين عليه السلام نبت من لحم ودم رسول الله ﷺ، ويتجسد هذا المعنى في جملة روايات نكتفي بذكر واحدة منها:

عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «لم يرضع الحسين عليه السلام من فاطمة عليها السلام ولا من أمي، بل كان يؤتى به إلى النبي ﷺ فيضع إبهامه في فيه فيمض منها ما يكفيه اليومين والثلاثة، فبنت لحم الحسين عليه السلام من لحم رسول الله ﷺ ودمه»^(١).

وأما المقصود من قول النبي ﷺ: «... وأنا من حسين» هو: أن الله تعالى ألحق الحسين عليه السلام بالنبي ﷺ، فكان معه في درجته ومنزلته، وذلك قول الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...»^(٢) «(٣)».

إذن.. فهل نبالغ بعد كل ذلك إذا قلنا: إن هذه الخصيصة التي هي واحدة من الخصائص الحسينية، تكفي لمن أراد أن يعتز ويفتخر بالحسين عليه السلام طول الدهر؟

(١) أصول الكافي: ١/٤٦٥، عنه في بحار الأنوار: ٤٤/١٩٨ ح ١٤.

(٢) الطور: ٢١.

(٣) راجع بحار الأنوار: ٤٤/٢٢١ ح ١، نقلاً عن أمالي الطوسي: ٢٠١.

المقصد الثالث

كيف لا افتخر بالحسين عليه السلام؟

كيف لا افتخر بالحسين وكفته راجحة في الدنيا والآخرة؟ فهو المتصدر حتى في قلوب أعدائه.

إذن فلا وجه للمفاضلة بين الإمام الحسين عليه السلام وأعدائه.
(ورأي معاوية وأعوانه في هذا أسبق من رأي الطالبين وخصوم الأمويين، فقد تردّدوا كثيراً قبل الجهر باختيار يزيد لولاية العهد وبسبب الخلاف بعد أبيه، ولم يستحسنوا ذلك قبل ازجائهم النصح إلى يزيد غير الخلافة بعد أبيه، وأشاروا عليه أن يكتب له كتاباً «يصغر إليه الحسين عليه السلام» في الخطاب، وأشاروا عليه أن يكتب له كتاباً «يصغر إليه نفسه».. قال: «وما عساني أن أعيب حسيناً؟! والله ما أرى للعيب فيه موضعاً»^(١)).

وهذا لسان حال عمر بن سعد حينما راود نفسه على مقاتلة الحسين عليه السلام:

فوالله ما أدري وإنني لحائر أفكر في أمري على خطرين
أترك مملكتي والريّ مُتيتي أم أرجع مأثوماً بقتل حسين
وفي قتله النار التي ليس دُونها حجاب، ومملكتي قُرّة عيني
إذن.. فقد غرق أعداء الحسين عليه السلام بالخزي الذي لا خزي مثله... وباء
الحسين بالفخر الذي لا فخر مثله في تاريخ بني الإنسان.

(١) أبو الشهداء لعباس محمود العقاد: ١٦.

خاتمة المقاصد

كما قلنا ضمن المقاصد الثمانية لهذا البحث، فإن الله عز وجل هو الذي تبني تعظيم الإمام الحسين عليه السلام، وما نريد قوله في هذا الختام، هو أن هذا التعظيم لم يكن معزولاً عن تخليد كل ما يمت بصلة للحسين بعد استشهاده...

فيوم في دنيا الأحزان خالد	ذاك يوم مقتل الحسين
ويوم في دنيا البطولات خالد	ذاك يوم الحسين
وموقف في وجه الظالمين خالد	ذاك موقف الحسين
وثأر في الوجدان الإنساني خالد	ذاك ثأر الحسين
وحب في قلب الزمن خالد	ذاك حب الحسين
وشعار في قلب الأحرار خالد	ذاك شعار الحسين
ودور في حركة التاريخ خالد	ذاك دور الحسين.

فالتخليد الإلهي لآثار الحسين عليه السلام، جعل دور الحسين لا ينتهي بانتهاء عمره الشريف، بل إن الآيات السماوية التي ظهرت بعد مقتل الحسين، كانت إنذاراً إلهياً للبشرية، بأن التاريخ بات يتحرك بين ثورتين: ثورة شعارها «هيهات منا الذلة»، وهي ثورة الحسين عليه السلام وثورة مكتملة لثورة الحسين في سبيل الكمال البشري، هي ثورة حفيده الإمام المهدي المنتظر - عجل الله تعالى فرجه - .

فمن أراد أن يعيش سعيداً، ويموت سعيداً، فعليه بالحسين عليه السلام، فإنه: «مصباح الهدى ومغينة التجاة»... إذن.. فكيف لا أفتخر بالحسين؟



حول السيدة «شهربانو»

الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي

المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام قم المقدسة

فِي سَمَاءِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يرى أكثر المؤرخين أن أم الإمام علي بن الحسين عليه السلام هي ابنة يزدجر الثالث (آخر الملوك الأكاسرة الفرس)، ولكنهم يختلفون في اسمها وكيفية زواجها من الإمام الحسين عليه السلام، فيذكرون لها أسماء أخرى غير «شهربانويه».

وحين تتبع هذه القضية بدقة، وننظر لها نظرة تحليلية، لوجدنا أن كثير تلك الآراء والأقوال بعيدة عن الحقيقة. فاذن.. ما اسم أم الإمام علي زين العابدين عليه السلام؟ ومن أبوها؟ ومتى وكيف تزوجها الإمام الحسين عليه السلام؟ هي الأسئلة التي نحاول أن نجيب عليها من خلال هذا التحقيق.

إن قصة «شهربانويه» من المواضيع التاريخية المهمة الجديدة بالدراسة والتحقيق، لما يكتنفها من غموض وإبهام. وكانت نتيجة التحقيق والبحث الذي قمت به حول هذه الشخصية، هي أنها خرجت عن كونها شخصية حقيقة، لتصبح في عداد الشخصيات الأسطورية!

وينقسم التحقيق حول «شهربانويه» إلى ثلاثة أقسام:

الأول - حول اسم أم الإمام علي بن الحسين عليه السلام.

الثاني - حول أبويها وأسرته.

الثالث - حول حياتها ووفاتها.

اسم أم الإمام زين العابدين:

لم يتفق المؤرخون على اسم أم الإمام السجاد عليه السلام، رغم اتفاق معظمهم على أنها ابنة «يزدجر».

وهذه هي الأسماء التي ذكروها لها:

«شهربانو»^(١)، «شهربانو»^(٢)، «شاه زنان»^(٣)،

(١) الدروس نقلاً عن هامش أصول الكافي، ص ١٨٩، وقابوس نامه، ص ٩٩، وحبيب السرج ١ ص ٢٠٣، وإيران در زمان ساسانيان تأليف كريستن سن ترجمة المرحوم رشيد ياسمي، ص ٣٦٢، مع الترديد في صحة أصل الموضوع، ومقالة: زنان وفرزندان يزدگر من السيد سعيد نفيسي في مجلة مهر السنة الاولى ص ٢٧٣، وجنات الخلود، وفرهنگ آندراج، ج ٢ ص ٥٩٧ ذيل كلمة: شهربانو، تاريخ ايران تأليف الجنرال سير برسي سايكس ترجمة فخر داعي: ٧٠٣، وبيان الاديان تأليف أبي المعالي محمد الحسيني العلوي (الله سنة ١٨٥ هجرية) تصحيح السيد عباس اقبال، وقاموس الاعلام التركي، وارشاد المفيد، ص ٢٧٠ (ط ١٣٠٨ طهران).

(٢) مناقب ابن شهر آشوب، ٢: ٢٧٠ ط طهران، وبحار الانوار، ج ١١ نقلاً عن إصلاص الوري والمناقب، تاريخ قم تأليف حسن بن محمد بن حسن القمي (كتبه بالعربية في سنة ٣٨٧ هجرية، وترجم إلى الفارسية سنة ٨٠٦، ص ٣٩٦)، ودلائل الإمامة للطبري، كما في بحار الانوار ج ١١، وفارسانه لابن البلخي، ص ٤، وروضة الصفا ج ٣، وفرهنگ آندراج ذيل كلمة شهربانو، ص ٥٩٧، وارشاد المفيد ص ٢٦٩ (ط ١٣٠٨ طهران).

(٣) مقاتل الطالبين، ص ٣١، نقلاً عن زينب الكبرى، وتذكرة الخواص، ص ١٨٣، وكشف الغمة، ص ١٩٨، ومناقب ابن شهر آشوب، ٢: ٢٠٧ (ط طهران)، وزينب الكبرى للشيخ جعفر القندي، ص ١٥٠، وبحار الأنوار، ج ١١ نقلاً عن محمد بن جرير الطبري في دلائل الإمامة وغيره، وأعلام الوري نقلاً عن بحار الأنوار، ومقالة زنان وفرزندان يزدگر للسيد سعيد نفيسي في مجلة مهر ص ٢٧٣ السنة الاولى، ومجمع البحرين في مادة: زجر، وحبيب السير، ١: ٢٠٣.

«شه زنان»^(١)، «جهان شاه»^(٢)، «شهرناز»^(٣)، «جهان بانو»^(٤)، «خولة»^(٥)، «برق»^(٦)، «سلافة»^(٧)، «غزالة»^(٨)، «سلاهمة»^(٩)، «حسارار»^(١٠)، «مریم»^(١١)، «فاطمة»^(١٢)، «شهربان»^(١٣).

- (١) ارشاد القلوب، واعلام الوری - نقلًا عن بحار الانوار ج ١١، والدروس بهامش اصول الكافي ص ١٨٩.
- (٢) تاریخ قم ص ١٩٧، والخرائج للراوندي، نقلًا عن بحار الانوار ج ١١، وترجمة فرق الشيعة، ص ٣٦.
- (٣) مجمل التواريخ والقصص، ص ٤٥٦.
- (٤) بحار الانوار عن المناقب، ٢: ٢٧٠.
- (٥) بحار الانوار ج ١١، عن مواليد أهل البيت عليهم السلام. المناقب، ص ٢٠٧ ج ٢، وحبيب السير، ١: ٢٠٣ (ط طهران).
- (٦) بحار الانوار عن المناقب، ص ٢٧٠ ج ٢.
- (٧) عيون الاقباء، ٤: ٨، والمناقب، ٢: ٢٧٠ (ط طهران)، وفيها الاعيان، ١: ١٣٤٧ (ط طهران)، وحبيب السير، ١: ٢٠٣، وحنات الخلود، وبحار الانوار عن المناقب والميرد، وترجمة فرق الشيعة، ص ٣٦، والمعارف لابن قتيبة، ص ٩٤، (ط المطبعة الحسينية ١٩٣٤ القاهرة).
- (٨) تذكرة الخواص ١٨٣. كشف القمّة ص ١٩٨ حبيب السير ١: ٢٠٣ جنات الخلود. بحار الانوار ج ١١. قاموس الاعلام التركي ذيل كلمة شهربانو. تاريخ اليعقوبي ٢١٩: ١. صفوة الصفوة ٢: ٥٢. المعارف لابن قتيبة ص ٩٤ ط المطبعة الحسينية بالقاهرة، طبقات ابن سعد ط ليدن، ٩: ١٥٦.
- (٩) مجمع البحرين مادة: زجر. وتاريخ قم، ص ١٩٦، واصول الكافي ص ١٨٩، وبحار الانوار ج ١١، وقاموس الاعلام التركي ذيل مادة «شهربانو».
- (١٠) تاريخ اليعقوبي ص ٢١٩.
- (١١) بحار الانوار ١١: قيل: سميت به بعد الزواج.
- (١٢) المصدر السابق.
- (١٣) حبيب السير ط طهران ١: ٢٠٣، وروضة الصفا ج ٣ ط طهران ذيل كلمة، الإمام السجاد عليه السلام.

«شهربانوه ابنة من؟»

المشهور بين المؤرخين هو أن أم الإمام السجاد عليه السلام هي ابنة يزدجر الثالث (آخر أكاسرة الفرس).

ونسجل هنا أقوال بعضهم:

١- إن أقدم المؤرخين الذين يرون أن أم الإمام السجاد عليه السلام هي ابنة يزدجر الثالث هو «اليعقوبي» الذي ألّف كتابه في حدود النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، واثبت الحوادث حتى عام ٢٩٩ هـ. وقد كتب في ترجمة الإمام الحسين بن علي عليه السلام يقول:

«وكان للحسين عليه السلام من الولد علي الأكبر.. وعلي الأصغر وامي حرار بنت يزدجرد وكان الحسين سقاها غزالة»^(١).

٢- كتاب «فرق الشيعة» لذي ألف مقارناً لتاريخ اليعقوبي أو بعده بقليل، ونُسب إلى الحسن بن موسى النوبختي وسعد بن عبد الله بن أبي خلف الأشعري القمي، وكلاهما توفيا في أوائل المائة الرابعة، وقد جاء في هذا الكتاب: «ولد - علي بن الحسين عليه السلام - في سنة ٣٨ من الهجرة، واميام ولد تسمى سلافة وكانت قبل أن يأسرها المسلمون العرب تسمى جهانشاه، وهي ابنة يزدگرد آخر ملوك إيران ابن خسرو بسرويز بن هرمز»^(٢).

٣- روي ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني من كبار المحدثين

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٢٣.

(٢) فرق الشيعة، ص ٣١.

من علماء الشيعة المتوفي سنة ٣٢٩ هجرية، في كتابه «الكافي» الذي كتبه مقارناً لفرق الشيعة أو بعده بقليل، روى عن عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما أقدمت بنت يزيد جرجر على عمر، أشرف لها عذارى المدينة وأشرق المسجد بضوئها لما دخلته. فلما نظر إليها عمر غطت وجهها وقالت: «أبيروج بادا هرمز»^(١) فقال عمر: اتشتمني هذه؟! وهم بها! فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: ليس ذلك لك، خيّرنا رجلاً من المسلمين واحسبها بفيثه. فخيّرنا، فجاءت حتى وضعت يدها على رأس الحسين عليه السلام، فقال لها أمير المؤمنين عليه السلام: ما اسمك؟ فقالت: جهانشاه، فقال لها أمير المؤمنين عليه السلام: بل شهربانويه. ثم قال للحسين عليه السلام: يا أبا عبد الله ليولد لك منها خير أهل الأرض. فولدت علي بن الحسين عليه السلام. وكان يقال لعلي بن الحسين عليه السلام: ابن الخيرتين، فخيرة الله من العرب هاشم، ومن العجم فارس^(٢).

٤- وجاء في كتاب «تاريخ قم».

«عدد اولاده: علي الأكبر الذي هو من بطن شهربانويه ابنة يزيد جرجر بن شهریار بن شيرويه بن كسری أبرویز وعلي الأصغر الذي قتل في كربلاء»^(٣).

ويقول أيضاً:

«وكني الإمام زين العابدين بأبي محمد وأبي بكر وأبي القاسم أيضاً،

(١) أي: لا افلح هرمز، وكان قائد قوات أبيها المنهزم أو جدّها الاعلى كما في البحار ٤٦:٩.

(٢) الكافي، ج ١ ص ٤٦٧ (ط آخوندی).

(٣) عن الترجمة الفارسية، ص ١٩٥ ط ١٣١٣ هـ ش.

وقد ولد سنة سبع وثلاثين من الهجرة، وأمه شهربانويه بنت يزجرد بن الملك، وهي توفيت في داء مخاضها بالإمام زين العابدين عليه السلام. وتوفي الإمام زين العابدين في سنة خمس وتسعين، وكان عمره سبع وخمسون عاماً وأربعة عشر يوماً، وبرواية أخرى كانت وفاته في شهر محرم سنة أربع وتسعين، ومدة عمره خمس وخمسون سنة، وكانت أمه أم ولد تدعى سلامة واسمها جهانشاه بنت يزجرد^(١).

٥- وحدث الشيخ الصدوق بن بابويه المتوفي ٣٨١ هـ في كتابه عيون اخبار الرضا عليه السلام بسنده عن سهل بن القاسم النوشجاني قال:

«قال لي الرضا عليه السلام بخراسان: إن بيننا وبينكم نسباً، قلت: وما هو أيها الأمير؟ قال: إن عبد الله بن عامر بن كريز لما افتتح خراسان أصاب ابنتين ليزجرد ابن شهریار ملك الأعاجم فبعث بهما إلى عثمان بن عفان، فوهب أحدهما للحسن والآخرى للحسين عليه السلام فماتتا عندهما نفساوين، وكانت صاحبة الحسين نفست بعلي بن الحسين، فكفل عليها بعض امهات ولد أبيه، فنشأ وهو لا يعرف أماً غيرها، ثم علم أنها مولاته، فكان الناس يستونها أمه وزعموا أنه زوج أمه! ومعاذ الله! إنما زوج هذه علي ما ذكرناه»^(٢).

٦- وقال الزمخشري (٤٦٧-٥٣٨) في كتابه «ربيع الأبرار»: «إن قريشاً لم يكونوا يعاونوا بأولاد الإمام حتى ولد ثلاثة من خير أهل الأرض في زمانهم من امهاتهم وهن امهات أولاد: علي بن الحسين

(١) المصدر السابق.

(٢) عيون اخبار الرضا، ج ٢ ص ١٢٨ (ط ١٣٧٧ قم).

والقاسم بن محمد بن أبي بكر وسالم بن عبد الله بن عمر. وكانت قصة هؤلاء أنه: لما أتى بسبي فارس في خلافة عمر بن الخطاب كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد، فباعوا السبايا، وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد، فقال له علي عليه السلام: إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن! فقال عمر: وكيف الطريق إلى العمل معهن؟ فقال علي عليه السلام: تقومهن، فمهما بلغ ثمتهن قام به من يختارهن. فقومن فأخذهن علي عليه السلام، فدفع واحدة لولده الحسين عليه السلام فولدت له علياً زين العابدين عليه السلام، وواحدة لعبد الله بن عمر فولدت له سالماً، وواحدة لمحمد بن أبي بكر فولدت له القاسم، فهؤلاء الثلاثة بنو خالة^(١).

٧- وجاء في كتاب «مجمل التواريخ والقصص»:

«وكان اسم أمه: شهرناز بنت يزدجرد الملك. وبرواية أخرى قالوا: هي ابنة الملك سنجان ملك فارس. وقيل ملك هراة والرواية الأولى أصح»^(٢).

٨- كتب كيكاووس بن اسكندر بن قابوس بن وشمگیر ابو المعالي في كتابه «قابوسنامه» الذي كتبه سنة ٥٤٧ هـ يقول:

«سمعت ان شهربانو كانت بنتاً صغيرة ذهبوا بها اميرة من العجم للعرب، فلما أقدم بها على أمير المؤمنين عمر عليه السلام أمر أن يبيعوها، فلما ذهبوا بها ليبيعوها جاء أمير المؤمنين علي عليه السلام وأخبر بهذا الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: ليس البيع على أبناء الملوك. فلما أخبر بهذا الخبر ارتفع

(١) ربيع الأبرار (نسخة خطية في «كتابخانه ملي» طهران) وقد طبع الكتاب أخيراً ونشر.

(٢) كتاب بالفارسية لمؤلف غير معروف، ألفه سنة ٥٢٠ هـ وطبع ١٣١٨ ش طهران.

البيع عن شهربانو وذهبوا بها إلى بيت سلمان الفارسي ليزوجوها، فلما عرضوا عليها التزويج قالت: لا أتزوجه ما لم أره، فاجلسوها في منظر ومزوا بساتات العرب واليمن عليها لتكون زوجة من تختاره هي، وجلس عندها سلمان يعزفها بالقوم: أن هذا فلان وذلك بهمان، وهي تنتقصهم، حتى مر عمر، فقالت: من هذا؟ قال سلمان: هو عمر، قالت: رجل جليل إلا أنه شيخ كبير. ولما مر علي قالت: من هذا؟ قال سلمان: هو علي عليه السلام: فقالت: رجل جليل، إلا أنني لا أستطيع النظر في غد يوم القيامة إلى وجه فاطمة الزهراء بن محمد وأستحي منها ولذلك فلا أريده، فلما مر الحسن بن علي وعلمت بحاله قالت: هو كغولي ويليق بي إلا أنه نكاح النساء فلا أريده، ولما مر الحسين بن علي عليه السلام سألت عنه فعرفته وقالت: هو كغولي ويليق بي وينبغي أن يكون هو زوجي، فإن البنت العذراء الباكر لا بد لها من زوج باكر، وأنا لم أتزوج وهو بعد لم يتزوج»^(١).

٩- يقول ابن شهر آشوب المتوفي ٥٨٨ هـ:

«وامه شهربانويه بنت يزدجرد بن شهریار بن كسرى ويسمونها أيضاً: شه زنان، وجهان بانويه، وسلافة، وخولة، وقالوا: شاه زنان بنت شبرويه بن كسرى ابرويز. ويقال: هي برة بنت النوشجان، والصحيح هو الأول. وكان أمير المؤمنين سماها: مريم ويقال: سناها فاطمة، وكانت تدعى: سيدة النساء»^(٢).

١٠- يقول ابن البلخي مؤلف كتاب «فارسنامه» الذي كان يعيش في

(١) قابوسنامه، ص ٩٩ (ط ١٣٢٦ ش طهران).

(٢) مناقب ابن شهر آشوب، ج ٤ ص ١٧٦.

القرن السادس معاصراً لمحمد بن ملكشاه السلجوقي:
 «وقد قال الرسول ﷺ: إِنَّ اللَّهَ خَيْرَتَيْنِ مِنْ خَلْقِهِ: مِنَ الْعَرَبِ قُرَيْشٌ
 وَمِنَ الْعَجَمِ فَارِسٌ. فيقال للفرس: قريش العجم بمعنى أن شرفهم في
 العجم كشرف قريش في العرب. وكان يقال لعلي بن الحسين كرم الله
 وجهه المعروف بزين العابدين: ابن الخيرتين، لأن آياه الحسين بن علي
 رضوان الله عليهما، وأمه شهربانويه بنت يزدجرد الفارسي. وإنما يفخر
 الحسينيون على الحسينيون لأن جدتهم كانت شهربانويه فهم كرام من
 الطرفين»^(١).

١١ - كتب ابن خلكان في «وفيات الأعيان» يقول:
 «أمته سلافة بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس، وهي عمّة أم يزيد بن
 الوليد الأموي المعروف بيزيد الناقص. فان قتيبة بن مسلم الباهلي الوالي
 على خراسان حيث كان يتابع ويعقب أمراء الفرس حتى قتل فيروز بن
 يزدجرد، وبعث بابنتيه إلى الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي كان آنذاك
 أميراً على العراق وخراسان، أمسك الحجاج باحدى البنيتين لنفسه، وبعث
 بالآخرى إلى الوليد بن عبد الملك فولدت له يزيد الناقص. واسمها: شاه
 آفريد» ثم يذكر عبارة ربيع الأبرار للزمخشري باختلاف يسير في
 الألفاظ ثم يقول: فان علي بن الحسين وسالم بن عبد الله وقاسم بن محمد
 بن أبي بكر أبناء خالة»^(٢).

١٢ - نقل فخر الدين الطريحي في «مجمع البحرين» في مادة: زجر،

(١) فارسنامه، ص ٤ (ط كبريچ ١٩٢٦م).

(٢) وفيات الاعيان، ج ١ ص ٣٤٧، وانظر عيون الاخبار، ج ٤ ص ٨، وتهذيب
 التهذيب، ج ٣ ص ٤٣٨، وحبيب السير، ج ١ ص ٢٠٣.

يقول: «ويزدجرد احد ملوك الفرس ومنه سلامة بنت يزدجرد ام زين العابدين عليه السلام. وأسمها: شاه زنان» ثم نقل قول الزمخشري. ومن العجب أن صاحب «روضة الصفا» كتب قصة زواج شهربانو عن الزمخشري هكذا:

«واسم امه: شهربان، وقيل: شهربانويه بنت يزدگرد بن شهربار بن خسرو ابن برويز بن نوشيروان العادل! وجاء في ربيع الابرار: أن أمير المؤمنين يمث حريث ابن جابر الجعفي للحكم في بعض بلاد المشرق فاصاب بنتين ليزدجرد فبعث بهما إلى أمير المؤمنين، فوهب شهربانو لقزوة عينه الحسين، والاخرى المسماة بكيهان يانو لمحمد بن أبي بكر، فوهب الله لاحدى الاختين الإمام زين العابدين والاخرى قاسم بن محمد»^(١).

وهذه قرية على كتاب ربيع الابرار وهو غير قليل النسخة، فلاغرو أن تشيع هذه القصص في طول ثلاثة عشر قرناً. ووردت هذه القصة في «فرهنگ آندراج» ذيل كلمة: شهربانو وشهربانويه على صورة اخرى إليك ترجمة عباراته:

«شهربانو وشهربانويه: هي بنت يزدگرد بن شهربار بن خسرو برويز ملك العجم، التي أسرت هي واختها كيهان بانو بعد انقراض دولتهم وقتل يزدگرد في مرو خراسان، وقعت أسيرة بيد الحريث بن جابر الجعفي، فحافظ عليهما وجاء بهما إلى حضرة الإمام أمير المؤمنين علي

(١) روضة الصفا، ج ٣ في احوال الإمام السجاد عليه السلام. وراجع: كشف الغمة، ص ٢٠١. وارشاد القلوب، والبحار، ج ٤٦، ومقاتل الطالبيين، ص ٣١، وزينب الكبرى، ص ١٥٠.

ابن أبي طالب سلام الله عليه وعلى اولاده الطاهرين المعصومين. فامر أن يعرضوا عليهما أشرف العرب واعيانهم من بعيد لتقبلا بمن ترضيان به، وبعد ان رأت الشبان والاعيان من السادات والاشراف ارتضت الحسين عليه السلام، وقالوا: انها كانت قد عاينت الحسين سابقاً في الرؤيا فمشتته! وهي الوالدة الماجدة لجناب الإمام نجيب الطرفين علي بن الحسين عليه السلام، ووهب الأمير اختها لمحمد بن أبي بكر فولد منها قاسم بن محمد ابن خالة الإمام. وقيل لها أيضاً شهربانويه»^(١).

١٣- وفي اقوال المستشرقين المعاصرين، كتب ادوارد براون يقول: «يقول المعتمد من المؤرخين كاليقوي: ان احدى بنات آخر الملوك الساسانيين وهو يزدجرد الثالث زوجت بالامام الحسين فولد له منها الإمام زين العابدين الذي يصل نسبه من طرف فاطمة إلى نبي الإسلام ومن طرف آخر إلى الاسرة الايرانية المالكة قديماً، فلا عجب أن يبدي الايرانيون بالنسبة إلى علي وأولاده هكذا اخلاص وعبادة»^(٢) على حد تعبير هذا المستشرق فاللفظة الاخيرة تبدو مغرصة.

١٤- ونقل المستشرق الجنرال السير برسي سايكس في كتابه «تاريخ إيران» بترجمة السيد محمد تقي فخر داعي يقول:

«كتب المؤرخون العرب وفي مقدمتهم اليعقوبي الذي كان يعيش في القرن التاسع الميلادي: أن شهربانو بنت يزدجرد زوجت بالحسين بن علي والاييرانيون يبدونها في تمثيلات العزاء وكأنها امرأة ذات

(١) غرهنك آندراج، ج ٢ ص ٥٩٦، ذيل كلمة شهربانو وشهربانويه. وراجع: جنات الغلوط، وارشاد المفيد، ص ٢٧٠، وحياة الحيوان، ج ١ ص ٢٤٦ (ط مصر).

(٢) تاريخ ادبيات إيران (بالفارسية) ترجمة المرحوم الهاشمي، ص ٣١.

شهامة وشجاعة».

ثم ينقل عن براون: أنه في بعض كتبه ترجم شعراً لشهربانويه وفيه: أنها دخلت المدينة مع سبايا الحرب بأشراف الحسن بن علي، وأنه كان يخصها بفتوته ورجولته!

وحكم عمر أن يعرضوها في سوق النخاسة للبيع، وكان علي حاضراً فتغير ولامه على عمله هذا وقال: لا ينبغي هذا العمل بالنسبة إلى بنات الملوك. فالإيرانيون كما يرون الاسكندر من قبل امه من نسل الملوك الهخامنشيين كذلك يرون أن اولاد واحفاد الحسين عليه السلام يصلون من طرف امهم إلى سلالة الملوك الساسانيين الممتازين! فإن الإيرانيين كانوا يقولون للملوك الساسانيين بالحق الإلهي ويرونهم ظلالاً من يزدان الإله. وليس مجالاً للجدل أن هذه العقيدة: أي امتزاج دم اولاد الحسين بدم الملوك الساسانيين بعث الإيرانيين إلى أن يعتقدوا بالنسبة إلى آل علي عقيدة فدائية كما نشاهدهم اليوم على ما هم عليه»^(١).

هذا ما رأيته حول شهربانو، وبناء على هذه المصادر فإن المؤرخين يرون أن أم الإمام السجاد عليه السلام هي «شهربانويه» والاختلاف هو حول والدها، حيث لا يرى بعضهم أن أباهما يزدجرد. والذي يمكن الاعتماد عليه هنا هو ما يلي:

أولاً: أن أقدم مصدر لهذه القصة لا يرجع إلى أبعد من منتصف القرن الثالث للهجرة.

ثانياً: أن شهرة شهربانويه بدأت منذ بداية القرن الرابع الهجري.

(١) تاريخ إيران للجنرال برسي سايكس ترجمة فخر داعي، ص ٥ - ٧٤٤.

أسرة شهربانو:

إن تراجم الملوك الساسانيين ولا سيما خسرو برويز ومن أعقبه، وبالأخص يزديجرد الثالث ليست واضحة، فإن أحوال هؤلاء وحوادث أيامهم، ولا سيما ما يرتبط منها بأشخاصهم مبهم ومجمل ومبشتر، كما هو حال دولتهم في نهاية دور ملوك هذه الأسرة المالكة. ولا مصدر لدينا سوى هذه المصادر الموجودة التي أبدى كتابها آراء بهذا الشأن فلا بد لنا من تبيين حال أولاد يزديجرد من نفس هذه المصادر:

يقول المسعودي في «مروج الذهب»:

«وقتل يزديجرد الآخر من ملوكهم على حسب ما ذكرناه وله خمس وثلاثون سنة. وخلف من الولد: بهرام وفيروز، ومن النساء: أدرك وشاهين ومردآوند»^(١).

ويقول المستشرق «كريستن سن»:

«إن معلوماتنا عن مصير أسرة يزديجرد قليلة»^(٢) ثم نقل كلام المسعودي كما سبق.

وكذلك ينقل كلام المسعودي السيد سعيد نفيسي في مقالة التحقيقية التي نشرتها مجلة «مهر».

فكما نرى لم يرد في التواريخ القديمة والمعتبرة والمعتمد على صحتها عن شهربانو أو إحدى المستميات الأخرى لأُم الإمام علي بن

(١) مروج الذهب، ج ١ ص ٢٨١ (ط ١٩٤٨ مصر).

(٢) إيران در زمان ساسانيان (بالفارسية)، ص ٣٦٢.

الحسين عليه السلام أي ذكر في عداد بنات يزدرجرد. ولهذا أخذ المحققون المعاصرون الذين سلموا بأن قصة شهربانو انما هي اسطورة، أخذوا يتقلون قصتها وهم يشككون في صحتها. فالمتشرق كريستن سن يقول:

«أما شهربانو فانها بناءً على رواية الشيعة - غير المقطوع بصحتها - تزوجت بالإمام الحسين، ولذلك فهم يعدون اولاد الحسين ورثة قصر الخورنق (بالحيرة) او بالاحرى الجلال الالهى للملوك السابقين لايران، وأنهم كرام الطرفين»^(١).

ويقول العلامة المحقق تقي زاده:

«وكانوا يزعمون أن الإمام الحسين عليه السلام صهر يزدرجرد آخر ملوك الساسانيين، وأن أولاده من سلالة الملوك الايرانيين». والاستاذ المحقق سعيد نفيسي بعد أن ينقل أسماء أولاد يزدرجرد عن المسعودي يقول:

«وقد ذكرت في بعض الكتب بنت اخرى من بنات يزدرجرد باسم شهربانو أو شاه زنان وقيل: إنها كانت زوجة الحسين بن علي عليه السلام وام زين العابدين علي ابن الحسين الإمام السجاد»^(٢).

هل شخصية شهربانو حقيقة؟

هل بالإمكان أن نقول بأن ليزدرجرد الساساني ابنة باسم شهربانو أو

(١) إيران در زمان ساسانیان (بالفارسية)، ص ٣٦٢.

(٢) از بروج تاجنیکز (بالفارسية) ص ٧٠.

أي اسم آخر بالاستناد إلى هذه المصادر السالفة، حتى نعتقد بأنها هي ام الإمام السجاد عليه السلام؟ وهل يكفي للمحقق الذي هو بصدد كشف الحقيقة والذي لا يريد أن يتبع الشايخ بين الناس العاديين: أن يعتمد على هذا القدر من نقول المؤرخين ويرى أن شهربانو هي شخصية حقيقية كان لها وجود خارج الذهن أو لا؟

إن أول وأقدم مصدر تاريخي لقصة شهربانو هو ما كتبه اليعقوبي يقول:

«وكان للحسين عليه السلام من الولد: علي الأكبر.. وعلي الأصغر واهمه حرار بنت يزدرج، وكان الحسين سماها غزالة»^(١).

وفي ذيل وقائع أيام عمر بن عبد العزيز يقول:

«كانت امه [أم الإمام السجاد] حرار بنت يزدرج كسرى، وذلك أن عمر بن الخطاب لما أتى بابتني يزدرج وهب أحدهما للحسين بن علي عليه السلام فسمّاها: غزالة. وقيل: إن امه كانت من سبي كابل»^(٢).

واليعقوبي كما ترون لم يسند نقله هذا إلى رواية، ثم لم يسلم به، بل شكك فيه بنقل القول الثاني بأنها من سبي كابل. هذا عدا عن أن اسم حرار لا يشبه الاسماء الفارسية، وأن هناك قرائن قوية تبين لنا عدم وقوع هذه القصة في زمان عمر، بل لم يعثر المسلمون لا على عهده ولا في أي زمان آخر على ابنة ليزدرج باسم شهربانو أو أي اسم آخر.

أما كتاب «فرق الشيعة» الذي هو أيضاً من المصادر القديمة لهذه

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٢٣ وج ٣ ص ٤٧ (ط النجف).

(٢) المصدر السابق.

القصة، فهناك قرائن عديدة من نفس الكتاب لا نستطيع معها أن ننسبها إلى أي واحد من هذين العلمين العالمين من الشيعة: أبي محمد النوبختي أو سعد بن عبد الله الأشعري القمي، بل لا نستطيع أن نعدّ كاتبه من الشيعة أصلاً. وعلى هذا فكيف نتمكن أن نجعل هذا الكتاب المجهول المؤلف وحتى تاريخ التأليف مصدرأ لهذه القصة؟! ثم انه ليس بأقوى حالاً من اليعقوبي، بل هماستان في الوهن والضعف، فهما مما كتب على الأكثر في اواخر القرن الثالث الهجري، ولا شك في أن هذه القصة كانت قد راجت في ذلك العهد. ولا يخفى أن المذكور في عبارة هذا الكتاب إنما هو: أن جهانشاه أسرت بيد المسلمين العرب، ولا يقول متى، ولا يتكلم عن احضارها إلى المدينة بمحضر عمر.

والآن لننظر في حديث عمرو بن شمر: وهذا الحديث لا يترجح من حيث الدراية على نقل اليعقوبي ولا يسلم من حيث السند والمتن، فإن روايه الأخير هو عمرو بن شمر الذي يقول فيه النجاشي: «ضعيف جداً، زيد احاديث في كتب جابر الجعفي ينسب بعضها إليه، والأمر ملتبس»^(١) وضعفه ابن الغضائري والشيخ البهائي في الوجيزة والمجلسي في مرآة العقول^(٢) فلا يعتمد على روايته.

وأما من حيث المتن: فقد جاء في هذا الحديث هذه العبارة: «وكان يقال لملي بن الحسين عليه السلام: ابن الخيرتين: فخيرة الله من العرب هاشم ومن العجم فارس».

(١) رجال النجاشي، ص ٢٠٤ (ط الهند)، وذكر العلامة في القسم الثاني من كتابه، وقال: فلا اعتمد على شيء مما يرويه، ص ٢٤٦ (ط النجف).

(٢) راجع: تنقيح المقال، ج ٢ ص ٢٢٢.

وهذه الجملة تشير إلى حديث يروي أن الرسول ﷺ قاله: «لله تعالى من عباده خيرتان، فخيرته من العرب قريش، ومن العجم فارس»^(١).
او: «إن الله من عبادة خيرتين: فخيرته من العرب قريش، ومن العجم فارس»^(٢).

او: «إن الله خيرتين من خلقه: من العرب قريش، ومن العجم فارس»^(٣).

او: «إن الله خير من خلقه صنفين: من العرب قريشاً، ومن العجم فارساً»^(٤).

ولم يرو هذا الحديث من طرق الشيعة، وإنما رواه من طرق السنة: الديلمي وابن شاهين وابن مندة وابو نعيم عن معن بن عيسى المتوفي ١٩٨ هـ من أصحاب الإمام مالك، عن حماد بن عمار بن أبي أنس القرشي عن عبد الله بن رزق المخزومي عن الرسول ﷺ.

في حين أن عبد الله بن رزق لم ير الرسول ﷺ وكأنه يرويه عن أنس بن مالك. وقد قال فيه الأزدي: حديثه ليس بصحيح^(٥).

وقد قال الله سبحانه: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾ وقال الرسول ﷺ: ﴿لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى﴾.

(١) وفيات الاعيان، ج ١ ص ٤٥٥ (ط طهران)، ومناقب ابن شهر آشوب، ج ٢ ص ٣٤٦، نقلاً عن ربيع الاربار.

(٢) بحار الانوار، نقلاً عن مواليد أهل البيت.

(٣) مزديستا وتأثير ان در ادبيات فارسي (بالفارسية) ص ٢٩٣، وفارس نامه لابن البلخي، ص ٤.

(٤) المصدر السابق.

(٥) راجع الاصابة في تمييز الصحابة، ج ٤ ص ٦٥، وكنز العمال، ج ٦ ص ٢١٥.

وعلى فرض صحة الحديث وتخصيص الآية والحديث به، فلو كان فضل لقريس على العرب فأنما هو لاشتغالهم على مزايا وصفات حميدة ممتازة وكون الرسول منهم، أما الضحى بناس مخالفين في الدين مع الرسول ﷺ بل محاربين لدينه ومقلوبين على أمرهم أمام المسلمين فأنما هو هزء وسخرية!

بل لاشك في أن هذا الحديث كمشرات الاحاديث الاخرى من قبيل ما روي انه قال: «ولدت في زمن الملك العادل» او «السلطان ظل الله في أرضه» انما هو من صنائع الشعوبيين وإشاعاتهم.

وهناك قرائن توجب - من حيث الدراسة - التشكيك في صحة هذه القصة، بل تثبيت كذبها، وبالنتيجة سقوط هذه الرواية وسائر ونقول المؤرخين عن درجة الاعتبار لسبيين:

الأول: ما يشتمل عليه هذا الحديث من المبالغات التي تقوّي كونه موضوعاً مصنوعاً، كما في قوله: «أشرف لها عذارى المدينة وأشرق المسجد بضوئها لما دخلته، فلما نظر إليها عمر غطّت وجهها». فلو كانت أدخلت المسجد بوجه سافر مكشوف حتى أن المسجد اشرق بضوئها، ولم تكن تستحي من الرجال الأجانب فكيف غطّت وجهها لما نظر إليها عمر؟! فهل كان سائر الناس من محارمها وانما كان عمر اجنبياً عليها؟! أليس هذا الكلام الجزاف دليلاً على وضع هذه القصة؟!.

الثاني: أن الطبري وابن الأثير والبلاذري والمؤرخين الآخرين حتى يعقوبي، من الذين سجلوا حروب المسلمين مع الفرس بالتفصيل، لم يأتوا خلال تفاصيلهم بأي حديث عن أسر بنات يزديجورد او اية امرأة من نساء بلاطه، بل نرى أن يزديجورد «هرب في من بقي معه فلحق بإصبهان

ثم سار إلى ناحية الري واتاه صاحب طبرستان فأعلمه حصانة بلاده وامتنع عليه ومضى إلى مرو، وكان معه ألف أسوار من أساورته وألف خيَّاز، وألف صنَّاجه»^(١).

ومن المسلم به أن خراسان إنما فتحت في خلافة عثمان بن عفان، وعلى هذا يظهر أن قصة أسر شهربانو في عهد عمر لا أساس لها من الصحة أصلاً.

ونفهم مما كتبه المؤرخون بشأن فرار يزدجرد: أن يزدجرد وحرمه منذ بداية حرب القادسية وحتى نهاية فتح نهاوند (فتح الفتوح) لم يكونوا في جبهات الحروب أبداً، وأنهم كانوا في كل حرب قبل أن يصل جيش عدوهم يصلون بأنفسهم إلى مأمن من البلاد البعيدة، بل إن يزدجرد استطاع أن يصل إلى خراسان بأهله ومعهم ألف طبَّاخ وغيرهم بسلام! وعلى هذا فكيف أسرت ابنته شهربانو وابن؟ ومتى وقعت بيد المسلمين؟! ومتى سميت شهربانو ولم نر هذا الاسم في عداد اولاده وبناته؟!

بالنظر في هذه القرائن التي تنفي أن تكون ابنة يزدجرد قد أسرت في عهد عمر، نعرف قيمة ما كتبه الزمخشري في «ريبع الأبرار» وكذلك ما كتبه الآخرون بالاعتماد على ما نقله وأضافوا عليه، قبلوا بعدد السبايا من بناته ثلاثاً، فزوجوا إحداهن لعبد الله بن عمر والثانية لمحمد بن أبي بكر، ولا دليل على أسر شهربانو فضلاً عن أخواتها. ولا أساس - أيضاً - لما كتبه صاحب «روضة الصفا» الذي روى أن

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٤١.

أسر هذه البنات الثلاث كان علي يد الحرith بن جابر الجعفي في عهد علي عليه السلام وقال: انه أخذ هذا عن «ربيع الأبرار» للزمخشري، وقد أسلفنا عبارة «ربيع الأبرار» ورأينا أن الزمخشري يقول بوقوعه علي عهد عمر!

وأما خبر «عيون أخبار الرضا» المروي عن سهل بن قاسم النوشجاني؛ فبالإضافة علي جهالة حال هذا الرجل، نراه يقول: «قوهب احدهما للحسن والاخرى للحسين فماتتا عندهما نفساوين فكانت صاحبة الحسين نفست بعلي بن الحسين، فكفل علياً بعض امهات ولد ابيه، فنشأ وهو لا يعرف أمّاً غيرها، ثم علم أنها مولاته، فكان الناس يستمنونها إله!». ونسجل علي هذا الخبر الملاحظات التالية:

أولاً: يخالف سائر الأخبار في منحهما للحسين عليه السلام!

ثانياً - من الغريب انهما تموتان نفساوين! فتموت ام الإمام السجاد بعد ولادته وتموت اختها قبل الولادة دون ولد.

ثالثاً - يكفل علياً عليه السلام بعض امهات ابيه! ولا نرى لايه الحسين عليه السلام ابي ام ولد في عداد ازواجه واولاده.

رابعاً - كون الإمام السجاد ينشأ وهو لا يعرف أمّاً غيرها، ثم يعلم أنها مولاته، وهذا مما لا يناسب مقام الإمام ولا يقوله الإمام الرضا عليه السلام.

خامساً - الرواية تقول عن لسان الإمام الرضا أنه قال للراوي النوشجاني: «إن بيتنا وبينكم نسباً»، ثم لا نرى النسبة في الرواية إلا أن نأخذ بما رواه ابن شهر آشوب في عداد الأقوال بأن اسمها برة بنت النوشجان، فتكون ابنة الجد الاعلى لهذا الراوي، ولا تكون ابنة يزدجرد ولا اسمها «شهربانويه».

ونرى هنا أن الراوي أراد أن يثبت لنفسه فخراً، فغفل خبره عن نسبة النوشجاني فحذفوا خبره إلى الشائع من نسبة السبيبة إلى يزدجرد لا النوشجاني جد الراوي. ونرى تأكيد الراوي على الرواية فيقول في آخر خبره: ما بقي طالبي عندنا إلا كتب عني هذا الحديث عن الرضا عليه السلام، فكيف غفل عن هذه النسبة الشريفة كل الطالبين فلم يكن فيهم رجل يعرفها؟!.

هذا وقد اضاف ابن البلخي في «فارسنامه» حديثاً عن علو رتبة الحسينيين على الحسينيين، لا شيء إلا لأنّ امهم كانت مجوسية الأصل! وحسب صاحب «قابوسنامه» أنها كانت تعيش في المدينة عدة سنين، فوفقت واطلمت خلالها على الحياة الداخلية لاهلها، فلم ترض بالزواج مع علي عليه السلام، لأن فاطمة (عليها السلام) كانت زوجته، وهي لا تريد أن تغضبها! وهي تعلم أن الحسن عليه السلام نكّاح النساء فلم ترض به بعلاً!.

النتيجة:

ونستنتج من كل ما سبق ما يلي:

- ١- ذكروا لهذه السيدة أكثر من خمسة عشر اسماً، وإن كان بعضها من الاختلاف في ضبط الاسم.
- ٢- اختلفوا في أبيها على خمسة أسماء هي: يزدجرد^(١)

(١) كما عليه أكثر المصادر.

سنگجان^(١) نوشجان^(٢) شیرویه بن کسری^(٣).

٣ - اختلافوا في زمن أسرها: علي عهد عمر^(٤)، وعثمان^(٥)، وعلي عليه السلام^(٦).

٤ - دلت القرائن علي عدم أسر أسرة يزدجرد، بل الذهاب بها سالمة إلى خراسان.

٥ - نقل اليعقوبي وابن قتيبة وابن سعد^(٧): أن أم الإمام السجاد اسمها غزالة، وهي من سبي كابل أو السند، وكذلك جاء في «صفة الصفوة»^(٨). وانما بدأ الحديث عن شهر باتويه منذ أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري، وقبل هذا كانوا يرونها من سبي السند أو كابل كما نقل. وإن كان المرحوم السيد المقرم في كتابه عن «الإمام زين العابدين» يقول:

«إن الرواية الثانية [يعني رواية الصدوق في عيون اخبار الرضا] تقرب من الصحة، لكون فتح خراسان سنة ثلاثين من الهجرة وهي السنة السادسة من خلافة عثمان وفي هذه السنة قتل يزدجرد بن شهريار في (مرو) كما في فتوح البلدان للبلاذري، والأخبار الطوال للدينوري.

(١) كما رجحه محقق المصدر السابق.

(٢) مناقب ابن شهر آشوب، ج ٢، ص ٢٧٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) كما عليه أكثر المصادر.

(٥) عيون اخبار الرضا عليه السلام.

(٦) كشف الغمة، ص ٢٠٠. وروضة الصفاء، ج ٣، وفرحناك أنتدراج ذيل كلمة شهر باتو.

(٧) راجع المعارف، ص ٩٤ والطبقات، ج ٩ ص ١٥٦.

(٨) صفة الصفوة، ج ٢ ص ٥٢.

فنحن أيضاً نقول باقربية هذه الرواية إلى الصحة بالنسبة إلى سائر الروايات البعيدة جداً، لكن مع الأخذ بنظر الاعتبار ما اوردناه على الرواية من أن النسبة التي ينسبها الإمام الرضا عليه السلام للراوي «النوشجاني» تقتضي ترجيح القول بأنهما لم تكونا ابنتي يزجرد الساساني، بل ابنتي النوشجان ابن آخر الهرمزان القائد الساساني المعروف، كما سبق نقله عن مناقب ابن شهر آشوب وغيره.

وحيث ينص الطبري - وغيره - يقول: «غزا سعيد بن العاص من الكوفة سنة ثلاثين يريد خراسان ومعه حذيفة بن اليمان وناس من اصحاب رسول الله (ص) معه الحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير، وخرج عبد الله بن عامر من البصرة يريد خراسان فسبق سعيداً»^(١).

فلراجع: أن عثمان إنما وهب هاتين البنتين للإمامين الحسين عليه السلام علي أنهما من حصتهما من غنائم الحرب التي اشتركا فيها في فتح خراسان، وانما نسبت رواية الفتح إلى عبد الله بن عامر بن كريز لانه سبق سعيداً إليها فنسب فتحها إليه.

(١) الطبري ٢٦٩: ٤ ط دار المعارف، وراجع: الإسلام وإيران للشهيد المطهرى، وبالفارسية كتاب الدكتور السيد جعفر شهیدی: زندگانی امام علی بن الحسین عليهما السلام.



الشعائر الحسينية الهادفة

محمد جواد بستاني

المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام تم المقدسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين
قال الصادق عليه السلام: شيعتنا مِنَّا خُلِقُوا مِن فَاضِلِ طِينَتِنَا وَعُجِنُوا بِمَاءِ
وَلَايَتِنَا، يُفَرِّخُونَ لِفَرْجِنَا وَيَخْزَنُونَ لِحُزْنِنَا رَحِمَ اللَّهِ مَنْ أَحْيَا أَمْرَنَا.

ضرورة إحياء الشعائر الهادفة

متى لا يقبل النقاش والترديد لدى كل عارفٍ بمنطق أهل البيت عليه السلام
وشريف أحايثهم، ولا سيما الأئمة الذين تلوا الحسين عليه السلام ووقعة كربلاء،
وهو وجود مجاميع كثيرة ومتواترة من الروايات، تنص على ضرورة
إحياء الشعائر الحسينية الهادفة والبناءة. وهي في واقعها وبمفهومها
تنبيه عن حق من حقوق أهل البيت عليه السلام ولا سيما الحسين بأبي هو
واقمي، يستوجب على شيعتهم تأدية حقهم هذا.

ذلك بعد ما اعتبر الائمة عليهم السلام كما في الحديث الذي ابتدأنا به مقالنا،
مميزوا شيعتهم عن الآخرين لكونهم منذ نشأتهم الأولى وبند خلقتهم التي
فُطِّروا عليها، كانوا مع أهل البيت ومن أهل البيت طينة وعقيدة ومسلماً.
فهكذا تأكيدات متواترة وصريحة منهم عليهم السلام في ضرورة إحياء
الشعائر الحسينية والاعتزاز بها، قد تجمل البعض يتصور، سواء من محبي

أهل البيت عليهم السلام أو من مبغضهم أنّها حاجة ملحة لهم يطلبونها من شيعتهم. أي أنّ هناك نقصاً أو خللاً في ثوراتهم أو ذواتهم أو مكانتهم الاجتماعية، لا بُدّ من اصلاحها وتكميلها وتشبيدها على يد شيعتهم ومحبيهم.

والصحيح عكس ذلك تماماً. أي أنّ المؤمن إذا أراد أن يكون شيعياً وموالياً تابعاً لسادته وائتمه بمعنى الكلمة، فلا بُدّ أن يسير بسيرتهم ويستن بسنتهم كما حدّد ذلك امامنا زين العابدين عليه السلام في زيارة شهر شعبان بقوله: **الْأَزِمُ لَهُمْ لَاحِقٌ، لَا الْمَتَقَدِّمُ وَلَا الْمَتَأَخِّرُ.**

إذن هم سلام الله عليهم باعتبارهم نوراً يستضاء بهم ومرآة ينظر اليهم، نحن الذين نحتاجهم لإصلاح أنفسنا ودياننا، ولكي نفتيس منهم الصحيح فنتبعه ونتجنب الباطل فنحرزه. سواء في هذا الاقتباس أو الاجتناب، للتكاليف التي تكون الزاميتها شديدة كما يصطلح عليها الأصوليون وهي الواجبات والمحزّات، أو التي يكون طلبها أخف وهي المستحبات ومنها إحياء الشعائر الحسينية عليه السلام.

وأما الفوائد الكامنة في إحياء هذه الشعائر، فهي وإن عدّها بعض الكتاب إلى أكثر من عشرين فائدة، لكننا نكفّ عن ذكرها وتفصيلها في هذا المقال لتتعرّض إلى اصل بحثنا وهو الإشارة إلى أساليب المشروعة من الشعائر الحسينية المتداولة في البلاد الشيعية. إذ إنّ هذه الشعائر والمراسيم على قسمين:

قسم يختص بأيام أحزانهم وعزائهم وهو الذي نستعرضه بصورة

اجمالية ليتين سبب تأكيداتهم ﷺ في ضرورة إحياء أمرهم.
وقسم يختص بأيام فرح وسرور أهل البيت، والذي نترك بحثه
لمجال آخر.

أهل البيت ﷺ والشعائر الهادفة

لتوضيح الفكرة أكثر يلزم بنا أن نشير إلى أن أساليب إحياء أفراح أهل
البيت ﷺ وأحزانهم، ولا سيما الشعائر الحسينية العاشورائية منها، وإن
كانت هي تابعة من صميم الحب والعشق التي يبدوها الشيعة تجاه مولاهم
الحسين ﷺ، راحت تتخذ وبمرور الأزمنة طابعاً يتفاير وما هو المفروض
على المؤمن الشيعي الداعي إلى الحسين وأهدافه المتعالية؛ وإن كانت هي
ضئيلة بالقياس إلى جميع الشعائر وحجمها وثقلها؛ حيث نحس بالوجدان
حصول تعارض بين مقولة الإمام الصادق ﷺ، والتي افتحنا بها مقالنا وهو
يبدى فيها كنه استثنائه بشيعته، ويعلق أقصى آماله عليهم حين يقول:
شيعتنا منا، وبين ما يقوم به هؤلاء القلائل المحسوبون على خط أهل
البيت ﷺ من تقاليد وتصرفات، لا يتفاعل بل لا يستطيع ان يتفاعل من
خلالها المؤمن الشيعي مع الحسين ﷺ ونهضته.

ذلك كله بسبب الزيادات الوافدة على هذه الشعائر المباركة، وعلى
التشيع كمذهب حقاني، صارت سبباً للاستخفاف والسخرية من قبل
المخالفين والأعداء.

هذا في الوقت الذي ليس لاتباع أهل البيت ﷺ حاجة ماسة لإثبات

حقانيتهم ومظلوميتهم من خلال هذه الزيادات المشينة للمذهب، بعد ما توجههم الباري بفضائل ومكارم تغنيهم عنها.

وأما بالنسبة لهذه الشعائر وأساليبها المشروعة والمجازاة والمعقولة التي ورد بشأنها نص من قبل الشارع المقدس، فلو راجعنا كتب الحديث والزيارات والسير، وتمعنّا فيما نقل عن أئمتنا وكيفية تعاملهم مع الثورة الحسينية، وكذا ماسته علماؤنا الأعلام وصنفوه في هذا الحقل، لاستطعنا أن نقسم وظيفة المؤمن الشيعي تجاه ولي نعمته الحسين عليه السلام، وأحداث محترم وصفر إلى صنفين من الشعائر والممارسات:

أولاً، الممارسات والشعائر الفردية التي يستطيع أن يقوم بها كل فرد شيعي حتى لو كان يعيش لوحده ومن دون الاستعانة بأخوته الآخرين.

ثانياً، الممارسات والشعائر العامة والتي يلزم فيها تشريك مساعي مجموعة من الموالين للحسين عليه السلام.

وغرضنا من هذا التقسيم الابتكاري هو أنّ المؤمن الشيعي إذا كان معذوراً من القيام بالممارسات العامة التي لها طابع جماهيري علني، وهو يعيش في أجواء أغلبية أهلها من المخالفين أو الشرورين، والذي تفرض عليه التقية والاحتياط، فلا يوجد عليه هناك مانع إذا ما قام بالممارسات الفردية أو أكثرها ونال أجرها، دون أن يتحسس بذلك الآخرون.

الشعائر الحسينية العامة

١- إقامة مجالس العزاء طيلة شهري الأحزان محرم وصفر، فهذه

المجالس المباركة وإن كانت بالنظرة العابرة تتكوّن من عناصر ثلاثة: المكان الذي يعقد فيه المجلس، والخطيب والرائي الذي يحيي المجلس بحديثه، والجمهور الذين يعظم المجلس بحضورهم، لكنها في واقع الأمر تنتج منافع نذكر منها فائدتين:

الف - بما أن هذه المجالس الحسينية شعبة من شعائر الدين، فجمع المشاركين في إحيائها يقصدون نيل الثواب وكسب الأجر من إقدامهم لها. لا سيما وأن النصوص الروائية لأهل البيت عليهم السلام تثبت حضور أرواح الأئمة وخصوصاً السيدة فاطمة الزهراء في هذه المجالس. كمؤيد لذلك هو سؤال الإمام الصادق عليه السلام من فضيل بن يسار حين سأله: أَتَجْلِسُونَ وَتَتَحَدَّثُونَ؟ قال: نعم، قال الإمام عليه السلام: أما والله إنني لأحبّ تلك المجالس فأخبروا أقرناً.

ب - هذه المجالس وإن كانت كثيرة كما أسلفنا، ولكن أهمتها ما يجب أن تكون مدرسة تربوية، تقدّم خلالها الحلول البناة لما يمرّ على عالمة الإسلام من مشاكل ومحن. وهذا هو مضمون كلام الإمام الصادق عليه السلام لفضيل: إِنَّ حَدِيثَنَا يُخَيِّ الْقُلُوبَ، بل وهناك الكثير من الوقائع تدلّ على إحياء قلوب حتى غير المسلمين بتأثير الشعائر الحسينية ولا سيما مجالس عزائه سلام الله عليه.

٢ - المشاركة في المسيرات العزائية الحاشدة؛ فهي وإن كانت التقاليد المرسومة فيها تختلف باختلاف البلدان الشيعية وتوجهات ساكنيها ومدى تعاطفهم مع أهل البيت عليهم السلام، لكنها جميعاً سواء التي يجيزها الفقهاء

أو التي ينظرون إليها بنظرة الاحتياط يمكن تفسير قوائدها وأهدافها إلى تفسيرين:

ألف - إنها استجابة علنية لصرخات الحسين عليه السلام واستغاثاته المتكررة منذ أن خرج من مكة وحتى أن التحقق بالرفيق الأعلى. بإقامة الشيعة وعلى مز العهود لهذه المسيرات العزائية يثبت ولاءهم للإمام الحسين عليه السلام الذي كلما استنصر الناس في زمانه لم يجيبوه، أما المتأخرون عنه فأجابوه بهذه التقاليد والمراسيم الولائية والعاطفية.

يقول امامنا الصادق عليه السلام: رَجِمَ اللَّهُ شَيْعَتَنَا شَيْعَتَنَا وَاللَّهِ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ. فَقَدْ وَاللَّهِ شَرُّ كُونَا فِي الْمُصِيبَةِ بَطُولُ الْحُزْنِ وَالْحَسْرَةِ.

ب - إنها إعلان استعداد صريح لاستقبال إمام زمانهم الموعود، والذي هو من أجل تكوين حكمه الإسلامي العادل بحاجة إلى جند أوفياء. فهذه المسيرات العزائية تعتبر ربيعة وانقياداً رسمياً منهم لإمام زمانهم الحي بعد أن حرموا من تقديم بيعتهم للإمام الحسين عليه السلام الشهيد بكر بلاء.

ولذلك لا يغالي الكثير منهم حين يخاطب الحسين عليه السلام قائلاً: ياليتنا كنا معك.

فالشيعة المشارك في هذه المراسيم لووضع هذين الهدفين، أي إجابة صرخات الحسين عليه السلام الماضية والمبايعة لحكومة الإمام المنتظر المستقبلية نصب عينه؛ لعرف كيفية التعامل مع الأحداث السياسية والاجتماعية التي تمر عليه بين الفترتين الماضية والمستقبلية. وما اتخاذ الطغاة الأساليب القمعية لاستئصال هذه الظاهرة الجماهيرية على مز

الدهور إلا مصداقاً بارزاً لخطورتها وبسالة روادها. وهو ما أكدّه الإمام الخميني بعد تكوينه للحكومة الإسلامية في إيران بقوله مراراً: احيوا عاشوراء فإن كلّ مالدينا هو من محرم وصفر.

٣- إطعام المؤمنين وسقيهم ولا سيما أصحاب العزاء منهم في مثل هذه المناسبات وذلك:

أولاً، بسبب الجهد والعناء اللذين يبذلهما المعزون في مثل هذه المناسبات والأيام؛ حيث بالضرورة الوجدانية والأخلاقية يستلزم على الآخرين الترفيه عنهم وتسليّة فؤادهم المفجوع بشتى الطرق؛ منها: اشباعهم وإرواءهم وهم بتلك الحالة.

كما في كتاب المحاسن للبرقي لما رجعت نساء الحسين عليه السلام للمدينة أقمن حرائر الرسالة المأتم على سيد الشهداء. ولبسن المسوح والسواد، نانحات الليل والنهار والإمام السجاد يعمل لهن الطعام.

وثانياً، للنصوص الواردة في فضل الإنفاق على الآخرين. فما أفضل من أن يتفق الإنسان الشيعي على أبناء مذهبه الذين يسعون من أجل تعظيم شعائر الله بكلّ ما اوتوا من قوة مشاعر.

افديكم آل النبي بمهجتي وأبي وأبذل فيكم الأموال

ارجوكم لي في المعاد ذريعة ويكم أفوز وأبلغ الآمالا

ففي هذا المجال الدال على حب الإنسان المؤمن لساتته أئمة أهل البيت عليهم السلام لا بأس لاستشهاد بموقف النبي مع صديقات زوجته خديجة بعد رحيلها؛ فالمعروف أنّ النبي كلما ذبح شاة قطعها ثم بعث

بأوصالها إلى صديقات خديجة وذلك حباً وكرامة منه لها.
فما أعظم من محبوبنا الحسين عليه السلام إذا قدمنا من أجله شيئاً من أموالنا،
وذلك بالاتفاق على شيعته ومحبيه وزواره!

وهذا الأمر هو الذي دفع إمامنا الصادق عليه السلام بالدعاء والتزحم على
شيعته الباذلين والمنفقين قائلاً: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ولِإِخْوَانِي وزُورِ قَبْرِ جَدِّي
الْحُسَيْنِ الَّذِينَ أَنْفَقُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَشْخَصُوا أَبْدَانَهُمْ رَغْبَةً فِي بَرْنَا.

٤- تعزية المؤمن أخاه المؤمن، والذي يعتبر أسهل مما ذكر حتى
الآن، بل حتى أسهل من الممارسات الفردية التي سنذكرها فيما بعد.

فهذا العمل مضافاً إلى كونه مقوياً لأواصر الأخوة فيما بين شيعة
الحسين عليه السلام، كذلك ينبيء عن معاشتهم الروحية مع الحسين عليه السلام وثورته،
وأما كيفية تعزية المؤمنين بعضهم بعضاً، فمالمذكور في رواية عقبة
عن الإمام الباقر عليه السلام حين سأل: كيف يعزي بعضنا بعضاً؟ قال: تقولون:
اعظم الله أجورنا بمصابنا بالحسين عليه السلام وجعلنا وإياكم من الطالبين بشاره مع
وليته الإمام المهدي من آل محمّد، كما ولا يغفل تقديم التعازي إلى
النبي عليه السلام وعلي عليه السلام وفاطمة عليها السلام والحسن عليه السلام والمهدي عليه السلام.

٥- إيكاء المؤمنين في مصاب الحسين عليه السلام الجلال. سواء كان ذلك
بتلاوة مصرعه المشجي أو قراءة الأشعار المناسبة في المقام، فإذا صار
تالي المصراع وقارئ الشعر سبباً لذرْف دموع المؤمنين، فحيثئذ يكون
لها وينص روايات أهل البيت عليه السلام ثوابهما الخاص.

كما أؤكد على ذلك الإمام الرضا عليه السلام في حديث له مع الشاعر دعبل

الخزاعي وهو يرثيه لرتاء الحسين عليه السلام فقال: يا دعبل، إرث الحسين فأنث ناصرنا ومادحنا مادمت حياً فلا تقصر في نصرتنا ما استطعت. ننوّه إلى أنّ هذه الشعيرة الحسينية هي من الممارسات التي سبق وأن أكد فقهاؤنا العظام على ضرورة تنزيهاها من المشهورات والمبالغات.

الشعائر الحسينية الفردية

وهي كما أسلفنا ممارسات عزائية يستطيع كلّ فرد من الشيعة أن يأتي بها لوحده.

١- التظاهر بالحزن ومعاشة مأساة الحسين عليه السلام وأنصاره على مستوى القلب والوجه كما حتّذ لنا ذلك الإمام الرضا عليه السلام حين قال: نفس المهموم لظلمنا تسبيح وهمّه لنا عبادة.

٢- عدم الضحك والهزل، وذلك بصرف الوقت في أمور تتفاير وصفات الشيعي الموالي والحزين. في هذا المجال ينقل عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: كان أبي (موسى بن جعفر) إذا دخل شهر محرم لم يُر ضاحكاً حتى يمضي منه عشرة أيام.

٣- ارتداء السواد ونصبه في المآتم. وهذا العمل أيضاً من السنن العرفية الجارية من قديم الأزمنة بل أنّ الوثائق التاريخية المروية تسنده إلى زمن واقعة الطف؛ حيث تنص الروايات أنّه بعد شهادة الحسين عليه السلام لم تبق هاشمية ولا قرشية إلّا ولبست السواد على الحسين عليه السلام وتديته.

٤- زيارة الحسين عليه السلام والشهداء من أنصاره، إن أمكن ذلك من قرب،

أي بالحضور في حرمه الشريف، ومالها من كرامة يكون زائر قبر المولى قد نالها، بحيث صار مستوجباً للثناء من الإمام الصادق عليه السلام وذلك حين استفسر من تلميذه حماد الكوفي عن كيفية زيارة أهل العراق لمزار الحسين عليه السلام فقال عليه السلام: بلغني أن أناساً من أهل الكوفة وقَوْماً آخرين من نواحيها يأتون قبر أبي عبد الله في النصف من شعبان فيبين قارئ يقرأ القرآن، وقاص يقص ومادح لنا ونساء يتدبهن قال حماد: قد شهدت بعض ما تصف، قال الإمام عليه السلام: الحمد لله الذي جعل في الناس من يفد الينا ويمدحنا ويرثي لنا وإن لم يمكن فمن البعد، أي من أي نقطة من العالم. كما صرح الإمام الباقر عليه السلام: إن التبتد يؤمى إليه بالسلام ويجهد في الدعاء على قائليه وليثيكه ويأمر من في داره بالبكاء عليه.

٦- البكاء المؤدي إلى ذرف الدموع؛ وذلك بعد ما يتلوع قلب المؤمن المُنحِب للحسين عليه السلام.

فبفض النظر عن أن البكاء في هكذا مناسبات يزيل العقد النفسية التي تعترى الإنسان المجهور على ممارسة نشاطاته الاجتماعية المنهكة للعواطف والأعصاب، وهناك روايات كثيرة من أهل البيت عليه السلام يؤكدون فيها على ضرورة ذرف الدموع بمصاب الحسين عليه السلام.

قال إمامنا الصادق عليه السلام: إِنَّ الْبُكَاءَ وَالْجَزَعَ مَكْرُوهٌ لِلْعَبْدِ مَا خَلَا الْبُكَاءَ وَالْجَزَعَ عَلَى الْمُحْسِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ مَا جَوَّزَ.

بل وأكثر من ذلك يترحم عليه على شعبة جذة الحسين عليه السلام قائلاً: اللَّهُمَّ، وَاَرْحَمْ تِلْكَ الْأَعْيُنَ الَّتِي جَزَتْ دُمُوعُهَا رَحْمَةً لَنَا

٧- التباكي هو التظاهر بالبكاء، حيث قد لا يرافقه ذرفاً للدموع، وبالتالي هو دليل على عدم تلزق القلب وحنينه كما في البكاء. ولكن على كل حال يكون المتباكي عن صدق، مأجوراً ومثاباً كما قال النبي : من تباكى فله الجنة.

٨- الإمساك عن الطعام والإكثار من الدعاء في يوم العاشر من المحرم، وذلك مشاطرة للإمام الحسين عليه السلام ومن غير نية للصوم بالطبع. كما قال الإمام الرضا عليه السلام للزيان بن شبيب: يا بن شبيب، من صام هذا اليوم، ثم دعا الله عز وجل استجاب الله له كما استجاب لكرىا عليه السلام؛ (وذلك عندما طلب من الله الذرية فوهبه الباري سبحانه وتعالى). ولا سيما في الساعات الأخيرة من عصر عاشوراء الذي كان يكثر فيها الحسين عليه السلام الدعاء فيها، مضافاً إلى كونها ساعة شهادته.

وأما الدعاء المفضل لهذه الساعة حسب ما أوصى به الإمام الرضا عليه السلام: **يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ مَعَهُمْ فَوْزاً عَظِيماً.**

٩- انشاد الشعر في اظهار مظلومية الإمام الحسين عليه السلام وأما المؤيد لجواز انشاد هذه الاشعار الرثائية فهي:

أولاً، منع الأئمة من إنشاد الأشعار في أيام العزاء، سوى الأشعار المتحدثة عن مظلومية الحسين عليه السلام.

ثانياً، النص المنسوب للإمام الصادق عليه السلام يقول فيه مَنْ قَالَ فِي الْحُسَيْنِ شِعْراً فَبَكَى وَابْكَى غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، وَوَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ.

١٠- لعن قتل الحسين عليه السلام ولا سيما عند شرب الماء كما عن داود

الرقبي قال: كنت عند أبي عبد الله الصادق (ع) إذا استسقى الماء، فكلما شربه رأيت أنه قد استعبر واغرورقت عيناه بدموعه، ثم قال: يادود لعن الله قاتل الحسين (ع) فما من عبٍ شرب الماءَ قد ذكر الحسينَ ولعن قاتله إلا كتبت الله له مائة ألف حسنة وخطت عنه مائة ألف سيئة وخشعه الله تعالى يوم القيامة تلج القواد.

١١- اللطم على الصدور وبتبعه الوجوه والرؤوس، والذي يمكن القول بأنها من أوائل المراسيم التأييدية التي اتخذها الشيعة وبتقرير من أئمة زمانهم في الحداد على أبي عبد الله الحسين (ع) حين تطورت وتكاملت في أزمنتنا المتأخرة هذه.

والمؤيد لذلك هو التقارير المروية عن الإمام السجاد والباقر والصادق (ع)؛ ذلك إذا لم يؤذ إلى ضرر معتد به على خلقه الإنسان وخلقته وعقله بالطبع.

هذا موجز ما أردنا ذكره في هذا المقال، وإن كان هناك شعائر أخرى ضيقة الانتشار يمارسها أتباع أهل البيت في مناطق تواجدهم، أعرضنا عن ذكرها

ومن الله نستمد العون

المصادر:

كامل الزيارات لابن قولويه
ثواب الأعمال للشيخ الصدوق
مفاتيح الجنان للمحدث القمي
مقتل الحسين للسيد المقزم
ثورة الإمام الحسين للشهيد محمد الصدر
مأساة الحسين عليه السلام للخطيب الكاشي
أحسن الجزاء للأعرجي الفخام

الفهرس التفصيلي

مقدمة الهيئة العلمية للمؤتمر

١- علم الإمام الحسين عليه السلام بشهادته / المبدع محمد حسين مرعشي العاملي

٣	المقدمة
٤	الجواب الأول
٦	الجواب الثاني
٨	الجواب الثالث
٩	الجواب الرابع
١٠	الجواب الخامس
١٤	الجواب السادس
١٨	الجواب السابع

٢- الحسين عليه السلام والبيعة ليزيد بن معاوية / حسن عسائي

٢٤	المقدمة
٢٥	١- مفهوم البيعة
٣١	٢- قميص عثمان وحيلة معاوية بن أبي سفيان
٤١	٣- ولاية العهد
٤٧	٤- موقف الإمام الحسين <small>عليه السلام</small> من البيعة ليزيد
٥١	النتيجة
٥٢	المصادر

٣- الإمام الحسين عليه السلام شرعية الثورة على الشرعية المزعومة / مختار الأسدي

- ٥٧ إشاره من عالم الغيب
- ٥٩ تراكم التقصيرات
- ٦١ تقصير مع الإمام الحسن عليه السلام
- ٦٢ وتقصير آخر مع الإمام علي عليه السلام
- ٦٣ المقصرون، في الدعة ألسنتهم كالمخارق وفي الجهاد رؤاؤون كالشعالب
- ٦٦ وتسلب أبواب السوء
- ٦٧ وجاءت نهضة الحسين لتكشف الزيف والمزيفين
- ٧٣ الموقف الحسيني هو المعيار

٤- المنهاج الأموي وثورة التصحيح الحسينية / سعد المنصوري

- ٨١ الشهيد
- ٨٢ كيف تسلب هؤلاء؟
- ٨٥ النظرية السياسية في الإسلام
- ٨٦ الركن الأول، العقيدة
- ٨٧ الركن الثاني، الإمامة
- ٨٨ الركن الثالث، الشريعة (القانون)
- ٩١ الركن الرابع، العاطفة
- ٩٣ موقف الأمويين من الإسلام
- ٩٧ شعار نحن مع من غلب
- ١٠٠ أولو الأمر في القرآن الكريم
- ١٠٢ نظرية الغلبة عند فقهاء الجمهور

١٠٧ البدائل الأموية
١٠٧	١ - الشخصية النموذجية
١٠٨	٢ - المجتمع النموذجي
١١١	٣ - النظام السياسي
١١١	أولاً: الخلافة
١١٣	ثانياً: البيعة
١١٤	٤ - النظام الاقتصادي
١١٥	٥ - المشروع الثقافي
١١٦	الحكم الأموي خارج عن الإسلام
١١٨	الإمام علي عليه السلام يحذر من الأمويين
١٢٠	مسؤولية الإمام الحسين عليه السلام
١٢٢	الحسين عليه السلام باتجاه الإصلاح
١٢٣	الإمام الحسين عليه السلام الخليفة الشرعي
١٢٤	معطيات الثورة
١٢٨	المصادر

٥- الإمام الحسين عليه السلام في مواجهة الانحراف / سعد متعب

١٣٣ المقدمة
١٣٨	الحسين في مواجهة الواقع المنحرف
١٣٨	إقصاء أهل البيت وأزمات المستقبل
١٤٠	إمامة أهل البيت ضمان من الإنحراف
١٤٣	الحركة الإصلاحية في حياة الأئمة

١٤٤	١- المجال الحقوقي.....
١٤٤	٢- المجال الاقتصادي.....
١٤٥	٣- المجال الإداري.....
١٤٦	الإمام الحسين محمدي وعلوي المنهج.....
١٤٧	الانحدار الخطير.....
١٥٠	الحسين عليه السلام يحطّم الصمت.....
١٥٢	الإمام الحسين عليه السلام يعلم بشهادته.....
١٥٣	إقصاء الإسلام عن الحياة.....
١٥٥	خيارات ومواقف.....
١٥٦	الخيار الأول أن يبايع يزيد.....
١٥٧	الخيار الثاني لا يبايع ولا يترك المدينة أو مكة.....
١٥٨	الخيار الثالث يذهب إلى اليمن.....
١٥٩	الخيار الرابع يرفض البيعة ويدعو لنفسه.....
١٦٠	تأسيس خط المقاومة.....

٦- دراسة عسكرية للثورة الحسينية / عباس ذهبيات

١٦٥	المقدمة.....
١٦٥	الموقف العام.....
١٧٠	المعلومات.....
١٧٠	الأسلوب الأول استنطاق المسافرين والاستفسار منهم.....
١٧١	الأسلوب الثاني المكاتبات.....
١٧٢	الأسلوب الثالث الاستطلاع.....

١٧٤	تطهير القوات
١٧٦	الاصطدام المبكر
١٨٠	الأعمال التمهيديّة
١٨٦	سير القتال
١٨٦	أولاً: صفحة القتال الأولى: القتالي الجماعي
١٨٧	ثانياً: صفحة القتال الثاني: المبارزة الفردية
١٩٢	خلاصة البحث

٧- هيئة البراغمية في صراع الطف / صادق الروازق

١٩٧	المقدمة
٢٠٣	الأمة وغياب الموقف
٢٠٦	علي عليه السلام وكشف المنهج الباراغماتي
٢٠٩	الحسين عليه السلام وكشف المنهج الباراغماتي
٢١٠	رسالة الإمام عليه السلام
٢١٣	حركة الحسين عليه السلام وميعة الأمة
٢١٥	الدوافع الذاتية للباراغماتيين
٢٢١	البراغماتية وانتحال القدسيّة
٢٢٦	البواعث القيمية للنهضة
٢٢٩	القيميّة في صنع المواقف
٢٣٣	حتمية القتل في المنهج الباراغماتي

٨- أحكام فقهية حول الشخصية الحسينية / عبد المجيد نجيبان

- أحكام فقهية حول الشخصية الحسينية ٢٣٧
- ١- فضيلة التربة الحسينية..... ٢٤٠
- أ- استحباب كتابة القرآن وسائر الأدعية على الكفن بترية الحسين عليه السلام ٢٤١
- ب- استحباب أن يجعل في قبر الميت شيء من تربة الحسين عليه السلام ٢٤١
- ج- استحباب الغسل لأخذ التربة الحسينية..... ٢٤٢
- د- استحباب السجود على التربة الحسينية..... ٢٤٣
- هـ- استحباب كون التسيب بطين قبر الحسين عليه السلام ٢٤٤
- و- استحباب استصحاب شيء من تربة الحسين عليه السلام للمسافر ٢٤٥
- ز- التبرك والتوسل عند التصاري زمن الطوفان..... ٢٤٥
- ح- من سنن الولادة تحنيك المولود بترية الحسين عليه السلام ٢٤٥
- ط- جواز الاستشفاء بترية الحسين عليه السلام ٢٤٦
- ٢- أحكام الصلاة والمساجد..... ٢٤٧
- أ- البكاء على الحسين أمر أخروي ولا يبطل الصلاة ٢٤٨
- ب- التخيير بين القصر والاتمام في الحرم الحسيني واستحباب الاتمام ٢٤٨
- ج- النهي عن الصلاة في المساجد التي جددت فرحاً بقتل الحسين عليه السلام ٢٤٨
- د- عدم كراهية قراءة مراتبي الحسين عليه السلام في المساجد ٢٤٩
- ٣- حرمة صوم يوم عاشوراء..... ٢٤٩
- ٤- فضيلة زيارة الإمام الحسين عليه السلام ٢٥١
- أ- استحباب الغسل لزيارة الإمام الحسين عليه السلام ٢٥١
- ب- استحباب زيارة الإمام الحسين عليه السلام ٢٥٢
- ٥- مقام الإمام الحسين عليه السلام في النسب النبوي الشريف ٢٥٢

٢٥٣	الحسن والحسين <small>عليهما السلام</small> في النسب النبوي الشريف
٢٥٤	٦- تأثير الإمام الحسين <small>عليه السلام</small> في التراث الشعبي والعادات الاجتماعية
٢٥٤	أ- كراهية النوح إلا على الحسين <small>عليه السلام</small> والشهداء معه
٢٥٤	ب- استحباب ذكر عطش الحسين <small>عليه السلام</small> عند شرب الماء
٢٥٥	ج- أحكام استحباب التسمية بالحسين <small>عليه السلام</small>
٢٥٥	حصار البحث
٢٥٦	خلاصة البحث

٩- التربة الحسينية / عبدالرضا الزبيدي

٢٦١	الخلاصة
٢٦٢	المقدمة
٢٦٣	أول من كُتب بأبي تراب
٢٦٣	أئمة أهل البيت <small>عليهم السلام</small> والتربة الطاهرة
٢٦٥	الاعتقاد
٢٦٦	تراب القارورة والدم العبيط
٢٧٠	الشفاء والتبرك عند المسلمين
٢٧٣	التربة الطاهرة بين الشفاء والأمان
٢٧٥	تربة الإمام الحسين <small>عليه السلام</small> والأمن من الخوف
٢٧٦	آداب الاستشفاء
٢٧٨	حرمة أكل الطين إلا طينة الإمام الحسين <small>عليه السلام</small>
٢٧٩	حدود حريم قبر الحسين <small>عليه السلام</small>
٢٨٠	مصادر البحث

١٠- كيف لا انتغر بالحسين / عمام المهاجر

٢٨٥	المقدمة
٢٨٧	المقصد الأول
٢٩١	المقصد الثاني
٢٩٣	المقصد الثالث
٢٩٤	خاتمة المقاصد

١١- حول السيدة شهربانو / محمد عادي اليوسفي الفروي

٢٩٨	اسم أم الإمام زين العابدين
٣٠٠	«شهربانو» ابنة من؟
٣٠٩	أسرة شهربانو
٣١٠	هل شخصية «شهربانو» حقيقية؟
٣١٧	النتيجة

١٢- الشعائر الحسينية الهادفة / محمد جواد يستاني

٣٢٣	ضرورة إحياء الشعائر الهادفة
٣٢٥	أهل البيت (عليهم السلام) والشعائر الهادفة
٣٢٦	الشعائر الحسينية العامة
٣٣١	الشعائر الحسينية الفردية
٣٣٥	المصادر
٣٣٧	الفهرس التفصيلي



المجمع العالمي لأهل البيت

طهران - شارع الشهيد نجات اللهی - الزقاق رقم ۲ - مبني رقم ۱۵

هاتف: ۸۹۰۷۲۸۹ فاكس: ۸۸۹۳۰۶۱

www.ahl-ul-bait.org

ISBN: 964-7756-34-8